الاستاذ الدكتور منير العجلاني

تاريخ البلاد العربية السعودية

الدولة السعودية الأولى

الجزء الثالث

عهد الإمام سعود الكبير



تاريخ البلاد العربية السعودية

الدولة السعودية الأولى

الجزء الثالث

عهد الإمام سعود الكبير

تأليف

الدكتور منير العجلاني

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

أستاذ تاريخ الحقوق في الجامعة السورية

(سابقاً)

الوثائق

يجد القارىء ، في آخر الكتاب ،
صور الوثائق والمراسلات المطوية
التي ظفرنا بها في استانبول وغيرها ،
مع ترجمتها الى العربية ، و« تعليقاتنا » عليها

الطبعة الثانية
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

تذكرة الهوية

الامام سعود بن عبد العزيز

اسمه : سعود

أبوه : عبد العزيز بن محمد

أمه : بنت عثمان بن معمر [١]

كنيته : أبو عبد الله

لقبه : « سعود الكبير » [٢]

عام ولادته : ١١٦١ هـ . — ١٧٤٨ م . [٣]

عام مبايعته بولاية العهد : ١٢٠٢ هـ .

سنه عند ولايته العهد : ٤١ عاماً

عام مبايعته إماماً : ١٢١٧ هـ . — ١٨٠٣ م .

عام وفاته : ١٢٢٩ هـ . — ١٨١٤ م .

مدة ولايته : ١١ عاماً تقريباً [٤]

أولاده : عبد الله ، فيصل ، ناصر ، تركي ، ابراهيم ، سعد ، فهد ، مشاري ، عبد الرحمن ، عمر ، حسن ، خالد

على هـامش « الهوية » :

(١) أم سعود : توهم بعض المؤلفين - مثل بروكلمان وغيره - أن أم سعود هي بنت الشيخ محمـد بن عبد الوهاب ، وليس الأمر كذلك .

(٢) لقب سعود : لقب سعود بالكبير بعد وفاته .

(٣) عام ولادة سعود : في كتاب « مثير الوجد » أنه وُلد سنة ١١٦٣ . وفي « البـدر الطالع » أنه وُلد سنة ١١٦١ ، وفي رواية ثانية أنه وُلد سنة ١١٦٣ .

وقد اخترنا رواية « البدر الطالع » الاولى ، لأنها مؤيَّدة برواية ابن بشر ، الذي ذكر في تاريخه أن عثمان بن معمر قُتل سنة ١١٦٣ هـ . وكان سعود يومئذٍ طفلاً رضيعاً لم يُتمّ السنتين ..

(٤) مدة ولاية سعود : قلنا إنهـا ١١ عاماً تقريباً ، وفي حساب دقيق لابن بشر : عشر سنين وتسعة أشهر وأيام ..

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

كان عهد سعود استمراراً لعهد أبيه عبد العزيز ، مع زيادة في الحروب والتوسع ، والرخاء والثراء ، واستقرار في الأمن والطاعة .

كان هذا الإمام العظيم ، الذي لُقـّب بالكبير ، مهيباً مرهوباً ، وكان الملوك والأمراء في الأقطار المجاورة لملكه يرتجفون خوفاً لمجرد ذكره ، وينهزمون فرقاً عند رؤيته مقبلاً نحوهم بجيوشه المنصورة ، فقد كان ، كما وصفه ابن بشر : « ثبتاً شجاعاً في الحروب ، محبباً اليه الجهاد، في صغره وكبره، وأعطي السعادة في مغازيه ، فلم تهزم له راية ، بل نصر بالرعب الذي ليس له نهاية ، وكل أيامه مواسم ، ومغازيه غنائم ، وقذف الله الرعب في قلوب أعدائه ، فإذا سمعوا بغزاه ومعداه ، هرب كل منهم وترك أخاه وأباه ، وماله وما حواه .. » .

كان سعود يشبه ، في هذه الهالة المتوهجة اللاهبة التي تحيط باسمه ، نابوليون بونابرت ، امبراطور فرنسا ، الذي ظهر في زمانه ، ودوّخ البلاد الاوروبية بحروبه وفتوحاته ، وقد كانت سيرة هذين العملاقين مصداق قول المتنبي :

ولا تحسبن المجـــد زقاً وزينةً
فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريب أعناق الملوك وأن تُرى
لك الهبوات السود والعسكر المجر
وتركك في الدنيـــا دوياً كأنما
تداول سمعَ المرء أنمـــله العشر

.. ولكن هذا الإمام العظيم رُوِّع في آخر أيامه بالغزو التركي المصري يجتاح بلاده فينتزع منه، في حياتـــه، الحرمين والطائف، ثم يقضي، في عهد ابنه عبد الله، على ملكه الكبير ويدمّر عاصمته المجيدة : الدرعية .

كان هذا العدوان الهائل، الذي انتدب له سلطان الترك واليه على مصر محمد علي باشا، جريمة فظيعة، وقفت الى زمن طويل حركة الوحدة العربية، والنهضة القومية، ولم يكن الدكتور طه حسين مسرفاً حين قـــال : « لولا أن الترك والمصريين اجتمعوا .. وحاربوه في داره بأسلحة لا عهد لأهل البادية بها .. لكان من المرجو أن يوحّـد.. كلمة العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة، كما وحّد ظهور الإسلام كلمتهم في القرن الأول »[1] .

هل نستطيع أن نأخذ على الإمام سعود أخطاء سياسية تورط بها، في آخر أيامه، مع كثرة فضائله وحسناته، التي لا تحصى ولا تعد، فساعدت على وقوع الكارثة التي انتهت بزوال الدولة السعودية الأولى ؟

والجواب : إن أحـــداً لا يستطيع استكشاف الأقدار قبل وقوعها .. فقد تكتب الهزيمة على أحسن الزعماء وأفضل القادة، لتبدل في ميزان القوى العالمية لا قبل لهم بالتغلب على آثاره .. ولكننا، على كل حال، نستطيع أن نأخذ على الإمام سعود أنه كان أقل من أبيه الإمام عبد العزيز كرماً و (مرونة)، وربما

---

(١) قال طه حسين هذا في معرض كلامه عن الحركة الاصلاحية الوهابية في كتابه : (الحياة الأدبية في جزيرة العرب) .

كان يستطيع ، لو توافرت له هاتان الفضيلتان ، أن يتفادى بهما كثيراً من المتاعب والخسائر .

الكرم مع العشائر :

يقول بركارت إن الإمام سعود لو أنفق من ماله مثل ما أنفقه محمد علي ، في شراء العشائر .. ومعدات الحرب والذخائر ، لما استطاع خصومه أن يستولوا على الحرمين بسهولة ويسر ، ولما استطاعوا ، بعد ذلك ، أن يتابعوا زحفهم الى قلب نجد .

ولم تخف ناحية « الحرص على المال » ، عند سعود ، على المؤرخ النجدي ابن بشر ، فقال بأسلوبه الناعم :

« وأما عطاؤه للرعية وبثّ الصدقة فيهم فليس لي بها معرفة إلا قليل ، وكان يرسل في كلا زمان الى كل ناحيـة وبلد صدقةً ألف ريال وأقل وأكثر ... وهو في زمن عبد العزيز أكثر من ذلك .. » !

كان سعود أغنى من عبدالعزيز ، وكان يجب أن يكون عطاؤه على قدر ثرائه ، ولكنه كان أقل .

وهكذا .. رأينا زعيم عشيرة بدوية ، من الحجاز ، لم يكرمه سعود ، وأغدق عليه محمد علي الأموال والهدايا ، يترك صف سعود ويتبع أعداءه ، ولم يخجل من أن يقول للناس بكل سذاجة :

« لقد تركت دين المسلمين .. وتبعت دين الخوارج المشركين » !

.. والمال يفعل ذلك في المؤلفة قلوبهم ، وفي غيرهم أيضاً ..

المرونة مع الترك :

لم يستطع شريف مكة ، ولا وجهاؤها ، أن يثيروا الترك ويحملوهم على محاربة الإمام عبدالعزيز ، لأنه لم يتحد الأتراك تحدياً صارخاً كما فعل ابنه سعود .. فقد كان عبد العزيز أكثر (مرونة) من ابنه في سياسته الخارجية ، ومع أن

سعود أقدم في حياة أبيه على أعمال جريئة ،فيها كثير من التحدي للترك، ولكن أباه استطاع أن يخرج منها بسلام ، فلما تولى سعود الإمامة وتلاحقت انتصاراته ، دفعه ذلك الى مزيد من التحدي للترك ، ويقال إنه ندم أخيراً على هذه السياسة وأراد إصلاحها ، ولكن القدر لم يمهله .

يقول حافظ وهبه : (إني أعتقد لو أن سعوداً اقتصر في الدعوة على جزيرة العرب وترك الحج حراً للأتراك والمصريين ، ولم يمس الناحية الحساسة في الترك – وهي السيادة على الحجاز – ما اهتم الأتراك بأمره ، فقـــد مكثت جزيرة العرب مدة طويلة ونار الفتنة تأكل الأخضر واليابس .. وكانوا يحتملون هـذا ويعدونه من الأعمـــال الطبيعية ... وأي فرق في نظر الأتراك بين آل سعود والأشراف ؟ الفريقان من العرب ، وأفضلهم من يحتفظ لهم بالسيادة ، ولو اسمياً ، مع نشر الأمن والمحافظة على سلامة الحج .

.. ولقد سمعت من بعض شيوخ نجد ، وسمعت هذه الرواية أيضاً من جلالة الملك عبد العزيز ، انتقاداً لسياسة سعود :

إنه في الوقت الذي غاضب فيه الأتراك ورد حجاجهم ، وكان فيه إحدى بنات أو شقيقات السلطان التركي ، كان يتهادى مع شاه ايران ويتقرب منه .

كما انتقده أيضاً في قبول نصائح الشريف غـــالب التي لم تكن تنطوي على الإخلاص ، بل كانت تنطوي على استثارة الناس ضد الحكم السعودي .

وإن الشيخ عبد الرحمن بن حسن قـد نصح سعوداً بعدم الإصغاء لنصائح الشريف غالب ، كما نصحه أيضاً بالإعتدال في معاملة الأتراك والمصريين ، غير أن سعوداً ،كما قدمنا،كان شديداً، كما أنه كان شديد التعصب لرأيه) . – انتهى .

والحق إن الإمام سعود ربما كان مخطئاً في شدته مع الترك ، ولكن هـذا لا يعني أنه لم يكن يقبل النصيحة من أحد ، وإنما هو رأي رآه فتمسك به ، والمرة الواحدة ليست قاعدة .

يقول أمين الريحاني : إن سعود ، لما دخل مكة ظافراً ، كتب إلى السلطان سليم كتاباً هذا معناه :

أما بعد ، فقد دخلت مكة في الرابع من محرم سنة ١٢١٨ وأمنت أهلها على أرواحهم وأموالهم ، بعد أن هدمت ما هناك من أشباه الوثنية ، وألغيت الضرائب إلا ما كان منها حقاً ، وثبّتُ القاضي الذي وليته أنت طبقاً للشرع ، فعليك أن تمنع والي دمشق ووالي القاهرة من المجيء بالمحمل والطبول والزمور إلى هـذا البلد المقدس ، فإن ذلك ليس من الدين في شيء ، وعليك رحمة الله وبركاته) .

كانت لهجة الكتاب جافة.. ولم يتعوّد سلاطين آل عثمان أن يخاطبهم الناس بأسمائهم مجردة من ألقاب التعظيم والتفخيم.. وكانوا يكرهون « الديموقراطية » الحقيقية المرادفة للمساواة وعدم الاستعلاء على الناس بالمناصب والألقاب ..ومع ذلك لم يستطع السلطان سليم أن يفعل شيئاً ضد سعود الكبير ، فلما جاء السلطان محمود الثاني ، وكان من أدهى السلاطين وأمكرهم ، استعمل مكره ودهاءه في دفع محمد علي إلى قتال السعوديين وأمده بالسلاح والرجال والمال .

وبعد .. تحدثنا في هذا الكتاب عن الحروب والأحداث التي وقعت في عهد سعود ، ولم نرجع في ذلك إلى أقوال ابن بشر وحدها ، وإنما إلى الوثائق المطوية والمنشورة ، وإلى مؤلفات ومجلات وبحوث كثيرة ، ونرجو أن نكون وفقنا في ذلك شيئاً من التوفيق ، ونسأل الله سبحانه أن تكون الطبعات الجديدة من كتابنا أقل نقصاً ... وأن ينتفع منْ يؤلف بعدنا بما كتبناه، ويزيد علينا كثيراً ويقدم للناس أفضل مما قدّمناه !.

ونحب أن ننبه ــ منذ الآن ــ الى أننا ظفرنا بوثائق مطوية تلقي أضواء كاشفة على بعض الأحداث التي بقيت غامضة حتى اليوم..ومن الأحداث التي عنينا بها: حادثان أغفلها مؤرخ نجد تماماً ، مع شدة عناية المؤرخين الغربيين بهما وهما :

١ ــ ظهور بطلة سعودية في « تربة » اسمها « غالية » ، شبهها الافرنسيون

ببطلتهم القومية « جان دارك » التي جعلتها الكنيسة « قديسة » أيضاً ، وأما الترك فقالوا عن غالية إنها ساحرة تستخدم في معاركها جنوداً من الجن !..[1]

٢ – إتصال الامبراطور نابوليون بالإمام سعود ، بتوسط مغامر كبير تنكر بملابس عربية وتسمى باسم « الشيخ ابراهيم » وجاء مع الشيخ دريعي الشعلان الى الدرعية ، وكان بينه وبين الامام سعود لقاء وحديث[2] .

قد يكون في هذين الحدثين شيء من التصوير الخيالي ، ولكنهما « واقعان » لا سبيل الى نكرانهما ، ولا يجوز أن يخلو منهما تاريخ عربي كامل .

وقد قدمنا بين يدي وقائع سعود وحروبه ، توطئة أتينا فيها على مبايعته ، ووصفه ، وسياسته الخارجية مع الافرنسيين والانكليز .

وقد أفردنا ، في آخر الكتاب ، خاتمة تحدثنا فيها عن أسلوب الإمام سعود في الحكم ، وعن موارده المالية ، وجيشه ، وأمرائه ، وقضاته ، وغير ذلك ، ثم تحدثنا عن السلطان العثماني محمود الثاني وعن والي مصر محمد علي اللذين قاما بحرب الإمام سعود .

---

(١) انظر ما كتبناه عن معارك تربة في حروب طوسون ، الصفحات ١٤١ وما يليها ..
(٢) انظر ما كتبناه عن هذا الموضوع في التوطئة .



السلطان محمود الثـــاني
الذي أمر واليه على مصر محمد علي باشا
بمحاربة الإمام سعود





رسم تذكاري « للنظام الجديد » الذي اتبعه السلطان محمود
في تدريب الجيش التركي وتنظيمه

مبايعة سعود بالولاية

في أواخر رجب من العام الهجري ١٢١٨ مات الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود شهيداً ، بطعنة قاتل أثيم ؛ وكان ابنه البكر ، الأمير سعود ، عند وقوع الحادث الفاجع ، في بستان له في (المشيرفة) ، ولما اجتمعت الجماهير عنده خطب فيهم واعظاً ومعزّياً، فأقبلوا عليه يبايعونه بالإمامة ويعزّونه بأبيه، ولم يتخلف أحد من أهل الدرعية والوافدين اليها من المدن والقرى عن هذه البيعة المشهودة. وأمـا البلدان الاخرى ، البعيدة والقريبة ، فقد كتب سعود إلى رؤسائها كتب الموعظة والتعزية وأمرهم بالمبـايعة ، فكان أهل كل بلد وناحية « يبايعون أميرهم لسعود ، فبايـع جميـع أهل النواحي والبلدان ، وجميـع رؤساء قبـائل العربان ، ولم يختلف منهم اثنان ولا انتطح عنزان » [١] .

الاجماع وولاية العهد :

لم يكن الإجماع على مبايعة سعود بالإمامة عند وفاة أبيه أمراً مستغرباً، فقد

---

(١) ابن بشر .

كان سعود أقوى رجل في آل مقرن وأعظمهم هيبة وأوسعهم شهرة وأعلمهم وأبلغهم ، وكان - في الشطر الأخير من حيـاة أبيه - يقود الجيوش ويحارب ويصالح ويوزّع الغنائم ويمسك بكثير من مقاليد الامور .

وإلى ذلك : أن سعود كان قد بويع بولاية العهد في العام ١٢٠٢ هـ .

قال ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢٠٢ هـ . : (وفيها أمر الشيخ محمد ، رحمه الله تعالى ، أهل بلدان نجد وغيرهم أن يبايعوا سعود بن عبد العزيز وأن يكون ولي العهد بعد أبيه ، وذلك بأمر عبد العزيز رحمه الله تعالى ، فبايعه جميعهم .) .

لماذا اختار الشيخ محمد بن عبد الوهاب طريقة ولاية العهد ، ولم يترك للناس حرية انتخاب إمامهم الجديد بعد وفاة عبد العزيز ؟

ولماذا وقع اختياره على سعود دون غيره ؟

الجواب على السؤال الأول : هو أن البلاد التي دخلت تحت طاعة عبد العزيز تكاثرت أقطارها وعشائرها ، ومدنها وقراها ، وزاد عـدد سكانها ، وتباعدت أطرافها ، ولم تعـد ، كما كانت من قبل ، رقعةً صغيرة يسهل حكمها وضبطها ، فخاف مؤسس الدعوة الإصلاحية التي وحّدت هـذه البلاد الواسعة تحت راية التوحيد وجمعت سكانها على اختلاف أوطانهم تحت زعامة واحدة ، أن يمزّق الأمة بعد وفاة عبد العزيز التنافسُ بين طلاب الزعامة ، فتعود إلى الفرقة بعد الاجتماع وإلى الفوضى بعد النظام وإلى الضعف بعد القوة ، فقبل الشيخ ، نظراً منه إلى صالح المسلمين ، رأياً رآه عبد العزيز وهو أن يطلب من الجماهير مبايعة « سعود » ولياً للعهد ، فيقع التسليم بزعامته منـذ الآن ، فإذا مات عبد العزيز خلفه سعود بحكم البيعة ، وبذلك تسدّ الذرائع إلى الفتنة وتحفظ للبلاد وحدتها .

أما السؤال الثاني فالجواب عنه : هو أن سعود أكبر أبناء عبد العزيز ، وكان يوم البيعة في الحادية والأربعين ، وقـد عرف أبوه - كما يقول ابن غنام - حاله (وسبَرَه ، وتحقق سيرته وخبَرَه ، فترجح عنده بيقين العلم والفهم .. ما شرُفَ به من الدهاء والحزم ، وما خُوّل من السياسة والعزم ، وما لاح في جبينه من بارق السيادة ، وما عاناه في رفع منار الهدى ومصادمة أهل الردى ... فرآه

أهلا للسياسة وكفوأ لمنصب الرئاسة ، فحمّل أعباءها كاهله، فهي اليه آيله) [1].

وهنا .. قد يتساءل أحدنا : أليس اختيار سعود للإمامة ، بعد عبدالعزيز ، لوناً من التمهيد لحصر الإمامة في آل سعود ؟

وفي رأينا أن الشيخ محمد كان يعرف ذلك ، وأنه سلم لآل سعود بالزعامة ، على أن يتولاهـــا منهم من يثبت صلاحه ورشاده ، وبذلك وَفـّقَ بين مزية الملكية ، وهي الاستمرار والاستقرار ، وبين مزية الإنتخاب ، وهي ترشيح الرجل الصالح للإمامة ودعوة الشعب إلى مبايعته،ولو أن الشيخ محمد إلى اختيار إمام للأمة من غير أفراد الأسرة الحاكمة ، التي يدين لها الناس بالولاء ، لاختلفت الأمة وتفرقت كلمتها، وربما سَهّلَ على الشيخ القبول بمبايعة سعود ، كما بايع من قبل عبد العزيز ، أن الله سبحانه بارك في ذرية محمد بن سعود ، فظهر فيها زعماء من الطراز الأول ، تميزوا بالمواهب مثلما تميزوا بالنسب وألـَق الملك ..

البيعة الثانية :

يرى أكثر الفقهاء الذين كتبوا في السياسة الشرعية والأحكام السلطانية أن ولي العهد يصبح إماماً بمجرد وفاة سلفه ولا يحتاج إلى بيعة جديدة ، لأن الناس بايعوه من قبل بالإمامة بيعة معلقاً نفاذها على وفاة الإمام القائم. ولكن العادة جرت،في نجد وفيغيرها منالبلاد، على مبايعة ولي العهد بيعة جديدة عند تولّيه الإمامة، وربما فسّر بعضهم هذه البيعة الثانية بأنها توكيد للبيعة السابقة وتجديد للولاء ونوع من الاستفتاء يظهر به الشعب حسن قبوله للإمام الجديد ، فيزداد بذلك قوة ويطمئن إلى ثقة الأمة به والتفافها حوله .

وهذا ما حدث بعد وفاة عبد العزيز ، فقد بايع الناس لسعود بيعة جديدة بالإمامة .

---

(١) انظر تاريخ ابن غنام ، حيث يقول أيضاً ، في أخبار سنة ١٢٠٢ ، أن سبب البيعة لسعود هو اتقاء التفرقة والحسد والطمع ، لذلك دعا الشيخ أهل التوحيد كافة الى الالتزام بمبايعة سعود والقبول به خلفاً لوالده بعد موته ، فأقبلوا على البيعة بالإجماع لم يتخلف أحد منهم (فثبتت له عند ذلك الامارة ، وحققت له بعد والده واستقرت) .

وصف الامام سعود

هيئته : كان سعود وسيماً ، جميلاً ، مهيباً ، وكانت له لحية طويلة ، وشوارب كثيفة ويقول « بركارت » : إن كثيراً من العرب كانوا يدعونه : (أبو شوارب) .

صوته : وكان صيّتاً ، يسمع صوته من بعيد ، ولكنه صوت حلو ، محبب إلى الأسماع ، تميل اليه الأنفس ولا تمله .

ملابسه : وكانت ملابسه مثل ملابس القوم ، ولكنها من أحسن نسيج ، وربما طيّبها بطيب .

علمه وبيانه : تلقى العلم عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وكان ذكياً ، بل عبقرياً ، سريع الحفظ ، سريع الفهم ، فلا عجب إذا عدّوه في مقدمة العلماء في زمانه بالتفسير والحديث والفقه وغير ذلك من علوم العربية ، وكان إلى ذلك خطيباً بارعاً ومحدثاً رائعاً ، أجمع العارفون على فصاحته وبلاغته وحسن بيانه .

ويقول ابن بشر : إنه (إذا كتب نصيحة إلى جميع رعاياه من المسلمين أتى بالعجب العجاب ، وبهرت عقول أولي الألباب ، وكان أول ما يصدر النصيحة بالوصية بتقوى الله تعالى ومعرفة نعمة الإسلام ، ومعرفة التوحيد ، والاجتماع بعد الفرقة ، ثم الحضّ على الجهاد في سبيل الله ، ثم الزجر عن جميع المحظورات من الزنا والغيبة والنميمة وقول الزور والمعاملات الربوية وغير ذلك ، وكل نوع من ذلك يأتي عليه بالأدلة من الكتاب والسنة وكلام العلماء ، فمن وقف على شيء من مراسلاته ونصائحه عرف بلاغته ووفور علمه .

وإذا تكلم في المحافل بنصيحة أو مذاكرة بَهَرَ عقل من لم يكن قد سمعه ، وخال في نفسه أنه لم يسمع مثل قوله وحسن منطقه) .

وقد وقفنا على مواعظ ورسائل للإمام سعود ، بعضها في ذروة البلاغة ، وبعضها كتب بأسلوب « عامي » ، مما يدل على أنه كان يخاطب الناس « على قدر عقولهم » !

هيبته وتواضعه : ويردف ابن بشر قائلاً : (.. وعليه الهيبة العظيمة ، التي ما سمعنا بها في الملوك السالفة ، بحيث أن ملوك الأقطار لا تتجاسر على مراجعته الكلام ولا ترمقه بأبصارها إجلالاً له وإعظاماً .. وهو ، مع ذلك ، في الغاية من التواضع للمساكين وذوي الحاجة ، وكثير المداعبة والانبساط لخواصه وأصحابه .)

ويروي بركارت قصة طريفة عن سعود تظهر رقة عاطفته ، فقد كان يوماً في الحرم المكي ، مع رهط من العلماء والكبار ، فلمح حفيداً له صغيراً ، فذهب اليه واحتواه بين ذراعيه وأوسعه شماً ولثماً .

سعود الكبير :

ويقول أمين الريحاني : إن الإمام سعود إنما دعي (بالكبير) لأنه خُصَّ بكثير من تلك السجايا (التي تؤهل رجل التاريخ لهذا اللقب ، فكان في عظمته متواضعاً ، وفي حكمته ورعاً وفي عدله حكيماً ، وفي سياسته جامعاً بين المرونة والمضاء ، أضف إلى ذلك ذكاءً لم يكن عادياً ، ولم يقف به عند حد السياسة ، فقد كان مولعاً بالعلم ، محباً للعلماء وللطلاب ، فلم يستنكف من عقد مجالس للمطالعة والتدريس في قصره وتحت اشرافه ، عندما يكون في العاصمة ، بل كان هو يتولى التعليم في بعض الأحيان فيدهش حتى العلماء بما كان يحسنه من علمي التفسير والفقه . وبالرغم من تعدد مشاغله ومشاكل ملكه البعيد الأرجاء كان يزور مجالس التدريس العامة فيطلع على أعمال الطلبة ويجزي منهم الأذكياء المجتهدين .

وقد كان سعود كبيراً في أخلاقه مثله في أعماله ، لا ينكر الفضل على ذويه وإن كانوا من أعاديه ، ولا يقف في إحسانه ومكارمه عند شبهات النفس وأهوائها ، مثال ذلك معاملته للشريف غالب ، على ما كان يبطنه الشريف من الكيد والغلّ فلو كان فاتح مكة غير سعود ، لو كان محمد علي مثلاً ، لما أذن للشريف بالعودة إليها بعد أن فرّ منها هارباً إلى جدة)[1] .

---

(١) أمين الريحاني : تاريخ نجد وملحقاتها .

حبه للمشورة وديموقراطيته :

لم يكن سعود ، كما وصفه بعضهم ، ملكاً مستبداً ، معتداً بنفسه ، مستغنياً برأيه عن آراء الناس ، بل كان حريصاً على مشورة العلماء والعقلاء ، وخصوصاً أبناء الشيخ ، قبل الإقدام على أي أمر ذي خطر . وربما طلب زعماء البادية للمشورة في المسائل التي تتصل بهم ، وبذلك مضى على نهج أبيه وأجداده ، بل هذا هو الأسلوب المألوف عند شيوخ البدو أنفسهم ، وكيف لا يتمسك بالمشورة زعيم مسلم تقي مثل سعود ، وقد أمر الله سبحانه نبيه المصطفى بالمشورة ، فقال في محكم تنزيله : ﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ وقال : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ .

ويقول « بروكلمان » إن سعود (يعتبر مثال الحاكم العربي ، فقد كان يختلط بشيوخ البلد وعلى قدم المساواة المطلقة ، ولكنه كان قادراً دائماً على أن يفرض نفسه عليهم بمزاياه الشخصية وبخاصة الفصاحة ، التي لا تزال الى اليوم محل تقدير عظيم في بلاد العرب) [1] .

وقد يؤخذ على سعود أنه أهمل ، في الفترة الأخيرة من حكمه ، العمل ببعض النصائح التي أسديت اليه ، ولكن هذا القليل « الشاذ » لا يخل بالقاعدة .

شجاعته وخوف الأعداء منه :

كان سعود – كما وصفه ابن بشر – (ثبتاً شجاعاً في الحروب ، محبباً اليه الجهاد ، في صغره وكبره .

.. وأعطي السعادة في مغازيه ولا أعلم أنه هزمت له راية ، بل نصر بالرعب الذي ليس له نهاية ، وكل أيامه مواسم ، ومغازيه غنائم ، وقذف الله الرعب في

---

(١) كتاب « تاريخ الشعوب الاسلامية » ترجمة فارس وبعلبكي .

قلوب أعدائه ، فاذا سمعوا بغزاه ومعداه ، هرب كل منهم وترك أخاه وأباه ، وماله وما حواه) .

وقد وجدنا في كتاب أرسله والي بغداد علي باشا الى السلطان العثماني هـــذه الكلمات التي تظهر شدة خوف الولاة العثمانيين من شجاعة سعود وفتكه ، قال :

(.. إنه كالصقر ، سريع الاختطاف ، طويل اليد ، شديد البأس) .

ويقول أمين الريحاني : (لم تهزم لسعود راية في غزواته كلها وفتوحاته ، ولا حالت دونها أوعار شبه الجزيرة وأهوال بواديها ، فقـد اجتازت جيوشه حتى (الحرّة) ، قال ابن بشر : « سار بالمسلمين يعتسف من الفيافي السهل والصعاب ، ويطوي من أديم الأرض كل موحشة يباب ، ولا يسمع فيها غير أصوات العرج والذباب ، يضلّ فيها القطا ، ويحير الخريت في مهامها ، لا يرى بقفرها أنيس ، ولا يبصر في رحبها أثر العيس . مظمأة يحاكي لون أديمها زرقـــة السماء ، مغبرة الأفق والأرجاء ، يحس الساري بما للجن فيها من الغمغمة والزمزمة . وبعـــد إنضاء الأعوجيات ، وإرقال المهريات ، وسباسب الفلاة ، تبين له سواد الحرة».

أما في غزواته وفتوحاته فلم يكن ليخرج عن القاعدة : ان الحرب خدعة . وللعرب في ذلك أساليب تقترن فيها السذاجة بالدهاء ، فقد كان سعود اذا أراد أن يغزو الى جهة الشمال يظهر أنه يريد الجنوب أو الغرب ، والعكس بالعكس. وعندما نزل الرقيعة في غزوة الأحساء أمر رجاله أن يوقد كل واحـد منهم ناراً وأن يطلقوا كلهم البنادق عند طلوع الشمس ليرهبوا أهلها ، فلما بزغت الشمس فعلوا ذلك دفعة واحدة فارتجت الارض وأظلمت السماء وأسقط كثير من الحوامل في الاحساء . هذه الطريقة في الحرب ، طريقة الإرهاب والترويع ، مألوفة عند العرب وخصوصاً عند أهل نجد .)

حدّته أحيانا :

ويذكر بركارت ، عن رجال عرفوا الامام سعود معرفة تامة ، أنه كانت فيه «حدة» ، وإن كان سريع الرضا. ويقال إنه كان يخاف على نفسه من الاسترسال في الغضب ، فكان يوصي الامراء والشيوخ المقربين منه أن يحولوا بينه وبين الرجال الذين يثيرون غضبه .. وكان أكثر شيء يكرهه الكذب ، جاء مرة رجل بقصة مكذوبة ،فحاول سعود أن يحمله على قول الحقيقة ، فلم يفعل ، فنهض اليه سعود يشتمه ويلكمه ، فحال الأمراء بينه وبين الرجل ، ولما « فترت » ثورة غضبه وهدأ ، التفت اليهم شاكراً لهم حسن صنيعهم .

هل اتصل نابوليون بالامام سعود ؟

مغامرات « لاسكاريس » في البلاد العربية ، وعقده حلفاً بين العشائر العربية لمقاومة الترك والتمهيد لمرور الجيوش الافرنسية الى الهند . اللقاء بين مندوب نابوليون وبين الإمام سعود في الدرعية .

تشير المصادر الافرنسية إلى محاولة قام بها نابوليون بونابرت ، امبراطور فرنسا ، للاتصال بالإمام سعود والاتفاق معه على محاربة الانكليز في الهند وإخراجهم منها . ولا نجد في كتب التاريخ السعودية أية إشارة إلى هذه المحاولة، ولا يعني ذلك أنها لم تقع .. فهذه التواريخ تغفل صلات الحكام السعوديين بالدول الغربية إغفالاً تاماً !.

إن اتصال الانكليز بالحكام السعوديين كان يفرضه وجودهم في الخليج العربي (الفارسي) وفي الهند ، فلم يكن لهم بد من التعاون — أو «الاصطدام» أحياناً — مع الرعايا النجديين ، بسبب البريد والنخاسة والتجارة وحوادث البحر من قرصنة وغيرها ... ومن هنا نجد في بعض التواريخ الحديثة ذكراً « للقاءات » و « اتفاقات » تمّت بين السعوديين وبين الانكليز ، أصحاب الكلمة والقوة في الهند وفي بعض إمارات الخليج ..

أما اتصالات الافرنسيين بالدولة السعودية الاولى فما تزال مجهولة مغفلة ،

ولكن « اتصالاً » واحداً منهـا تذكره كتب التاريخ الافرنسي ويحيطه بعض المؤلفين بهالة من الصور الشعرية بل يجعلونه نوعاً من المغامرات الاسطورية الخارقة ، هو .. اتصال نابوليون بسعود !

يقول المؤرخ الافرنسي (سيديو) في كتابه : (تاريخ العرب العام) : « إن الوثائق الديبلوماسية أظهرت للنـــاس الاتصالات التي قامت بين الانـكليز وبين الإمام سعود ، ولكن الأمر الذي لا تعرفه إلا قلة من الناس هو أن نابوليون بونابرت ، امبراطور الافرنسيين ، اتصل ، هو أيضاً ، بالإمام سعود ، وقد أشار الامبراطور إلى ذلك في مذكراته . »

والواقع إن نابوليون كان راغباً في إضعاف انكلترا وإذلالها والسيطرة عليها ، فرأى أن أفضل طريقة لتحقيق هــذه الأمنية العزيزة هي أن يحرمها من أعظم مصادر ثروتها وقوتها : الهنـــد .. التي وجد فيها الانـكليز كنوزاً من الثروة لا تنضب وتحقيقاً لحلم أغنى من أحلام .. ألف ليلة وليلة !

قال نابوليون في نفسه : إذا غزوت الهنـــد ، وأخرجت منها انـكلترا ، أصبحت انـكلترا فقيرة ، ضعيفة ، متهافتة .. اومىء اليهـا بعصاي فتقع على الأرض وتنطرح بين يدي صاغرة ذليلة !

وربمـا كانت المرحلة الاولى ، في طريق نابوليون إلى تحقيق حلمه الكبير : غزوه مصر واستيلاءه عليها .

قيل لنابوليون ، وهو ينظر إلى الأهرام في مصر : هل تعرف عمر كل هرم ؟ إن الامبراطوريات الكبيرة لا تنشأ إلا في الشرق ، ولا تعيش أزمـــاناً طويلة وأعماراً مديدة إلا في الشرق ، فابن مملكتك هنـا .. ولا تفكر في دولة تقيمها في فرنسا ، لأن أعمار الدول في أوروبا قصيرة !

ولكن نابوليون كان يتجه بعقله وبقلبه إلى أرض فرنسا وحدهـا ولا يفكر إلا في مجد يقيمه هنـاك .. فإذا حارب في الشرق فهو يحارب من أجل فرنسا لا من أجل الشرق ..

يقول لامارتين ، الشاعر الافرنسي الكبير ، في كتابه المشهور : (رحلة إلى الشرق) :

(من الواضح أن نابوليون كان رجل الشرق ، لا رجل الغرب .

كان يستطيع أن يصنع في الشرق حضارة عظيمة ، تدوم ألف سنة بعده ..

ولكنه أخطأ .. واختار الغرب !

ومع هـــذا ، أرسل إلى الشرق رجلا ، ليكشف له عما يستطيع أن يفعله هناك ، وليرتاد له الأماكن التي يجب على جيشه أن يجتازها ليصل إلى امبراطورية الهند .) !

هذا الرجل .. إيطالي ، من أشراف (بيمونته) ، يدعى لاسكاريس ، وهو عسكري شجاع ، عرفه نابوليون في جزيرة (مالطة) وأحبه ، وأحبّ هو نابوليون وأعجب به إعجاباً شديداً وتعلّق به تعلقاً مذهلا ، فنذر نفسه لخدمته بكل قوته ، ووهب له حياته يتصرف بها كيف يشاء .

استدعى نابوليون لاسكاريس اليه وقال له :

أريد غزو الهند .. ولا يتم لي ذلك إلا إذا استطاعت جيوشي أن تعبر اليها من خلال البلاد العربية وفارس ، وأحب أن أرسلك إلى سورية والعراق وفارس لتتصل بعشائرها وزعمائها ، وتثيرهم ضد السلطات التركية ، ومتى اشتعلت البلاد بالفتن واشتغلت الحكومات بإطفاء الحرائق .. أتيحت لجيوشنا فرصة ذهبيــة للمرور من خلال تلك البلاد بأمن وطمأنينة ، وقد تساعدها العشائر التي نشتريها أو نحالفها !..

قبل لاسكاريس المهمة الهائلة التي اختاره لها نابوليون ، وكان يعرف أن معناها الجوع والحرمان والأذى والمشقات والأسر والسجن والتعذيب والموت ، ويقص علينــا الشاعر الإفرنسي الكبير قصة لاسكاريس ، بأسلوب يجمع بين « الواقعية » والخيال .. وخلاصتها أن لاسكاريس – واسمه الكامل « لاسكاريس دوفانتيميل » – سافر إلى سورية وتسمى هناك باسم مستعار ، هو : « الشيخ ابراهيم » ، وارتدى ثوباً عربياً ، وأطلق لحيته ، وتعلم اللغة العربية من تاجر

حلبي مسيحي اسمه « فتح الله الصغير » وكان يقضي أكثر وقته في مقاهي دمشق وأسواقها ، ويتنقل بين دمشق وحمص وحماه وتدمر ، ويتظاهر بالغباء ، لغرض في نفسه ..

ولما قويت أواصر الصداقة بينه وبين فتح الله الصغير كشف له عن حقيقته وأوضح له أغراضه ومهماته ، فهو مكلف من نابوليون ، أمبراطور فرنسا العظيم ، أن يتصل بالعشائر المقيمة في البلاد العربية ويثيرها على الأتراك ، وأن يرسم الطريق التي يجب على جيوش نابوليون أن تسير فيها، خلال البلاد العربية لتصل إلى الهند ، ويجب أن تتو فر لهذه الطرق : المياه والمراعي القريبة وأكبر قدر ممكن من الأمن ، مع المعونة – أو التغاضي – من السكان والعشائر أثناء مرور الجيش ..

.. قبل فتح الله مشاركة لاسكاريس في عمله وخدمة أغراضه بكل إخلاص وجرأة ، وذهب فتح الله – الذي سمّى نفسه عبـد الله – إلى الشيخ (دريعي الشعلان) ، شيخ عشائر عنزة العراقية ، وعمل كاتباً له ، حتى وثق به ، فحدثه عن صديقه الشيخ ابراهيم – لاسكاريس – ومـا زال يصفه له ويثني عليه حتى حبّبه به وشوّقه إلى رؤيته ، فأرسل دريعي إلى لاسكاريس يطلب منه المجيء اليه والحلول ضيفاً عليـه ، فلبّى لاسكاريس الدعوة ونزل في ضيافة دريعي وأهداه وأظهر له ضروباً من البراعة في الطب وفي السحر والتنجيم حتى أعجب به دريعي فأحبه وأصبحا صديقين حميمين..ووجد لاسكاريس في دريعي ضالته المنشودة.. فقرر أن يعقد حلفاً بين العشائر ويجعله رئيساً لهذا الحلف.. وقد بدأ عمله بعقد محالفة بين دريعي وبين رئيس شمر (فارس الجربا) ..

ثم عقد بين عدد كبير من العشائر ميثاقاً ، لخص لنا المؤرخ سيديو مضامينه كما يأتي :

١ – القبول بزعامة دريعي والطاعة له .

٢ – مقاومة الترك .

٣ – مقاومة الوهابيين .

٤ — مقاومة العشائر التي ترفض الانضمام إلى الحلف .
٥ — قتل الخونة ...

نقل أخبار الحلف الى الانكليز والى الامام :

ويقول سيديو إن الليدي ستانهوب، الحسناء البريطانية المغامرة، التي عاشت مدة من الزمان في تدمر ، ثم انتقلت منها الى جبل لبنان ، وكانت لها صداقات مع العشائر وزعماء لبنان ، سمعت بأخبار هـذا الحلف ، فسارعت في نقلها الى الحكومة الانـكليزية، وقامت الحكومة الانـكليزية فوراً بإبلاغ ذلك الى حلفائها الترك ، ثم أرسلت مندوباً عنها الى الامام سعود ، يبيّن له الأخطار التي تنشأ عن هـذا الحلف وتتهدد شخصه وملكه ، مثلما تتهدد الانـكليز والترك والهند ، لأن المتحالفين تعاهدوا على معاداة الدرعية !

ماذا كان جواب الإمام سعود ؟

لا يذكر سيديو شيئاً عن ذلك . أما لامارتين فيقول إن الإمام سعود أرسل مئة ألف محارب لقتـال العشائر المتحالفة ، وجرت بينه وبين رجال دريعي وحلفائه ، الذين كان يقدر عددهم بثمانين ألفاً ، معارك رهيبة قرب بلدة (حماه) في سورية ،ولم يستطع السعوديون خلالها تحقيق نصر حاسم على خصومهم فعادوا الى أوطانهم .

هل وقعت هذه المعركة حقاً .. أم هي من نسج الخيال ؟ أكبر الظن أن أعداد المقاتلين أعداد مبالغ فيها كثيراً .. وأما المعركة ، فيترجح عندنا ، بغلبة الظن ، أنها وقعت .

يقول ابن بشر، في أخبار سنة ١٢٢٥ هـ. إن الإمام سعود سار في شهر ربيع الثاني الى الشام (لأنـه بلغه الخبر أن بوادي الشام وعربانه من عنزة وبني صخر وغيرهم فيها) .

وهذا الخبر يبدو غريباً ، وكأنه مبتور .. فهل يكفي أن تتجمع طائفة من

العشائر في الشام ، ليسير اليها سعود ويقاتلها ، كأنه موكل بمحاربة كل تجمع للقبائل ، ولو جرى ذلك في أقصى الارض ؟

من هنا لا نستغرب أن يكون هذا التجمع ، هو تجمع القبائل المتحالفة التي يتزعمها (دريعي) ، وقد ذكر لامارتين أن دريعي كان اجتـــاز الفرات الى الأراضي الشامية .

ومرّت الأيام ..

وأدرك الإمام سعود – بعـد أن قرر الترك محاربته وعهدوا بذلك الى والي مصر ، محمد علي – أنه أخطأ بمحاربته لدريعي ، لأنه عدو لأعدائه الترك وقـد يكون حليفاً له ضدهم ، فأرسل اليه يطلب منه زيارته ، فلبى دريعي الدعوة وجاء معه الشيخان : الشيخ ابراهيم «لاسكاريس» ، والشيخ عبد الله (فتح الله).

ويقول فتح الله، فيما رواه عنه لامارتين،إنه حدث الامام سعود عن نابوليون بونابرت،وإن الامام كان عارفاً بأخباره ووقائعه،ومعجباً بشجاعته وانتصاراته، وكان يسميه : « أبو النار » أو « بونار » وهو اسم اشتهر في البلاد العربية بهـذه الصيغة .. وربمـــا كانت تحريفاً لاسمه .. أو لقباً اختاروه له لكثرة نيرانه وحروبه !

ويزعم فتح الله إن دريعي قـال للإمام إنهم لم يقرروا معاداته إلا خوفاً من اتفاقه مع الانـكليز والترك ضدهم ، ولكنهم الآن تبينوا عداء الترك له ، فهم معه ، إذا أراد .. فقبل الإمام سعود الاتفاق معهم .. والسكوت عن زحف الافرنسيين الى الهند .. ولكن نابوليون أصيب بهزيمة هائلة في سهول روسيا ، ثم تغلبت عليه انكلترا وحليفاتهـــا في واترلو .. وبذلك تحطم حلمه في غزو الهند .. ومات لاسكاريس من القهر !

ويقول بعض المؤلفين الافرنسيين : لو أن نابوليون انتصر على أعدائه ، لاستطاع الامام سعود أن يستولي على استانبول نفسها [١] .

---

(١) انظر كتاب جيفو : (الامبراطورية العربية : الدولة الكبرى الثالثة) .

حديث فتح الله عن الامام سعود :

ويقول فتح الله، فيما رواه عنه لامارتين أيضاً ، إن سعود سأله عن النصرانية ومعتقداتها ، ثم قال له :

أليس بينكم من يزعم إن المسيح هو الله أو ابن الله ؟

فأجابه فتح الله : المسيح هو « كلمة الله » ليس غير .

فقال سعود : ولكن اليهود ، في زعمكم ، عذبوه وصلبوه !

فقال فتح الله : الكلمة لا تُصلب.. ولكن الرجل – أو الصورة التي تقمصها المسيح – هي التي عذبها الأشرار وصلبوها .

فقال سعود : وهل تشركون مع الله أحداً ؟

فقال فتح الله : نحن نؤمن بوحدانية الله !

فسرّ سعود بذلك ، وقال : إن بين من يدّعون الاسلام من يشرك بالله ، كأكثر الروم .. – أي الترك – .

ويقول فتح الله عن سعود إنه واسع الثقافة والمعرفة ، وبليغ جداً ، ولكنه متشدد في ديانته كثيراً .

وكان يأكل من طعام صنعته له نساؤه ، خوفاً من أن يدسّ فيه السم .

.. وكان يأكل بأصابعه ، فلما التفت الى فتح الله ورآه قد أخرج من جيبه ملعقة وسكينة وصار يأكل بها ، ابتسم وقال :

الحمد لله . كل قوم راضون بعاداتهم ، وقد يظنون أنها هي الافضل !

وكان يقوم على حراسة سعود كثير من العبيد !

سياسة سعود تجاه الانكليز

كانت سياسة سعود ، في الخليج العربي ، معـادية للانـكليز ، لأن الانـكليز كانوا حلفاء لسلطان مسقط – إن لم نقل مسيطرين عليه – وكان سعود يريد إخضاع مسقط لحكمه ؛ وكان الانـكليز يكافحون القواسم ، لِما يقومون به من أعمال ضد سفنهم يسمونها (القرصنة) وكان سعود يساعد القواسم، وكان صاحب (رأس الخيمة) أحد أمرائه المخلصين !

ويقول (دليل الخليج الفارسي) إن السلطات البريطانية كانت حريصة على عدم مجاهرة الإمام سعود بالعداء ..

ففي عام ١٨٠٥ – ١٨٠٦ ، أوصت حكومة بومباي الكابتين ستون قبيل غزوه للقواسم أن يتجنب جهده إغضاب السعوديين ..

وفي عام ١٨٠٩ هـ . حين قام الانـكليز بحملة على رأس الخيمة اجتهدوا كثيراً في عـدم « الاصطدام » برجال سعود وممثليه ، ولكنهم اضطروا مكرهين إلى قتال طائفة منهم خلال المعـارك الرهيبة التي جرت هناك ، وقيل ان ابن عم للأمير سعود قُتل خلال إحدى تلك المعارك ، ولكن (رحمه بن جابر) لم يقتل وتركه الانـكليز يهرب وينجو ، لأنهم عرفوا صلته بالدرعية .

وفي نهاية هذه الحملة أرسل القائد البريطاني كتاباً إلى الإمام سعود يرجوه فيه أن يمنع رجاله من الاشتراك في أعمال القرصنة ، فأجابه الإمام انه لا يريد محاربة المسيحيين ولا « التحرش » بالسفن التي ترفع العلم البريطاني .

وفي عـام ١٨١١ – ١٨١٢ ذهب صاحب مسقط إلى شيراز يطلب النجدة من الفرس .. فأرسل الإمام سعود مندوباً عنه يدعى (ابراهيم بن عبد الكريم) إلى حاكم فارس ، فأحسن الحاكم وفادته ، وبعد أن أتمَّ ابراهيم مهمته في شيراز ذهب إلى مقابلة المقيم البريطاني في (أبو شهر) ، وأبلغه باسم الإمام سعود ، أنه يريد إقامة صلات حسنة بين بريطانيا وحكومة نجد، وأنه يرغب في أن تكون موانىء كل من الحكومتين مفتوحة لسفن رعايا الحكومة الاخرى ..

وقد رفعت هذه العروض إلى حكومة الهنـــد ، فقررت أن تعامل الإمام سعود بمودّة وتتصرف تصرفاً يكسبها صداقته ، ولكنها لم ترَ ضرورة لعقـــد معاهدة معه .

وهكذا بدأت الصلات الحسنة بين الانكليز وبين الإمـام سعود بالاحترام المتبادل والنية الحسنة ، لا بالنصوص والعهود المكتوبة ..

سياسة سعود مع الفرس
في عهد فتح علي شاه

كان يحكم بلاد فارس في زمن الإمام عبد العزيز بن محمد : آغا محمــد ، ثم فتح علي شاه .

وهذا الأخير – فتح علي شاه – هو الذي كان يتولى السلطة في بلاده خلال ولاية سعود الكبير ، وهو قاجاري الأصل ، من العشائر البدوية التركية ، ويقول عنه (بروكلمان) إنه كان ينظر (إلى فارس نظرته إلى بلاد معادية مفتوحة ، فليس من واجبه أن يحكمها ، بل أن يستغلها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

وكان أولاده حكاماً على الولايات ، وكانوا يترسمون في ذلك خطاه .)

وقــد اشتغل فتح علي شاه بمحاربة روس ، الذين هزموه غير مرة ، فاضطر آخر الأمر إلى مصالحتهم والتخلي عن مطامعه في استرجاع الأراضي التي استولوا عليها من ملكه .

وكان نابوليون بونابرت قد عقد معه حلفاً ضد روسيا ، ثم اتفق معــه على محاربة الانكليز في الهند ، ولكن هزائم نابوليون جعلت الشاه ينصرف عنه إلى مصادقة الانكليز ..

ويشير « دليل الخليج الفارسي » إلى اتصال سعود بالفرس إشارة غامضة .. وقد نستطيع جلاء هذا الغموض بقولنا إن الإمام سعود أحب أن يسلك سياسة ودية مع فتح علي شاه ، حتى لا يساعد سلطان مسقط وغيره من شيوخ الخليج ضد الحكم السعودي ، وربما أراد أيضاً أن ينسي الفرس حادث « كربلاء » الذي أثارهم كثيراً ، ولذلك ذكر بعض المؤرخين أن سعود أعاد إلى شاه الفرس أحسن ما أخذه من ضريح الحسين وأهداه هدايا جزيلة ..

الحروب والغزوات

في عهد سعود بن عبد العزيز

معـــارك العراق[1]

غزو البصرة والزبير :

كان أول عمل حربي قام به سعود بن عبد العزيز ، بعـــد مبايعته بالإمامة : غزو العراق .

ويقول بعض المؤرخين انه إنما فعل ذلك ثأراً لأبيه ، فقد كان قاتله عراقياً ، وكان المحرّض على القتل والي العراق !

وأكبر الظن أن غزو العراق كان متعدد الأغراض :

١ — ولعل أعظم تلك الأغراض إظهار القوة: لإرهاب ولاة العراق وصرفهم عن التفكير في استرداد الأحساء أو الاستيلاء على بعض المناطق التي انضوت تحت راية التوحيد ، وحملهم على النظر لأنفسهم والاكتفاء بسلامة بلادهم !

٢ — وهناك الرغبة في التوسع وبسط السلطان ..

٣ — وقد تكون هناك أيضاً الحاجة الملحّة الى المال والغذاء ، وهي أشد ما تكون ظهوراً في سنوات القحط والغلاء .

---

(١) يلاحظ أنه لم تقع معارك حربية خطيرة بين البلاد السعودية والعراق في عهد الإمام سعود ، وإنما كان ذلك في عهد أبيه وبقيادة سعود أيضاً ..
أما غارات سعود في العراق ، بعد توليه الإمامة ، فكانت محدودة جداً ..

٤ – أما الثأر لمقتل الإمام عبد العزيز بن محمد ، فقد يكون أضعف الحوافز الى الغزو ، والله أعلم .

غزو أطراف البصرة والزبير :

في آخر عام ١٢١٨ هـ . غزا سعود أطراف البصرة ، وقتل رجاله عدداً من أهلها وأخذوا كثيراً من أموالها ، ولكنهم عجزوا عن الاستيلاء على المدينة ، فانصرفوا عنها الى « الزبير » ، وحاصروها بضعة أيام فلم يستطيعوا اقتحامها ، فحصدوا زروع القرى المحيطة بها ، وهدموا ما فيها من قباب ومشاهد .

ويقول ابن بشر انهم هدموا قصر « الدريهمية » ، مشرب أهل الزبير أيضاً ، بينما يقرر مؤرخون كثيرون أن هـــذا البرج تهدم قضاءً وقدراً بانفجار ذخيرة كانت فيه !

رواية كورانسيز :

ويقول المؤرخ الفرنسي كورانسيز : إن أول شيء عمله سعود ، بعـد مصرع أبيه ، هو الثأر له ، وكان يتهم علي باشا والي بغداد بأن له ضلعاً في الحادث وأنه المحرض على القتل ، لذلك سار إلى بغداد ، واكتسح في طريقه بعض الضواحي.

وفي تلك الأيام وصل بغداد ، قادماً من الدرعية ، الشيخ فارس الجربا، وكان اعتنق الدعوة السلفية « الوهابية » ، وهو من زعماء العشائر الشمرية المقيمة قرب (الحلة) ، فاستدعاه علي باشا وأمره بمحاربة « الوهابيين » ، ليثبت للناس أن الوهابيين يتقاتلون فيما بينهم ، ولكنه لم يكن مطمئناً تماماً اليه ، فلحق به على رأس قوة كبيرة ، ولما رأى المقاتلون النجديون ، الزاحفون صوب بغداد ، كثرة أعدائهم ، انسحبوا دون قتال ، وأدرك (سعود) أن احتلال بغداد مطلب عسير ، وراء قدرته ، فقرر الهجوم على بلدان عراقية أخرى أقرب اليه وأسهل تناولاً عليه ، وهكذا زحف إلى البصرة بجيشه المؤلف من اثني عشر ألف مقاتل فقاومته البصرة مقاومة شديدة ، فتركها وسار بجنوده ليلاً إلى الزبير ، ليدخلها فجأة وعلى حين غفلة من أهلها – على عـــادته في حروبه – ولكن راعياً رأى

طلائع الوهابيين عند الفجر فأخبر أهل البلدة فتحصنوا وراء اسوار الطين الغليظ فحاصرهم الوهابيون أسبوعاً ولم يستطيعوا تحقيق أي تقدم ..

ثم خدم الحظ الوهابيين آخر الأمر بانفجار وقع في قصر الزبير — الدريهمية — ومع ذلك لم يسهل عليهم أمر الدخول إلى البلدة «فتركوها، وعادوا مرة أخرى إلى غزو البصرة ، فلما امتنعت عليهم ، انسحبوا إلى بلادهم » .

رواية الدليل :

ويقول (دليل الخليج الفارسي) إن الجيش الوهابي جاء إلى ضواحي الزبير عام ١٨٠٤ م.وأسر شيخ عشيرة المنتفق لحمل ابنه، حاكم الزبير، على الإستسلام، فلم يؤثر ذلك في المقاومة الباسلة التي قام بها رجال الزبير لصدّ المهاجمين عن بلدتهم ..

ويبدو أن انفجاراً حدث في برج مقام على نبع ماء يستقي منه أهل الزبير أدّى إلى تدمير البرج ومقتل حاميته .

رواية لمع الشهاب :

يزعم مؤلف « اللمع » إن أهل الكويت ، لما سمعوا بعزم سعود على غزو البصرة ، أرسلوا الى متسلم البصرة وأعيانها يحذرونهم من غزو سعود لهم فجأة : « فما وصلت الخشب — أي المراكب — التي أرسلها أهل الكويت ، الا وقد نزل سعود حول الزبير ، وتبين الحال لأهل البصرة » .

ويردف المؤلف بعد ذلك أن سعود شرب من ماء الدريهمية بعد تغلبه على حماتها وسار الى الزبير فلم ينَلْ منها شيئاً ثم تركها وسار الى البصرة ، فلم يأتِ البصرة نفسها وإنما جاء القرى الجنوبية، وكان لجميع قرى البصرة سور مستطيل من طرف آخر النخيل من جهة القبلة .. حتى يقع على البحر .. وهذا السور أحدثه عبد الله آغا لما كان متسلماً البصرة .. وبنى فيه بروجاً .. وحفر خلفه خندقاً .. وذلك لأنه لما قوي أمر سعود في البر ، خاف عبد الله أن يغزو قوم سعود أطراف البصرة .. ففعل ذلك ، وأمر أهل كل بلد أن يحرسوا هذا السور

من قبلهم على دوام الأيام .. وقد أقـام سعود (يدمـّر السور المذكور بالبندق ، ويحمل على بعض المواضع ولا يدرك شيئاً ، ولم يخرج لحربه أحـد من البصرة ، وعربها – أعني المنتفق – لم يحضروا تلك الأيام فيها ، لأنـه أول أيام الصيف ، وشيخهم حمود لم يحب مقاتلة سعود ، وإلا كان يمكنه ذلك ، لكنه أراد أن يهين أهل البصرة حتى يعرفوا له قدراً) .. وقد همّ سعود بالتراجع عن السور ، لولا أن رجلاً أتاه ودلـّه على ثلم في السور ، فأمر سعود عسكره بالدخول من هناك ، فدخلوا وانتشروا في قرى البصرة .

رواية ابن بشر :

وهذه رواية ابن بشر للغزوة :

(في هـــذه السنة – ١٢١٨ – كانت غزوة البصرة وهدم قصر الدريهمية مشرب أهل الزبير وقتل من كان فيه .. وذلك ان سعود لما سار من الدرعية واستلحق جميع رعاياه من البـادي والحاضر ، نهض بجيوشه المنصورة والخيل العتاق المشهورة وقصد ناحية الشمال حتى نزل القرية المعروفة « بالتنومة » عنـد القصيم ، فعيّد فيها عيد النحر ونحر ضحاياه بها ، ثم أرخص لغزوان عربان الشمال من الظفير ، وذكر لهم أنه يريد الرجوع والقفول الى وطنه وكان قصده بذلك أن يخبروا أهل البصرة والزبير ومَن في جهتهم إذا رجعوا اليهم أنه قفل حتى يبغتهم من حيث لا يعلمون . وكان من عـادته إذا أراد غزو الشمال قصد جهـة الجنوب او الشرق او الغرب ثم رجع لما يريد وبالعكس ، وإذا كان يريد جهة من تلك الجهات ورّى بغيرها ..

فلما رحل عنه غزوان بوادي الشمال من التنومة ، رحل منها وقصد الدرعية نحو يوم او يومين، فوصل اولئك البوادي وأخبروا من في جهتهم بقفوله، ثم ان سعوداً رجع عادياً الى البصرة، فلما أتى قربها وافق كتيبة خيل للمنتفق رئيسهم منصور بن ثامر ، فأغارت عليهم خيل المسلمين وقتلوا منهم قتلى وأُخذ منصور أسيراً ، فأراد سعود أن يضرب عنقه ، ثم منّ عليه وعفا عنه ، فأقام عنده في الدرعية نحو أربع سنين ثم أذن له بالرجوع الى أهله .

ثم نزل سعود على الجامع المعروف قرب الزبير ، فنهضت جموع المسلمين الى البصرة ، فدهموا جنوبها ، وقتلوا من أهلها قتلى كثيرة واحتصروا أهلهـــا في وسط الحلة .

ثم رجعت تلك الجموع وحاصروا أهل الزبير وهدموا جميع القباب والمشاهد التي خارج سور البلد وضعت على القبور ، وقبة الحسن وقبة طلحة ، ولم يبقوا لها أثراً .

.. ثم ان سعود أمر المسلمين أن يحشدوا على قصر الدريهمية ، فهدموه وقتلوا أهله .

فلما كان وقت غروب الشمس أمر سعود مناديه ينــادي أن يثوّر كل رجل من المسلمين بندقة ، فثوّروها دفعة واحدة . قال لي رجل من أهل الزبير : لما ثارت البنادق شبّت النار في الأرض والجو وأظلمت السماء ورجفت الأرض بأهلها وانزعج أهل الزبير انزعاجاً عظيماً وصعد الناس في رؤوس السطوح ووقع فيهم الضجيج وأسقط بعض الحوامل . فأقام محاصرهم نحو اثني عشر يوماً حصد جميع زروعهم وقفل راجعاً الى وطنه .)

سنة ١٢١٩ هـ .

نيـــات .. غزو !

العراقيون ينوون غزو الدرعية .. ولا يفعلون :

وسعود ينوي غزو العراق .. ولا يفعل :

ذكر مؤلف « دوحة الوزراء » ، في وقائع سنة ١٢١٩ هـ . أن علي باشا غادر بغداد في ١٩ شعبان عن طريق الحلة ، ولما بلغ قرية النبي أيوب ، ألّفَ (فرقة من العساكر النظامية وسيّرها الى جبل شمر ، بقيادة ابن اخته أمير لواء إربيل سليمان بك ، فاصطدم هذا بجموع الوهابيين وشردهم واستولى على مغانم كثيرة منهم ، وكرّ راجعاً .. وفي رجوعه أصابته عدة كوارث بسبب العطش وحرارة الهواء ومشقة السفر وأصبحوا بحالة يرثى لها ، وقــد فقد بعض أفراد الحملة بصره ، وبعضهم اختلّ عقله ..) .

لم يشر ابن بشر في تاريخه إلى هذه الحملة الخاسرة ، ولم يبين لنا مؤلف الدوحة أين كان موقعها .. ولكننا وجدنا في « دليل الخليج الفارسي » ، لرومر ، وصفاً موجزاً لها ، يضعها في « اطارها » الصحيح ، فقد كانت في حقيقتها « مسرحية » دون « كيخوتية » تدعو إلى السخر والإحتقار ، قال الدليل :

(أراد والي بغداد علي باشا الخلاص من الوهابيين ، فسار من بغـــداد في ٤ تشرين الثاني ١٨٠٤ م . إلى الحلة ، وكان معه مستشاره العربي « فارس الجربا » فأقام مع جيشه في الحلة مدة طويلة لا يبدي حراكاً .. ثم انفصلت عنه كتيبة مؤلفـة من ٤٠٠ فارس ، وعبرت الصحراء – كطليعة – لتنازل الوهابيين .. ولكنها ، بدلا من أن تفعل ذلك ، ذهبت إلى قضاء « السماوة » في العراق ، وكان فيها عدد من السكان يعتنقون الدعوة الوهابية ، فأكرههم رجال الكتيبة على نبذها .. وهنا انتهت مهمة هذه الكتيبة) !..

ويضيف الدليل أن الإمام سعود ، لما علم بما فعله أنصاره ، من سكان سماوة ، أرسل يتهددهم ، فهربوا إلى بغداد خوفاً من انتقامه !

سعود ينوي غزو العراق .. فيغزو الظفير !

يقول ابن بشر إن سعود أراد غزو العراق عام ١٢١٩ هـ . ، فاجتاز ببوادي الظفير وهم في الدهناء عند لينة ، الماء المعروف ، فأمرهم بالغزو معه ، فلم تطعه سوى شرذمة صغيرة .. فغضب عليهم وقتل منهم عدداً كبيراً ، وأخذ جميع أموالهم من الإبل والغنم والسلاح والخيل والحلل والأمتاع والأزواد ، ورحل إلى بلد الزلفي يقسم الغنائم .. وأخر غزو العراق إلى العام القادم [1] ..

---

(١) يمدح ابن سند عشائر الظفير ، ويقول فيهم : « إنهم أعراب من بادية نجد ، يشملهم هذا الاسم مع أن أصلهم من قبائل متفرقة اجتمعوا . تحالفوا وتسموا بهذا الاسم ، ولكن رؤساءهم وكبراءهم والمسموعة الكلمة فيهم آل سويط وهم من بني سليم وهم من بين سائر العرب مشهورون بالكرم والنجدة والنخوة والشجاعة ، وقيل : إذا كنت من تميم ففاخر بحنظلة وكاثر بسعد وحارب بعمرو ، وإذا كنت من قيس ففاخر بغطفان وكاثر بهوازن وحارب بسليم .

سنة ١٢٢٠ هـ .

غزو النجف والسماوة والبصرة والزبير :

في سنة ١٢٢٠ هـ . — ١٨٠٦ م . غزا سعود :

١ — **النجف**، فلم يقدر على اختراق أسوارها، وانسحب بعد رمي ومناوشة بينه وبين أهلها . ويقول ابن بشر ان سعود فرّق المهاجين على بلد المشهد من كل جهة (وأمرهم أن يتسوّروا الجدار على أهله ، فلما قربوا منه فإذا دونه خندق عريض عميق فلم يقدروا على الوصول اليه ، وجرى بينهم وبينه مناوشة وقتال ورمي من السور والبرج ، فقتل من المسلمين عدة قتلى ، فرجعوا عنه .

ثم رحل سعود فانحاز على الزملات من عربان غزية فأخذ مواشيهم، ثم ورد الهندية المعروفة ، ثم اجتاز بحلل الخزاعل ، وجرى بينهم وبينه مناوشة قتال وطراد خيل .)

٢ — **السماوة** ، وقد حاصرها ، وخرب زروعها ودخل رجاله ضواحيها وأخذوا شيئاً كثيراً من أموالها .

وجاء في دليل الخليج الفارسي أن عبد الله بن سعود — وليس سعود — هو الذي غزا النجف والسماوة ، وكان غزوه للنجف ليلاً وفجأة ، واستطاع مقاتلته دخول البلدة بتسلقهم السلالم وتدلّيهم من فوق الأسوار ، ولكن أهالي النجف اضطرُّوهم الى الخروج من بلدتهم ، وأما أهل السماوة فكان بينهم وبين المهاجمين قتال دون البلدة واضطر المهاجمون الى التقهقر .

٣ — **البصرة والزبير** ، ولكنه عجز عن اقتحامها فعاد الى الدرعية .

ويقول ابن الغملاس ان سعود بن عبد العزيز هجم سنة ١٢٢٠ هـ . بجموع كثيرة على البصرة (وكان المتسلم في البصرة ابراهيم آغا ، فاتفق مع أهالي البصرة وقابلوا الوهابيين ودافعوهم أشد الدفاع ، ثم أمدَّهم شيخ المنتفق حمود بن ثامر بستة آلاف فارس ، فرجع الوهابيون ، بعد أن أحرقوا أكثر القرى) .

ويقول مؤلف دوحة الوزراء ان والي بغداد علي باشا ، لما سمع بقرب قدوم ابن سعود نحو العراق (ونظراً لكثرة تحرشات الوهابيين على أطراف المدن ..

ألّف فرقة من الأهلين وسار الى الحلة .. وهناك أرسل عيونه يتسقطون أخبار الوهابيين ، فلم يجدوا شيئاً ، فعاد الوزير الى بغداد) .

ويقول كورانسيز أن القنصل الانكليزي في بغداد طلب من الوالي السماح له ببناء حصن للبريطانيين في البصرة ، خوفاً من هجوم وهابي مقبل ،فأذن له بذلك ، فاستقدم عمالاً من الهند وبنوا الحصن .

سبب غزو سعود للعراق :

يقول « مانجان » ان سعود أرسل مندوباً الى علي باشا والي بغداد ، يؤكد له حرصه على العيش بسلام معه ، فاستقبل علي باشا المندوب بجفاء وأعاده دون جواب مكتوب ، وقال له انه آتٍ الى الدرعية للحساب والعقاب ..

ولما عاد المندوب الى الدرعية وأبلغ سعود بما حدث له ، جاء سعود الى العراق متحدياً ، وهجم على بلدان وقرى كثيرة وقتل وخرب .. ثم عاد .

وقد كتب اليه والي بغداد رسالة يقول فيها : إنك تحارب ، فتسلب وتهرب ، وهذا شأن العربان وليس شأن الملوك . وسآتيك بنفسي الى الدرعية ، بلد مسيلمة الكذاب !..

فأجابه سعود : تقول إننا نحارب ثم نهرب .. ولكننا بقينا شهراً ننتظرك فلم تأتِ . وتقول إنني عربي ، فاعلم أن العربي الحر خير من مملوك مثلك ، اشتراه سليمان باشا بثلاثمائة قرش . وتقول إن بلادنا موطن مسيلمة ، فبلادك كانت مقرّ عبادة الأوثان وكان أهلها يعبدون النيران ،ولكن الأرض يسكنها البرّ والفاجر وإنما يحاسب الله العباد لا البلاد .. وأخيراً .. نحن بانتظارك لنهزمك كما هزمناك في الأحساء ..

سنة ١٢٢٣ هـ .

غزو عثاثة والبصرة والزبير

يقول ابن بشر ان سعود سار في جمادى الأولى من عام ١٢٢٣ بالجيوش من الحاضرة والبادية وتوجه (ناحية العراق ، فقصد أهل بلد الحسين فوجدهم محصنين بلدهم بسور عظيم وجنود جمعوها .. فرحل عنها ونزل على بلد « عثـــاثا » ..

فهرب أهلها في رؤوس الجبال واستولى على بلدهم ثم أرسل اليهم وأعطاهم الأمان ومنَّ عليهم ببلدهم وما فيها ، وأخذ جميع ما عندهم من الخيل ، ذكر لي انه مائة فرس ..

ثم رحل منها وقصد « الجرة » وناوش المنتفق بقتال ، وحصل مجاولة خيل ، قتل فيها من المنتفق سلطان بن حمود بن ثامر .

ثم سار إلى البصرة ونزل عندهـــا ، وسار المسلمون على جنوبها ونهبوا فيه وقتلوا قتلى .

ثم سار منها ونزل قبالة « الزبير » ، ثم رحل منه إلى وطنه) .

رواية الدليل :

وجاء في دليل الخليج الفارسي ان قوة وهابية ظهرت بالقرب من كربلاء ، ثم اتجهت إلى واحة عثاثا واقتحمت الهندية ، ثم وصلت إلى عين سعيد ، قرب السماوة ، فخرج سليمان باشا ، والي بغداد الجديد مسرعاً للقاء الوهابيين وقاتلهم واضطرهم الى الإنسحاب [1] .

وقد أمر سليمان باشا بقتل زعيم عثاثا الذي اعتنق الوهابية ، ثم عاد الى بغداد ودخلها في موكب المنتصر الظافر .

ويقول موسيل ان الباشا لم يكتف بقتل زعيم عثاثا ، فأمر بذبح الوهابيين من سكان عثاثا أيضاً .

وتقول مجلة « حوليات الأسفار » ان سعود أرسل إلى أهل بغداد يحرضهم على رفع النير العثماني عن أعناقهم ، فأزعج ذلك سليمان باشا وجعله يسرع في تقوية البلدان والمراكز التي يخشى عليها من هجوم وهابي وفي مقدمتهـا مشهد الحسين والحلة .

---

(١) جاء في الدليل أيضاً أنه أشيع في بغداد قبل عودة الباشا ان جيشاً وهابياً عظيماً يسير إلى بغـداد فعم الذعر وأغلقت الأسواق وحمل التجار الأسلحة للمقاومة وتعزيز حامية البلد .. ثم ظهر بطلان النبأ ..

وتقدر المجلة عدد الجنود الذين كانوا مع سعود في غزواته إلى العراق عام ١٨٠٨ م . = ١١٢٣ هـ . بإثني عشر ألف مقاتل .

حملات عبد الله بن سعود على العراق في عهد أبيه :

لا يذكر ابن بشر شيئاً عن الغزوات التي قام بها عبد الله بن سعود إلى العراق في حياة أبيه سعود ، بعد عام ١٢٢٣ هـ . ولكن « دليل الخليج الفارسي » يشير إلى غزوة قام بها عبد الله ضد العراق عام ١٢٢٥ هـ . (١٨١٠ م .) ، وتغلغل فيها الغزاة بعيداً في داخل العراق ، حتى بلغوا مشارف بغداد .

ويردف الدليل إلى ذلك قوله : إن هذه الغزوات بسطت النفوذ الوهابي على عدد كبير من بدو العراق بحيث استطاع سعود أن يرسل عماله عام ١٢٢٧ هـ . (١٨١٢ م .) إلى الهندية ، قرب كربلاء ، لجمع الزكاة من العشائر .

معارك الحجاز

حصار جدة ومعارك الليث :

يذكر ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢١٩ هـ . ، أن عبـد الوهاب بن عامر ، المعروف بكنيته : (أبو نقطة) ، وكان أميراً على ألمع وعسير ونواحي تهامة ، سار قاصداً (جدة) محارباً لها ، بأمر سعود ، ونزل (السعدية ، الماء المعروف قرب سيف البحر ،بينه وبين مكة نحو يوم ونصف ،وهم نحو ستة آلاف مقاتل) وأن الشريف غالب علم بسيره ،فجهز (العساكر الكثيرة ، قيل انها عشرة آلاف رجل ، وقصد عبد الوهاب على مائه ، فالتقى الجمعان واقتتل الفريقان) ... وانهزم الشريف غالب وجنوده (فتبعهم أهل عسير ..يقتلون ويغنمون ويأخذون سلاح المدبرين ولباسهم وما معهم .. وترك الشريف غالب ثقله ومدافعه وزهبته وسلاحه .. قيل ان البنادق التي جمعت ألفين وخمسمائة..والقتلى أكثر من ستمائة ، أكثرهم من الترك والامداد التي عنـــده من الدولة) .. ورجع غالب إلى مكة منكسراً ، وعاد عبد الوهاب إلى وطنه منتصراً .

تلك هي رواية ابن بشر للمعارك التي جرت بين الشريف غالب وبين رجال سعود سنة ١٢١٩ ، وفي اعتقادنا انها رواية ناقصة مضطربة ، ولذلك رجعنا في استقصاء أخبار هذه المعارك إلى الجبرتي وابن دحلان .

والحقيقة هي أن أربع معارك وقعت خلال العام ١٢١٩ هـ . وهي :

١ — معركة جدة .
٢ — معركة الليث .
٣ — معركة السعدية .
٤ — معركة ينبع .

معركة جدة :

يقول ابن دحلان ان عثمان المضايفي وسالم بن شكبان سارا في شهر المحرم إلى جدة بأثني عشر ألفاً ، وحاصراها حصاراً شديداً ، ولكن مدافع جدة أفنت الكثير من جنودهما ، فرحلا عنها بعد ثلاثة أيام. أما الشريف غالب فلم يسر إلى لقائها ، لأنه كان مطمئناً إلى قوة جدة ، ولكنه كان يخاف على مكة ، (فنادى مناديه في البلد الحرام بالنفير العام، وأمر الناس بحمل السلاح والخروج إلى الزاهر فخرج الناس على طبقاتهم .. حاملين السلاح ، يبيتون من وقت المساء إلى الصباح حتى مضى لهم سبع ليال على هذا المنوال) .. ثم عادوا إلى دورهم وأعمالهم بعد أن بلغتهم أخبار جدة السارة ..

غزوة الليث :

وجه الشريف حملتين إلى (الليث) ، إحداهما من البر والاخرى من البحر ، فدخلتا البلد .. وبعد مضي أربعة أيام جاء أربعة آلاف من الوهابيين ، فوقعت بين الفريقين معركة كبيرة سقط فيها قتلى من الجانبين وانسحب الوهابيون .

وقد جمع الأتراك الذين اشتركوا في المعركة رؤوس بعض القتلى الوهابيين (وحشوها بالتبن وأرسلوها إلى الشريف غالب ، فأمر بتعليقها خارج البلد ، وهرع الناس ينظرون اليها) ..

وهذا العمل الذي سر قلب ابن دحلان تمثيل شنيع نهى عنه الإسلام نهياً شديداً ويعد خزياً وعاراً لفاعله .

معركة السعدية :

في ١٠ شوال سنة ١٢١٩ بلغ الشريف غالب نزول جنود وهابيين على السعدية

بأعداد عظيمة ، فسار اليهم وجرى بين الفريقين قتــال شديد ، أسفر عن ألفي قتيل من الجانبين ، في رواية ابن دحلان ، وأما ابن بشر فيقول ان الحملة أسفرت عن هزيمة شنعاء لغالب والترك وسقوط ستمائة قتيل منهم .

معركة ينبع :

وفي شهر صفر من ذلك العام، سار شيخ حرب وشيخ جهينة « ابن جبارة » الى ينبع واستوليا عليها .

ويقول الجبرتي ، في أخبار سنة ١٢١٩ هـ . : (وصلت الأخبار في هـــذه الأيام أن الوهابيين ملكوا « الينبع »)، وكان للشريف غالب وكيل في ينبــع ، يسمونه الوزير ، اتهمه بعضهم بالخيانة وتسليم البندر .. فلمــا جاء الى مكة أمر الشريف بصلبه فصُلِب ..

ثم أراد الشريف أن يستأجر مركبين للانكليز كانا فيجدة ويشحنهما بالمقاتلين الى ينبع ، ولكن أصحاب المركبين لم يقبلا .. فجهز عشر دوات كبار وشحنها بالجنود والمدافع ، ولما وصلت الى ساحل البــلد رمتها بالمدافع فقتلت كثيراً من رجال حرب فاضطروا الى إخلاء ينبع .

سنة ١٢٢٠ هـ .

بيعة المدينة المنورة :

في أول سنة ١٢٢٠ هـ . كتب قضاة المدينـــة وعلماؤها وأعيانها كتاباً الى الإمام سعود يبايعونه فيه على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ، وقــد أرسلوه الى الدرعية مع وفد يمثلهم .

لم يستشر الأهالي الشريف غالب ولا ولاة الترك قبل إقدامهم على هذه البيعة الخطيرة ، ولكنهم استشاروا أنفسهم وصالح بلدتهم، فقد عاشت المدينة سنوات طويلة تحت رحمة رؤساء حرب، الذين ضيّقوا عليها الخناق ، إذ (نزلوا عواليها.. وأمرهم عبد العزيز ببنــاء قصر فيها فبنوه وأحكموه واستوطنوه ، وتبعهم أهل « قباء » ومن حولهم ، وضيّقوا على أهل المدينة وقطعوا عنهم السوابل) [١] .

---

(١) ابن بشر .

لم يكن الشريف غالب قادراً على إغاثة أهل المدينة ، وهو المهـدد في عقر داره بمكة ، وكذلك سلاطين آل عثمان كانوا هم أيضاً في عناء وبلاء من أعدائهم الاوربيين ومن الثـائرين عليهم في الأقاليم .. وهكذا كان استسلام المدينة أمراً محتماً .

سعود في المدينة :

استسلمت المدينة وأطاعت قبل مكة ، ولكن سعود لم يأتِ الى المدينة إلا بعد دخوله مكة ومصالحته للشريف غالب .

جاء سعود الى المدينة في آخر ذي الحجة عام ١٢٢١ هـ . (فدخلها وضبطها أتم ضبط ، وجعل في ثغورها مرابطة ، وأجلى عنها باشا الحرم عنبر والقـاضي وكل من يحاذر منه ، واستعمل على المرابطة أميراً حمد بن سالم ، من أهل العيينة ، وجعل على الخراج محمد العييني ، من أهل الدرعية .) [١] .

كنوز الحجرة الشريفة :

كان دخول سعود الى المدينة دخولاً جميلاً ، ولكن سعود ارتكب بعد ذلك خطأ سياسياً استغله خصومه استغلالاً شنيعاً ، وهو استيلاؤه على أموال الحجرة الشريفة ، فقد اشترى قسماً منها لنفسه وباع قسماً ووزع قسماً على عـــدد من الأعيان .

إن تصرف سعود غير مستنكر في الدين ، لأسباب كثيرة سنذكرها ، ولكنه كان عملاً غـــير موفق من الناحية السياسية و « الدعائية » ، و « التوقيت » – إن صحّ هذا التعبير – !

ومهما يكن الأمر ، فقـد بالغ خصوم سعود كثيراً في التنديد بعمله وأرادوا أن يجعلوه خرقاً لركن من أركان الإسلام وإهانة للنبي ﷺ ... وكل ذلك افتراء وبهتان .

---

(١) ابن بشر .

إن خطأ سعود هو في أسلوب سلوكه ، كان ينبغي له أن يمهـد لعمله بشرح مقاصده للرأي العـام ، ثم كان عليه أن يبعد نفسه عن الشبهات بتسليم الكنوز الى رجال أمناء يتولون بيعها وصرف أثمانها في المصالح العامة ، وبذلك يدرك كل إنسان خلوص نيّته ، وافقه على عمله أم خالفه فيه .

ردّ الشيخ عبد اللطيف :

ردّ العـالم الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ ردّاً قوياً على من استنكر عمل سعود في الاستيلاء على كنوز الحجرة الشريفة وبيعها ، فقال :

(.. وأما التجاسر على حجرة رسول الله – يشير الى المال الذي استخرجه سعود من الحجرة الشريفة وصرفه في أهل المدينة ومصالح الحرم – فإنه ، رحمه الله ، **لم يفعل هذا الا بعد أن أفتاه أهل المدينة من الحنفية والمالكية والشافعية والحنبلية ، فاتفقت فتواهم على أنه يتعين ويجب على ولي الأمر اخراج المال الذي في الحجرة وصرفه في حاجة أهل المدينة وجيران الحرم**، لأن المعلوم السلطاني قد منع في تلك السنة واشتدت الحاجة والضرورة إلى استخراج هذا المال وإنفاقه ، ولا حاجة لرسول الله الى إبقائه في حجرته وكنزه لديه ، وقد حرم كنز الذهب والفضة وأمر بالإنفـاق في سبيل الله ، لا سيما اذا كان المكنوز مستحقاً لفقراء المسلمين وذوي الحاجة منهم كالذي بأيدي الملوك والسلاطين ، فـلا شك ان استخراجها على هذا الوجه وصرفها في مصارفها الشرعية أحب الى الله ورسوله من إبقائها واكتنازها ، وأي فائدة في إبقائها عند رسول الله ﷺ وأهل المدينة في أشد الحاجة والضرورة اليها ، وتعظيم الرسول وتوقيره إنما هو في اتباع أمره والتزام دينه وهديه ، فإن كان عند من أنكر علينا دليل شرعي يقتضي تحريم صرفها في مصالح المسلمين فليذكره لنا .

ولم يضع هذا المال أحد من علماء الدين الذين يرجع اليهم ، وليس عند هؤلاء إلا اتباع عادة أسلافهم ومشايخهم .) .

دفاع الجبرتي :

دافع الجبرتي عن حق ولي الأمر في التصرف بالمدخرات والكنوز واستعمالها

في مصالح المسلمين دفاعاً حسناً مؤيداً بكثير من الأحاديث ، ولكنه أغفل الناحية السياسية ، وشأنه في ذلك شأن الشيخ عبد اللطيف ، على قوة حججها ، قال :

(.. يذكرون ان الوهابي استولى على ما كان بالحجرة الشريفة من الذخائر والجواهر ونقلها وأخذها ، فيرون أن أخذه لذلك من الكبائر العظام ، وهذه الأشياء أرسلها ووضعها سخاف العقول من الأغنياء والملوك والسلاطين الأعاجم وغيرهم ، إما حرصاً على الدنيا وكراهة أن يأخذها من يأتي بعدهم ، او لنوائب الزمان فتكون مدخرة ومحفوظة لوقت الاحتياج اليها فيستعان بها على الجهاد ودفع الأعداء ، فلما تقادمت عليها الأزمنة وتوالت عليها السنون والأعوام الكثيرة وهي في الزيادة ارتصدت معنى لا حقيقة وارتسم في الأذهان حرمة تناولها وانها صارت مالاً للنبي ﷺ فلا يجوز لأحد أخذها ولا إنفاقها ، والنبي ﷺ منزّه عن ذلك ، ولم يدخر شيئاً من عرض الدنيا في حياته ، وقد أعطاه الله الشرف الأعلى ، وهو الدعوة الى الله تعالى والنبوة والكتاب ، واختار أن يكون نبياً عبداً ، ولم يخترْ أن يكون نبياً ملكاً .

وثبت في الصحيحين وغيرهما انه قال : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً .

وروى الترمذي بسنده عن أبي امامة ، عن النبي ﷺ ، قال : عرض عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا ، يا رب ، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ـ أو قال ثلاثاً أو نحو ذلك ـ فإذا جعت تضرعت اليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك .

ثم إن كانوا وضعوا هذه الذخائر والجواهر صدقة على الرسول ومحبة فيه ، فهو فاسد ، لقول النبي ﷺ : « إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد » ، إنما هي أوساخ الناس ، ومنع بني هاشم من تناول الصدقة وحرمها عليهم ، والمراد الانتفاع في حال الحياة لا بعدها ، فإن المال أوجده الله سبحانه من أمور الدنيا لا من أمور الآخرة ، قال تعالى: (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد) ، وهو من جملة السبعة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه

العزيز في قوله تعالى : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) ، فهذه السبعة بهـا تكون الخبائث والقبائح وليست هي في نفسها أموراً مذمومة بل قد تكون معينة على الآخرة إذا صرفت في محلها .

وعن مطرف، عن أبيه ، قال : أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ « الهاكم التكاثر » قال : يقول ابن آدم مالي مالي،فهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت ؟

إلى غير ذلك ..

ومحبة الرسول بتصديقه واتباع شريعته وسنته ، لا بمخالفة أوامره ، وكنز المال بحجرته وحرمان مستحقيه من الفقراء والمساكين وباقي الأصناف الثانية .

وان قال المدخر : اكنزها لنوائب الزمان ، ليستعان بها على مجاهدة الكفار والمشركين عند الحاجة اليها .

قلنا : قد رأينا شدة احتياج ملوك زماننا واضطرارهم في مصالحات المتغلبين عليهم من قرانات الافرنج، وخلو خزائنهم من الأموال التي أفنوها بسوء تدبيرهم وتفاخرهم ورفاهيتهم ، فيصالحون المتغلبين بالمقادير العظيمة بكفالة أحد الفرق من الافرنج المسالمين لهم ، واحتالوا على تحصيل المال من رعاياهم بزيادة المكوس والمصادرات والطلبات والاستيلاء على الأموال بغير حق حتى أفقروا تجارهم ورعاياهم ، ولم يأخذوا من هـذه المدخرات شيئاً ، بل ربما كان عندهم أو عند خونداتهم جوهر نفيس من بقايا المدخرات فيرسلونه هـدية إلى الحجرة .. ولا ينتفعون به في مهماتهم فضلاً عن إعطائه لمستحقيه من المحتاجين ، وإذا صار في ذلك المكان لا ينتفع به أحد إلا ما يختلسه العبيد ... الذين يقال لهم « أغوات الحرم » .

.. والفقراء من أولاد الرسول وأهل العلم والمحتاجون وأبناء السبيل يموتون جوعاً ، وهذه الذخائر محجور عليها وممنوعون منها .

إلى أن حضر الوهابي واستولى على المدينة ، وأخذ تلك الذخائر .. فيقال انه عبى أربع سحاحير من الجواهر المحلاة بالالماس والياقوت العظيمة القدر ، ومن ذلك أربعة شمعدانات من الزمرد وبدل الشمعة قطعة من الماس مستطيلة يضيء نورها في الظلام ، ونحو مائة سيف قراباتها ملبسة بالذهب الخالص ومنزل عليها الماس وياقوت ونصابها من الزمرد واليشم ونحو ذلك وسلاحها من الحديد الموصوف، كل سيف منها لا قيمة له وعليه دمغات باسم الملوك والخلفاء السالفين، وغير ذلك) .

رواية بركهارت :

ويقول بركهارت ان زعماء المدينة كانوا قد استولوا على كثير من كنوز الضريح النبوي ، قبل دخول سعود الى المدينة ، وأكثر ما أخذوه من الأواني الذهبية ، وكانوا يزعمون انهم يبيعونها ليوزعوا أثمانها على الفقراء ولكنهم ، في الحقيقة ، كانوا يتقاسمونها فيما بينهم .

قال : (ولما دخل سعود الحجرة أخذ كل شيء ثمين . وقد باع قسماً من الكنوز الى الشريف غالب ، وقدر الشريف ما أخذه بمائة ألف ريال .

أما بقية الأشياء ، وخصوصاً الجوهرات النفيسة ، فقد حملها سعود معه الى الدرعية ، وكان أغلى ما أخذه نجمة من الجوهر يقال لها : «الكوكب الدرّي»، كانت معلّقة فوق الضريح .

كان في الحجرة عقود وأساور وأنواع كثيرة من الحلي مرصّعة بالأحجار الكريمة ، وكثير من الأواني والتحف الثمينة ، ولكن القول بأنها ثمينة جداً .. الى حد يصعب معه على الانسان حصرها وتقدير قيمتها .. كلام مبالغ فيه .

ولم يكن في الحجرة نقود ، لأن النقود كانت تذهب مباشرة الى جيوب حرّاس الضريح ..

ولكنني لا اصدق ان شيئاً من هذه الكنوز التي تتراكم وتتكاثر وتأتي من كل البلاد لم يتسرب الى الزعماء وحراس الضريح ، شأنها في ذلك شأن مصابيح الحرم

المكي الذهبية .. التي أخبرنا المؤرخ قطب الدين انهـــا كانت تخرج من المسجد الحرام مخبأة في أكام المشايخ العريضة) .

ما أخذه سعود باعتراف القلعي :

وجدنا في استانبول صك التحقيق الذي أجرته لجنة قضائية مع حسن القلعي ، الذي أمسك به محمد علي وأرسله الى السلطان ، فإذا فيه ان ما أخذه سعود من نفائس الحجرة هو :

سيف مزين بالماس
تاج مرصع بالماس والعقيق
قلادة نسوية مزينة بالياقوت والماس
حمالات سيوف مرصعة بالماس والياقوت
مسبحة من حبات العقيق بحجم البندقة
زنار مزين بالزمرد
مائة حبة من الياقوت بحجم اللوزة
مائة حبة من العقيق بحجم حبة الحمص
حبات من المرجان بحجم حبة البندق ، عددها غير معلوم
١٤ حلقة مزينة بالعقيق
شمعدان ذهب
حبة زمرد بحجم البيضة
كؤوس مزينة بالعقيق
خنجر مرصع بالجوهر
حبة زمرد بحجم جوزة الهند .

ويقول القلعي ان سعود وزع على عدد من أهل المدينـــة الكثير من الحلي والأواني الذهبية .

السلطان العثماني أذن بأخذ أموال الحجرة :

كان الأتراك – وفي مقدمتهم السلطان العثماني - أكثر الناس استنكاراً لأخذ

سعود أموال الحجرة الشريفة ، ولكننا وجدنا في كتاب المؤرخ التركي جودت باشا وثيقة طريفة تثبت ان السلطان العثماني كان أذن بأخذ أموال الحجرة وتوزيعها على أبناء الشرفاء وطلاب العلم .. وهذه الوثيقة هي رسالة بعث بها سلطان مراكش إلى السلطان العثماني ينكر فيها عليه فعلته أو تصميمه ، وهذا بعض ما جاء فيها :

(.. وقد ذكرتم فيه من المصاحف المرصعة باليواقيت واللآلي التي أرسلت وأهديت في زمانكم العالي وفي أوقات آبائكم وأجدادكم الغوالي إلى الروضة المطهرة والتربة المقدسة المنورة .. منافعها الآن مفقودة لعدم قراءتها وهي المقصودة ، وبعض الجواهر عليها من الرصايع ، يحتمل أن يكون الساقط منها والضايع ، فلهذا كنتم في موضع الرجا أن ينزع الجواهر والحلي عنها ويباع ، ويعطى أثمانها للشرفاء الذين هم الأطهار والنجباء بالاجماع ، والمصاحف المنتزعة من الجواهر المرصعة لسكان طيبة الطيبة وطلابها لأجل الانتفاع ...

وما رأينا إخراج المصاحف المطهرة من خزينة المدينة المنورة وانتزاع الجواهر والحلي عنها وابتياعها خليقاً بخليقتكم الكريمة وحقيقاً بحقيقتكم الفخيمة ، ولا لشأن آبائكم الكرام جديراً .. لأنها تبرك وهدية لسلطان الأنبياء خير البرية ، عليه وعلى آله الصلوات السنية ، ولا شك أنه حي في قبره .. واخراج الهدية وأخذها عن الخزانة النبوية ، وإن لم يكن في نفسه سيئة ردية ، مـا كان دأباً للملوك والأمراء .. خوفاً من القصور في الأدب والاحترام) .. الخ .

سنة ١٢٢٠ وسنة ١٢٢١ هـ .

الشريف غالب يصالح سعود ويبايعه

التضييق على مكة :

يقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢١٩ هـ . : (إن سعود أمر ببناء قلعة في وادي فاطمة ، قرب مكة ، فتمّ بناؤها وجعل فيها عسكراً ليضيقوا على الشريف

صاحب مكة) . ثم يقول ، في أخبار سنة ١٢٢٠ ، ان سعود أمر عبد الوهاب ورعاياه من تهامة ، وسالم شكبان ورعاياه من بيشة ونواحيها ، وعثمان المضايفي وأهل الطائف وما حولها ، بالنزول الى مكة (والتضييق على أهلهـــا ، ومنع الحاج الشامي من الوصول اليها إن كان محارباً .. فاشتد الأمر على غالب وبلغ منه الجهد،وطلب منهم المصالحة على مواجهة سعود ومبايعته على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ، فصالحوه وأمهلوه ..

ودخل عثمان وعبـد الوهاب ومن معهم ، وحجُّوا واعتمروا .. وأعرضوا عن الحج الشامي وحج ..

وانصرف عبد الوهاب ومن معه الى أوطانهم ..

وأرسل غالب الى سعود يطلب إتمام الصلح والمبايعة ، فأجابه اليها .

وأمنت السبل ، ورخصت الأسعار .)

رواية الجبرتي :

ويقول الجبرتي ، في أخبار سنة ١٢٢١ :

(وصلت الأخبـــار من الديار الحجازية بمسالمة الشريف غالب للوهابيين ، وذلك لشدة ما حصل لهم من المضايقة الشديدة وقطع الجالب عنهم من كل ناحية ، حتى وصل ثمن الاردب المصري من الأرز خمسمائة ريال والاردب البر ثلاثمائة وعشرة ، وقِسْ على ذلك السمن والعسل وغير ذلك ..)

ويذكر الجبرتي ان الأحوال تغيرت بعد الصلح ، فأمنت السبل (وسلكت الطرق بين مكة والمدينة وبين مكة وجدة والطائف ، وانحلت الأسعار وكثر وجود المطعومات ومـــا يجلبه عربان الشرق الى الحرمين من الغلال والأسمان والأعسال ، حتى بيع الاردب من الحنطة بأربعة ريالات .)

رواية ابن دحلان :

ويقول ابن دحلان ان الإمام سعود عقد (مجمعاً عاماً ، وطلب جميع الأمراء فحضروا عنده ، منهم عبد الوهاب أبو نقطة أمير عسير ، وسالم بن شكبان أمير بيشة ، وعثمان المضايفي أمير الطائف ومـــا حوله ، وغير هؤلاء من الأمراء ،

وأمرهم أن يحاصروا «أم القرى» من جميع الجهات وأن يمنعوا عنها جميع الوارد ويبالغوا في منع الأقوات ، وانصرفوا من الحج على ذلك .)

وفي ١٠ شوال، كما يقول هذا المؤلف أيضاً، استولى ثلاثون ألفاً من الوهابيين على « الحسينية » ، وفي ٢٦ من ذي القعـدة وصل من الحسينية الى مكة أحد كبار العلمـــاء الوهابيين واسمه الشيخ عبد الرحمن بن نامي ، ومعه ثلاثة منهم ، فاجتمع بالشريف غالب وحدثه في الصلح ورجع في نفس اليوم الى الحسينية يخبر بما وقع بينهما من الاتفاق ، ثم رجع من الحسينية واجتمع بالشريف غالب وتمَّ معه الصلح على الشروط الآتية :

١ – يأذن الشريف غالب للوهابيين في الحج ثم يتوجهون الى بلادهم .

٢ – يدخل أهل مكة وكل من كان تحت حكم الشريف في الطاعة .

٣ – يكون أمر مكة وأحكامها تحت نظر الشريف .

وقـد اشترط الشريف عليهم أن يعيدوا اليه الحسينية وأثمان مـا أخذوه وأتلفوه فيها وحتى دية القتلى .

وأذن الشريف لجموع الوهابيين بدخول مكة فوراً ..

ولما شاع نبأ الصلح اطمأنت القلوب ورخصت الأسعار ..

وصول كتاب الصلح :

(وفي غاية صفر ، وصل من الدرعية عشرون رجلاً ، وفيهم حمد بن ناصر ، أحد علمائهم ، وكان الشريف بجدة ، فنزلوا لملاقاته ، فاجتمعوا به وأعطوه ما كان معهم من المكاتيب من سعود ، وفيها اتمام الصلح) .

مكة تجاري الدرعية :

يقول الجبرتي ان شريف مكة – وكانوا يلقبونه بـ (سيد الجميع) – تعهد بترك ما كان يجري باسمه في مكة من المظالم والفساد، وأخذ المكوس ومصادرة الأموال (وكانوا خرجوا عن الحدود في ذلك ، حتى ان الميت يأخذون عليه خمسة فرنسة وعشرة بحسب حاله ، وإن لم يدفع أهله القدر الذي يتقرر عليه فلا يقدرون على رفعه ودفنه ولا يتقرب اليه الغاسل ليغسله حتى يأتيه الأذن ،وغير

ذلك من البدع والمكوس والمظالم التي أحدثوهـا في المبيعات والمشتروات على البائع والمشتري ، ومصادرة الناس في أموالهم ودورهم فيكون الشخص من سائر الناس جالساً بداره فمـا يشعر على حين غفلة منه إلا والأعوان يأمرونه بإخلاء الدار وخروجه منها ويقولون : إن سيد الجميع محتاج اليها .

فاما أن يخرجه منها جملة وتصير من أملاك الشريف ، واما أن يصالح عليها بمقدار ثمنها أو أقل أو أكثر) [١] ..

وقد أمر الشريف (بمنع المنكرات والتجاهر بها وشرب الأراجيل بالتنباك ، وترك لبس الحرير والمقصبات).و (أمر الناس أن يدخلوا المسجد حين يسمعون الآذان لأداء صلاة الجماعة ، ونهى عن تكرير الجمـــاعة في المسجد الحرام وأن لا يصلي إلا إمام واحد ، وأن يقتصروا على الآذان على المنابر ويتركوا التسليم والتذكير والترخيم) .. وعاهد الشريف كذلك على (اتباع ما أمر الله تعالى بـه في كتابه العزيز من اخلاص التوحيد لله وحده ، واتباع سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ومـا كان عليه الخلفاء الراشدون والصحابة والتابعون والأئمة المجتهدون إلى آخر القرن الثالث وترك ما حدث في الناس من الالتجاء لغير الله من المخلوقين والأحياء والأموات في الشدائد والمهمات .. وعلى هدم القباب المبنية على القبور والأضرحة لأنها من الأمور المحدثة) [٢] ..

دهاء الشريف غالب :

ويقول الجبرتي ان الشريف غالب ، مع كل هذه العهود .. (استمر على أخذ العشور من التجار ، وإذا نوقش في ذلك يقول : هؤلاء مشركون .. وأنا آخذ من المشركين ، لا من الموحدين) .

منع الحاج الشامي والتركي :

يقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢٢٠ هـ . ان الشريف غالب استبقى عنده

---

(١) الجبرتي .
(٢) ابن دحلان .

عسكراً من المغاربة والترك ، بعـــد انصراف الحجاج الى بلدانهم ، وانه حصّن جدة وأحاطها بخنادق ومنع أهل نجد وغيرهم من دخولهـا ، ولما سئل عن سبب احتفاظه بالعسكر ، أجاب ان عبد الله باشا العظم ، أمير الحاج الشامي ، هو الذي أمر بذلك ورتبه .. وقـــد بلغ ذلك الإمام سعود فاحتاط للأمر ، لشكه في إخلاص الشريف غالب وسلامة نيتـه ، وأرسل الى أمرائه في عسير وبيشة والطائف وغيرهم من الأمراء الذين كان أرسلهم من نجد ليرابطوا حول المدينــة المنورة ، يأمرهم بأن يمنعوا (الحجاج الذين يأتون من جهة الشام واستانبول ونواحيها ، فلما أقبل على المدينة الحاج الشامي ومن تبعه ، وأميره عبد الله العظم باشا الشام ، فأرسل اليه هؤلاء الأمراء أن لا يقدم اليهم وأن يرجع الى أوطانه .. فرجع ..) [1]

سياسة ذات وجهين :

ويقول ابن دحلان ان الشريف غالب وأهل مكة جاروا ما كان عليه أهل الدرعية في سلوكهم الديني والاجتماعي ، حتى خيّل لعلماء الوهابية ان أهل مكة يعتقدون حقاً صواب ما يفعلونه ، فذهبوا الى الدرعية وأخبروا الإمام والرؤساء بطاعة أهل مكة .

قال ابن دحلان : (.. إن الشريف غــالب ، في جميع السنين التي كان فيها تغلب الوهابي على مكة ، كان يصانعهم ويهاديهم بالأموال الجزيلة ، بحيث كانت هداياه تصل الى أكثر أمرائهم وعلمائهم وأعوانهم ، يفعل ذلك مدافعة عن نفسه وحماية لبقاء ملكه ، ووقاية لأهل مكة أن ينالهم مكروه .

ومع ذلك : كان يكاتب الدولة العليـــة سراً ، ويحثهم على تعجيل تجهيز عساكرهم ، لإنقاذ الحرمين من الوهابية ..)

---

(١) ابن بشر .

سنة ١٢٢١ هـ .

سعود في مكة :

خرج سعود من الدعية سنة ١٢٢١ هـ . إلى مكة ، حاجاً أولاً ، ومتسلماً لها من الشريف غالب ، ثانياً ، بعد أن أصبح الشريف ، على خطورة امارته ، تابعاً لسلطان سعود .

دخل سعود مكة حاجاً بمن خرج معه من الدرعية ، وانضمت اليه تلك الجيوش الكبيرة التي كانت متجمعة حول المدينة المنورة ، فكانت هذه الحجة حدثاً مذكوراً في تاريخ مكة لكثرة الرجال المسلحين الذين شهدوها .

وقد وصف (علي بك العباسي) ، الذي حج إلى مكة ، في نفس العام الذي دخل فيه سعود مكة ، حجة سعود ورجاله ، فقال :

(رأيت .. جيشاً مؤلفاً من خمسة وأربعين ألف وهابي يسير ، أكثر أفراده يركبون الجمال ، يرافقهم ألف جمل تحمل الماء والخيام والحطب للوقود والأعشاب الجافة .

وكانت فصيلة من مائتي خيال ترفع بيارق من ألوان مختلفة على رؤوس الرماح ، وقد قيل ان فصيلة الخيالة هذه تخص القائد أبو نقطة ، وقد لحظت سبعة أو ثمانية بيارق من راكبي الجمال بدون طبول ولا أبواق ولا أية أداة عسكرية أخرى ، وبما أن هؤلاء الرجال جميعهم كانوا في ثياب الاحرام وكذلك قادتهم تعذر عليّ تبين سعود وأبي نقطة ، إلا ان شيخاً جليلاً ذا لحية بيضاء طويلة يتقدمه العلم الملكي بدا لي انه السلطان ، وكان هذا العلم الملكي أخضر ويحمل شهادة (لا إله إلا الله) منقوشة عليه بأحرف بيضاء ضخمة .

ولم يلبث الجبل حتى اكتسى وما حوله من الأرض بجموع الوهابيين ، وكان مشهدهم يملأ النفس ذعراً ، ولكن متى تغلب الإنسان على هذا الانطباع الأول وجد لديهم خصالاً حميدة ، فهم لا يسرقون قط لا عن طريق القوة ولا عن طريق الحيلة .. وهم يؤدون أثمان كل ما يشترونه وأجور الخدمات التي تقدم اليهم .. يطيعون زعماءهم طاعة عمياء ، ويتحملون صامتين كل أنواع المشاق) [١] .

(١) كتاب « اكتشاف جزيرة العرب » .

رواية ابن بشر :

يقول ابن بشر : ان سعود ورجاله حجوا على أحسن حال (وبذل سعود في مكة شيئاً كثيراً من العطايا والصدقات ، ونزل قصر البياضة الشمالي ، فركب اليه الشريف غالب وبايعه .

وأخرج سعود من كان في مكة من الأتراك،وأخرج من كان في قصور مكة من عسكر الترك .

وكسا الكعبة الشريفة كسوة فاخرة من القز الأحمر ، ثم كساها بعد ذلك بالقيلان الفاخر ..

ثم رحل منها في آخر ذي الحجة ، وقصد المدينة النبوية) .

رواية الجبرتي :

ويقول الجبرتي : (وصل حجاج المغاربة إلى مصر من طريق البر وأخبروا أنهم حجوا وقضوا مناسكهم ، وان سعود الوهابي وصل إلى مكة بجيش كثيف وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار .

وانه أحضر مصطفى جاويش ، أمير الركب المصري ، وقال له :

– ما هذه «العويدات»..والطبول التي معكم ؟ – يعني بالعويدات المحمل –.

فأجابه أمير الركب المصري :

– هو إشارة وعلامة على اجتماع الناس ، بحسب عادتهم .

فقال له :

– لا تأتِ بذلك بعد هذا العام ، وإن أتيتَ به أحرقتُه ..

.. وانه هدم القباب وقبة آدم وقباب ينبع والمدينة ، وأبطل شرب التنباك والنارجيلة من الأسواق .. وكذلك البدع .)

حجات سعود وبعض عاداته في ضبط البلدان :

ويقول ابن بشر ان سعود كان يحج كل عام ، لم ينقطع عن ذلك قط .

وكان في كل سنة يبدل المرابطة الذين في المدينة (وهذه عادته في الثغور ، يجعلهم فيها سنة ، ثم يبدلهم بغيرهم ويرجعون الى أهاليهم .)

وكان الشريف غالب لسعود (بمنزلة أحد نوابه او أمرائه الذين في نجـــد ، بالسمع والطاعة .)

وقد حج ابن بشر سنة ١٢٢٥ ، فرأى الإمـــام سعود في مكة ، ووصفه عن مشاهدة لا سماع ، قال :

(حججت تلك السنة وشهدت سعوداً وهو راكب مطية مُحرِماً بالحج – ونحن مجتمعون في « نمرة » لصلاة الظهر – وخطب فوق ظهر مطيته خطبة بليغـة ، ووعظ الناس وعلّمهم المناسك .

وذكرهم ما أنعم الله عليهم به من الاعتصام بكلمة لا إله إلا الله ، وما أعطى الله في ضمنها من الاجتماع بعد التفرق ، وأمان السبل ، وكثرة الأموال ، وانقياد عصاة الرجال ، وان أضعف ضعيف يأخذ حقه كاملاً من أكبر كبير من مشايخ البدو وأعظم عظيم من رؤساء البلدان .

ونادى ، وهو على ظهرها ، لا يحمل في مكة سلاح ولا تبرج امرأة بزينـة ، وتوعّد من فعل ذلك من جميع رعيّته .

ورأيت الشريف غالباً أقبل فوق حصانه ، ونحن جلوس في الصف ، وليس معه إلا رجل واحد ، ونزل سعود من كور مطيته وسلم عليه ، وتعانقا ، وسلم عليه المسلمون ، ودخل سعود بعد ذلك مكة ، وسار فيها سيرة حسنة ، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والصدقات ، والعطاء ، والرأفة بأهلها ، وجعل في الأسواق رجالاً وقت الصلاة يحضّونهم عليها ، فلا تجـــد فيها وقت الصلاة متخلفاً ، إلا نادراً . ولا تجـد في الأسواق .. من يشرب التنباك ولا غيره من المحظورات ..

.. وفي تلك الحجة كشف سعود القبة التي فوق صخرة مقام إبراهيم ، فبرزت الصخرة والقدمان الشريفتان ورأى ذلك الناس ..)

شهادة أمير الحج المغربي :

في سنة ١٢٢٦ حجّ الأمير المغربي ابراهيم نجل سلطان المغرب سليمان، في عدد كبير من المغاربة ، ولما عادوا سُئلوا عن سعود ، فقالوا :

« انهم ما رأوا من ذلك السلطان – يعني سعوداً – ما يخالف ما عرفوه من الشريعة ، وإنما شاهدوا منه ومن أتباعه ما به الاستقامة والقيام بشعائر الإسلام من صلاة وطهارة وصيام ونهي عن المنكر الحرام ، وتنقية الحرمين الشريفين من الآثام التي كانت تفعل بها جهاراً من غير نكير .

وذكروا ان حاله كحال أحد النـــاس لا يتميز عن غيره بزيّ ولا مركب ولا لباس .)

وقد اجتمع الأمير المغربي ، وكان معه القاضي أبو اسحاق ، بالإمام سعود ، فقال سعود : إن الناس يزعمون اننا نخالفون للسنة المحمدية ، فأي شيء رأيتمونا خالفنا من السنة ، وأي شيء سمعتموه عنا قبل اجتماعكم بنا ؟

فقال له القاضي: بلغنا أنكم تقولون بالاستواء الذاتي المستلزم التجسيم المستوى.

فقال لهم : معاذ الله ! إنما نقول كما قال مالك : « الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والسؤال عنه بدعة ! فهل في هذا مخالفة ؟

قالوا : لا ، وبمثل هذا نقول نحن أيضاً !

ثم قال له القاضي: وبلغنا عنكم أنكم تقولون بعدم حياة النبي ﷺ . وحياة اخوانه من الأنبياء ص . في قبورهم !

فلما سمع سعود ذكر النبي ﷺ ارتعد ، ورفع صوته بالصلاة عليه ، وقال : معاذ الله ! إنما نقول إنه ﷺ حي في قبره ، وكذا غيره من الأنبياء ، حياة فوق حياة الشهداء !

ثم قال له القاضي : وبلغنا أنكم تمنعون من زيارته ﷺ وسائر الأموات ، مع ثبوتها في الصحاح !

فقال : معاذ الله أن ننكر ما ثبت في شرعنا ، وهل منعنا كم أنتم لما عرفنا انكم تعرفون كيفيتها وآدابها ؟ وإنما نمنع منها العامة ، الذين يشركون العبودية بالألوهية ، ويطلبون من الأموات أن يقضوا لهم أغراضهم التي لا تقضيها إلا الربوبية)[1] .

(١) أنظر كتاب الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ، تأليف الشيخ أحمد الناصر السلاوي .

الغارات على أطراف الشام

مقدمات الغزو :

يقول الأمير أحمد الشهابي ، في تاريخه المسمى « الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان » : إن الحاج الشامي لقي عنتاً كبيراً عام ١٢١٩ وإن الوهابيين – وكانوا يومئذ محاصرين للمدينة المنورة – فرضوا على كل واحد من الحجاج الشاميين عشرة قروش ، ولم يستثنوا من هذه الضريبة أمير الحج نفسه ، ابراهيم باشا ، والي الشام .

وفي العام ١٢٢٠ تولى إمرة الحاج الشامي عبد الله باشا العظم ، والي الشام الجديد ، وأرسل السلطان العثماني مندوباً عنه برتبة باشا لمرافقة الحاج الشامي والسهر على أمنه .. وكان هذا المندوب (مولعاً في السكر حتى كانت العامة تسميه : « سكران باشا » ، لأنه كان يقضي أوقاته وأواني الشرب أمامه ، والسلاح موضوع قدامه ، فأيّ من غضب عليه ، قتله بين يديه .)

ثم خرج عبد الله باشا الى الحج ومعه (سكران باشا ، ساري عسكر ، وأزقة الخمر تصحبه ..) ، ولما وصل الحجاج الى مكة ، أذنوا لهم بالحج ، بعد أن أوجبوا عليهم دفع مبلغ من المال فدفعوه .

ويقول ابن بشر : إن الشريف غالب (أبقى في مكة عسكراً من الترك والمغاربة وغيرهم من الحجاج وادّعى أن باشا الحاج عبد الله العظم هو الذي رتّبهم بأمر الدولة) ، فأغضب ذلك سعود طبعاً ، فلما جاء عبد الله العظم ،

على رأس الحاج ، في العـــام التــالي ، ١٢٢١ هـ . ، منعه رجال سعود من الحج وطلبوا منه العودة الى بلاده فعاد ، ويفسر ابن بشر هـــذا المنع بقوله : (إن سعوداً خاف من غالب ، شريف مكة ، أن يحدث عليه حوادث ، بسبب دخول الحجاج الشاميين وأتباعهم مكة ..)

وقـــد بقي الشاميون ممنوعين من الحج حتى مجيء طوسون واستيلائه على الحرمين .

ومهما يكن الأمر ، فإن منع الشاميين من الحج لم يحمل والي الشام ، يوسف باشا الكنج ، على معاداة سعود أو محاربته ، وقـــد اختلفت الأقوال في تفسير موقف الكنج ، فمن المؤلفين من يقول إن هـــذا الوالي اعتنق الدعوة السلفية الوهابية سراً لاقتناعه بها ، ومنهم من يقول إنه كان مشتغلاً بجمع المال لنفسه فلم يشأ إنفاقه في تجهيز حملة ضد سعود .

غزو الشام :

في سنة ١٢٢٥ هـ . قام سعود بغارة على أطراف الشام .

ويصف لنا ابن بشر هذه الغزوة ، فيقول :

(سار سعود بالجنود المنصورة والخيل الجيـاد المسومة المشهورة ، واستنفر جميع النواحي من جميع الحاضر والبادي من وادي الدواسر الى مكة والمدينـة الى جبل طي والجوف وما بين ذلك ، نحو ثمانية آلاف ، خرج من الدرعية لثلاث خلون من ربيع الثاني ، وقصد نقرة الشام المعروفة ، لأنه بلغه الخبر أن بوادي الشام وعربانه من عنزة وبني صخر وغيرهم فيها ، فلمـا وصل تلك الناحية لم يجد فيها أحداً منهم ، وإذا قـــد سبقه النذير اليهم فاجتمعوا على دوخي بن سمير ، رئيس ولد علي ، من عنزة ، وهو من وراء الجبل المعروف بطويل الثلج ، قرب نابلس ، نازلين عين القهوة من جبال حوران ، ولما بلغ ابن سمير ومن معه إقبـال سعود اليهم انهزم بمن معه من البوادي ونزلوا الغور من حوران ، فسار سعود في تلك الناحية وأقبل فيها وأدبر ، واجتاز بالقرى التي حول «المزيريب» و«بصرى» ،

فنهبت الجموع ما وجدوا فيها من المتاع والطعام ، وأشعلوا فيها النيران ، وكان أهلها قد هربوا عنها لما سمعوا بمسيره .

ثم نزل « عين لبجه » ، وروي منهـا المسلمون وشربت خيلهم وجيوشهم ، ثم أقبل على قصر المزيريب ، فظهر عليهم منه خيل فحصل طراد ، فانهزمت الخيل الى القصر واحتصروا فيه ، فأراد المسلمون الحشدة على القصر ، ولا أحب سعود ذلك ، مضنة بالمسلمين لأجل احصانه .

ثم ترحّل ، ونزل بصرى وبات فيها ، ثم رجع قافلاً الى وطنه ، ومعه غنائم كثيرة من الخيل والمتاع والأثاث والطعام .

وقد قتل من أهل الشام عـــدة قتلى ، وحصل في الشام رجفة ورعب عظيم بهذه الغزوة ، في دمشق وغيرها من بلدانه وجميع بواديه .

ومن حين قفل سعود من الشام جاء العزل ليوسف ، باشا الشام ، وسار اليه سليمان ، صاحب عكا ، فأجلاه واحتوى على جميع أمواله ، وتولى في امارة الشام)[١] .

هل فكر سعود في الاستيلاء على الشام ؟

كان سعود راغباً في بسط سلطانه على الشام ، وقـــد مهّد لذلك باتصالات ومكاتبات مع الكنج وغيره ، ثم قام بغزوها ليخبر مناعتها ، فإن عجز عن اقتحامها أصاب منها غنائم مذكورة ونشر الرعب في أرجائها فلا يفكر حكامها بالمسير الى حربه ، مكتفين بالدفاع عن أنفسهم .

وقد عثرنا على رسائل كتبها سعود وأحد أمرائه — في غزو الشام — المسمى (عليان الضبيبي) الى والي الشام يوسف باشا الكنج ، وهي تثبت لنا اجتهاد

---

(١) يصحح فيلبي أقوال ابن بشر عن الجبل الذي تغطيه الثلوج زاعماً انه جبل الشيخ في الشام وليس جبل نابلس في فلسطين ، كما توهمه ابن بشر ، ان سعود رأى الثلج هناك لأول مرة في حياته .. والواقع ان الأماكن التي يذكر ابن بشر أسماءها في الشام تبدو غير دقيقة .. ولكن عدم دقتها أو عدم صحتها لا يعني أن الامام سعود وجنوده لم يدخلوا الى فلسطين والاردن ، قبل وصولهم الى أطراف دمشق وحوران ...

سعود في استمالة والي الشام اليه وحمله على الدخول في الدعوة السلفية الوهابية ، وقد طلب عليان الضبيبي من والي الشام أن يرسل علماء من الشام لمناظرة علماء من نجد وحدَّد مكاناً للقائهم بلدة « الكرك » في الاردن ، ووعده ومنَّاه بهذه الكلمات : (.. فان كنت قاصداً الانتفاع عند الله ثم عند سعود .. دائرتك مملكة لك ، ولوازمها بحقيقة الله لك ..) .

ويقول الأب لويس شيخو ، في بحث له في مجلة المشرق عام ١٩٢٠ م. ان الوهابيين ساروا (الى دمشق وأرادوا احتلالها ، لولا أن يوسف باشا ، والي الشام ، أرضاهم بمال أداه لهم ، فاكتفوا بوضع يدهم على أرباض المدينة وعلى غلات الغوطة المتوافرة) .

ويقول الأمير أحمد الشهابي ان جموع الوهابيين التي هاجمت قرى حوران في الشام أحدثت من الأضرار وأخذت من الغلال ما قدّر بثلاثة ملايين درهم. ولعل في هذا التقدير مبالغة .

وجاء في بحث نشرته مجلة « لزنال ده فوياج » عام ١٨١٠ م. ان الوهابيين اقتربوا عام ١٨٠٨ م. من دمشق وطلبوا من سكانها الدخول في دعوتهم وهددوهم – ان لم يفعلوا – بالحرب ، وان يوسف باشا ، والي الشام ، فوجىء بمجيء الوهابيين ولم يكن قادراً على صدّهم لضيق الوقت ، فلجأ الى الحيلة ووعد باعتناق الدعوة وأصدر بيانات توهم بذلك ودعا قومه الى الذهاب الى الحج من غير محمل ولا طبول ، الى غير ذلك مما يرضي الوهابيين ، فسكت الوهابيون عنه ، واستطاع بهذه الوسيلة أن يتم استعداداته للدفاع عن دمشق .

وتقول ليدي بلنت ، في كتابها « الحج إلى نجد » : ان فرقة قوية يقودها أبو نقطة اقتربت من دمشق واجتهدت في الاستيلاء عليها ، ولكن عشائر الرولا ، الذين يقودهم « دريعي بن شعلان » وحلفاؤه أنقذوا دمشق وردوا عنها المهاجمين واضطروهم إلى الإنسحاب نهائياً من البلاد الشامية .

ويقول الأمير أحمد الشهابي ان الكنج يوسف باشا ، والي الشام ، خرج بعساكره إلى « المزيريب » لملاقاة الوهابيين ، وطلب من سليمان باشا والي عكا

مساعدته ، وان سليمان باشا استنجد هو أيضاً بالأمير الشهابي، أمير جبل لبنان، فجمع هــذا الأمير خمسة عشر ألف مقاتل ولكن سرعة انسحاب الوهابيين إلى أوطانهم أغنت عن القتال .

ولما علم السلطان العثماني بتثاقل يوسف باشا عن محاربة الوهابيين كتب إلى سليمان باشا انه عينه والياً على الشام، إضافة إلى ولايته على عكا ، وأمره باعتقال يوسف باشا لخيانته وتخاذله .

حاول يوسف باشا التمرد على أمر السلطان ، ولكنه لم يستطع المقاومة طويلاً ،فهرب والتجأ إلى محمد علي في مصر ،وكانت بينهما مكاتبات سابقة ومودة.

ومن المفارقات العجيبة ان سليمان باشا وجد في مكتب يوسف باشا الرسالة التي بعثها اليه سعود ، فتولى هو الإجابة عنها ، وكان رده عليها عنيفاً .

غزو الزبارة والبحرين

كان آل خليفة حكاماً على البحرين والزبارة ، وفي سنة ١٢١٥ هـ . استولى سلطان بن أحمد ، حاكم مسقط ، على البحرين دون قتـــال وأخذ الشيخ محمد — شقيق حاكم البحرين والزبارة الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة — إلى مسقط رهينة .

وفي سنة ١٢٢٥ هـ . توفي الشيخ محمد ، فما عاد آل خليفة يخشون انتقام حاكم مسقط منه ، فاستنجدوا بالإمام سعود وقاتلوا المسقطيين وأجلوهم عن البحرين. ويقول بعض المؤرخين : إن إجلاء سعود لجيش مسقط عن البحرين هو السبب الأول للخصومة بين حكام مسقط وحكام السعودية .

ويزعم النبهاني إن الإمام سعود أمر عامــله ابن عفيصان أن يمنع آل خليفة من الإستيلاء على الحكم والسلطة في البحرين ، فعــاد آل خليفة إلى الزبارة وأصبح ابن عفيصان أميراً على البحرين ، ومقر إقامته في « قلعة الديوان » .

ويقول ابن بشر ، في أخبار سنتي ١٢٢٤ و ١٢٢٥ هـ . إن الإمام سعود بلغته مخالفات وقعت من آل خليفة وخاف أن يقع أكبر منها فأرسل اليهم أحد عماله وأجبرهم على المجيء إلى الدرعية ،فلما وصلوها (قرأ عليهم سعود ما حدث منهم ثم اعتقل رؤساءهم ، وردّ أبناءهم وبقية الرعية إلى بلادهم ، وكان سعود لمــا قبض عليهم أخذ جميع خيلهم ونجائبهم وغير ذلك من الشوكة التي لهم في البحرين

والزبارة ، ثم أمر فهد بن عفيصان أن يعبر إلى البحرين ضابطاً له وجعله بيت مال) .

ما هي المخالفات التي صدرت عن آل خليفة فأثارت غضب الإمام سعود ؟

لم يوضح لنا ذلك ابن بشر ، ولكن مؤلف اللمع يزعم إن الإمام سعود قال لمشايخ آل خليفة :

– أريد أن أرسل بعض العلماء إلى جزيرة البحرين ، يعلّمون الناس الدين ويفهمونهم كيفية السلوك فيه ، ولا بدّ من ذلك .

قالوا : نحن نعلمهم ، إذ عندنا من هو ماهر في الدين !

قال : لا بدّ من إرسال علماء من نجد ، فإنهم أثبت منكم في معالم التوحيد !

فرضوا بذلك .

وجاء علماء من نجد إلى البحرين ، فرأوا أن آل خليفة يظلمون أهل البحرين وهم من العتوب ، فشجعوا الأهالي على إرسال مندوبين عنهم إلى الدرعية يشكون ويتظلمون ، فلما استمع سعود إلى شكاواهم أحبّ أن ينصفهم فنزع عنهم أيدي آل خليفة .

استعادة البحرين :

كان غرض سعود من استبقاء كبار آل خليفة رهائن عنده في الدرعية أن يمنع أقرباءهم وأنصارهم في البحرين من الفتنة والتمرد ، ولكن الأبناء والأقرباء لم يكترثوا لما قد يحل بآبائهم وعمومتهم الذين في الدرعية ، فهربوا بنسائهم وأموالهم من الزبارة والتجأوا إلى صاحب مسقط – عدوهم السابق – وطلبوا منه النصرة. فأمدّهم بمراكب كثيرة فجاؤوا إلى الزبارة ليلاً وأخرجوا منها (بقية رجالهم ، وما فيها من المتاع والمال .. ثم ساروا إلى البحرين ، ونازلوا فهد بن عفيصان والمرابطة الذين في قصر المنامة ، وهم نحو ثلاثمائة رجل ، فحصروهم .. أياماً ، ثم أخرجوهم بالأمان على دمائهم ، فأمسكوا منهم فهد بن عفيصان وأمسكوا معه ستة عشر رجلاً ، واعتقلوهم رهينة في رجالهم الذين في الدرعية ، وتركوا الباقين) .

ولما بلغ ذلك سعود دعـا اليه كبار آل خليفة الذين عنده فالتمسوا منه أن يطلق سراحهم ليذهبوا الى البحرين ويقنعوا أبنـاءهم بالسمع والطاعة لسعود ، ففعل (وارتحلوا من الدرعية ، وبعث معهم سعود شوكة من الجيش ، فلما وصلوا الى ناحيتهم طلبوا من بنيهم الموافقة على مـا بايعوا عليه سعود ، فأبوا عليهم ، فرجعوا الى الدرعية ، وأقـاموا فيها حتى رجع سعود من الحج) ، وكان ذلك سنة ١٢٢٦ هـ . ، فأذن سعود لآل خليفة بالرجوع الى بلادهم .

وقابل آل خليفة صنيع سعود بمثله ، فأطلقوا الرهائن المحتجزين في البحرين ، وعلى رأسهم ابن عفيصان .

رواية النبهاني :

يقول النبهاني إن آل خليفة أرسلوا سراً الى ابن أختهم الشيخ عبـد الرحمن آل راشد أن (يحتال في أخذ البحرين ، فاستنجد بأمير مسقط ثم بحاكم فارس « جبارة » وجَنَّد بمساعدتها المالية وغيرها جنداً .. ثم أخبر آل خليفـة الذين في الزبارة بما فعله . . فخرجوا واجتمعت جموعها وحاربوا ابن عفيصان وأخرجوه هو وقومه من البحرين ، فسار ابن عفيصان الى قطر ، ونزل عند رحمة بن جابر الجلاهمة ، في موضع يقال له الحُوير .)

ولما بلغ سعود بن عبد العزيز ما كان .. تذاكر مع آل خليفة المعتقلين عنده الأمر ، فذهب بعضهم الى البحرين فلما وصلوها أظهر الشيخ عبد الرحمن ، بإشارة من آل خليفة ، الجفاء والغضب ، فقال له رجال سعود : كيف يتجرأ العيال على أخذ البحرين وآباؤهم في قبضة الإمام ؟

فقال لهم : دونكم والعيال ..

فقال شبان آل خليفة : إنهم أخذوا البحرين لأنفسهم ، ولا حـاجة لهم بآبائهم وعمومتهم ..

فغضب رجال سعود وقـالوا : لو يمكن للخف والحافر أن يطأ البحرين لنثرناها حصاة حصاة .

فقال الشيخ عبد الرحمن : لو يمكن لغبيت الجابري – أي سفنه – أن تطلّ على الدرعية لجملنا عاليها سافلها ولَما تركنا سعود ينام بها ليلة سوداء ..

فلما رجع رجال سعود وأخبروا الإمام بما جرى أيس من البحرين ، وأطلق سراح آل خليفة المعتقلين عنده .

بين آل خليفة ورحمة :

صمّم آل خليفة على الثأر لأنفسهم من ابن عفيصان ومن رحمة بن جابر الذي ساعده عليهم ، فذهبوا الى الحُوير حيث يقيمان ..

رأى رحمة قوة سفن آل خليفة ، فنصح لابن عفيصان بعدم مهاجمتها ، فظنّ ابن عفيصان به الخوف ، فأمر رجلاً من بني قومه بأن يتحرش للحرب بهذا الشعر النبطي :

(لا خير في رجل يجرُّ جريرة وإذا تضايق دربها خلاّها)

فغضب رحمة .. وذهب بسفنه للقتال .. وانكسر في المعركة البحرية .. وأُصيب بجراحات في يده اليمنى .. [1]

وقد تحدث ابن بشر عن المعركة بين آل خليفة وبين ابن عفيصان ورحمة ، في أخبار سنة ١٢٢٦ هـ. فقال ان مقتلة عظيمة في البحر وقعت بين عشائر آل خليفة وبين طوارف المسلمين الذين في ناحيتهم ، وهم : (رحمة بن جابر بن عذبي ، أمير خوير حسان المعروف ، وأبا حسين ، أمير الحويلة – البلدة المعروفة في قطر – وابراهيم بن عفيصان ، أمير شوكة المرابطة من أهل نجد وغيرهم .

---

(١) يقول النبهاني إن رحمة ازداد غيظاً واشتعلت نار الحسد والبغضاء في نفسه على آل خليفة ، فصمم على قطع طرق البحرين بالنهب والقتل ، من الباعة والتجار .. ولما أخفق في عمله توجه الى إمام مسقط وأغراه بأخذ البحرين ..

وهكذا جرت – عام ١٢٣٠ هـ. – معركة بين مسقط والبحرين انكسر فيها إمام مسقط السيد سعيد .

ثم أعادت مسقط الحرب ، فتم بينها وبين البحرين صلح ، يدفع البحرانيون بموجبه مبلغاً من المال سنوياً الى إمام مسقط .

وذلك أن هؤلاء سار بعضهم على بعض في السفن ، فوقعت الملاقاة في البحر قرب البحرين ، وذلك في شهر ربيع الأول ، فوقع قتـال شديد وكثرت القتلى بين الفريقين ، ثم اشتعلت النار في السفن وجبخانها ، ومات بينهم خلق كثير قتلاً وحرقاً وغرقاً، فاحترقت السفن بما فيها، واحترق لابن جابر و (أبا حسين) ومن معهم من المسلمين سبعة مراكب ، واحترق لآل خليفة نحو ذلك .

وقتل من أهل البحرين وأتباعهم أكثر من ألف رجل ، منهم دعيج صاحب الكويت ، وكان من أعوان أهل البحرين ، وقتل راشد بن عبد الله بن خليفة وغيرهم من الأعيـــان ، وقيل ان الذي هلك من البحرين وأتباعهم ألف وأربعمائة رجل .

وقتل من المسلمين نحو مائتي رجل ، منهم (أبا احسين) أمير الحويلة [1] .

---

(١) يقول النبهاني ان رحمة لم يتعظ وظل مصمماً على الثأر .. وفي سنة ١٢٤٢ هـ. دخل القطيف بسفينة له تسمى (غطروشة) ، وقد وقعت معركة بينه وبين سفن آل خليفة وكان رحمة قد كف بصره في آخر عمره ، فجعل يسأل قومه عن السفن الهاجمة عليه وعن رئيسها فيخبرونه ، حتى لاصقته سفينة الشيخ أحمد بن سلمان ، فتجالد الفريقان بالسيوف واشتد بينهم الضرب والطعان ، وكان بجانب رحمة ابن له صغير ، وعبده المسمى « طرار » واقف على رأسه ، حتى وصل أعداؤه الى الصاري ثم الى الحاشية ثم الى سطح مؤخر السفينة ، وكان حينئذ جالساً في خزانة السفينة ، فأخذ ابنه وجعله في حجره ، ثم عمد الى نار في رأس النارجيلة التي كان يشرب منها الدخان فألقاها في ذخيرة البارود التي كانت تحته ، فانفجرت السفينة بهم ، وقتل هو وابنه ومن معها ، متأسياً بقول الزباء : بيدي لا بيد عمرو .

وتسمى هذه الوقعة : ذبحة الجلاهمة .

معارك عُمان

يقول موسيل ، في كتابه (نجد الشمالية) ، ان السيد سلطان ، صاحب مسقط رحل الى البصرة في العـــام ١٨٠٣ م. ليعقد حلفاً مع الأتراك ضد الإمام سعود .

وقد جرت المفاوضات بينه وبين والي بغداد ، بوصفه ممثلاً للسلطان العثماني ، وانتهت الى اتفاق يعترف فيه حاكم مسقط بسيادة الحكومة التركية على ممتلكاته في الجزيرة العربية وفارس وشرقي افريقيا ، ولقاء ذلك تتعهد الحكومة التركية بأن تحمي الإمام من أعدائه وتمدّه بالمساعدات القوية .

لم يكن هذا الاتفاق ملائماً لمصالح بريطانيا العظمى ، التي كانت ساهرة ناشطة في الخليج الفارسي . . فلما عاد الإمام الى بلاده اعترضه القرصان في طريق عودته وقتلوه [١] .

وكان والي العراق قد جهّز ، بأمر من السلطان العثماني ، فرقة لمحاربة الإمام سعود ، انتصاراً لإمام مسقط وتنفيذاً لنصوص الاتفاق المعقود معه ، ولكن الوالي حين علم بمصرع سلطان من جهـــة وبوصول قوة وهابية الى أطراف العراق أمر الفرقة التي كانت في طريقها الى نجد ، بالعودة فوراً الى بغداد .

---

(١) يقول ابن بشر ان القواسم ، سكان رأس الخيمة ، هم الذين قتلوا سلطان بن أحمد ، في البحر .

ويقول كورانسيز ان والي بغداد لم يحقق لإمام مسقط شيئاً من رغباته ولم يعطه شيئاً من المال يعوضه عما أنفقه في تجهيز حملة ضد الوهابيين ، فاضطر إمام مسقط الى بيع مراكبه الى تجار البصرة ، ولم يستبق منها إلا مركباً صغيراً عاد به الى بلاده ، فهاجمه القراصنة وقتلوه .

أما « موريتزي » ، الايطالي ، الذي انتحل اسم الشيخ منصور وألـّف كتاباً عن سيد سعيد ، إمام مسقط ، فيقول إن سلطان كان يحمي البحر ، خلال محاصرة البصرة ، ويستبقيه مفتوحاً لكل مدد ، وبذلك أرضى حاكم بغداد فأمر له بمبلغ من المال يدفع اليه كل سنة ، اعترافاً بفضله .

سيد بدر :

بعد مصرع الإمام سلطان ، تولى السلطة ابن أخيه السيد بدر ، ويبدو أن أولاد سلطان لم يعترفوا به ، وقد اتبع بدر سياسة موالية للدرعية ، ويزعم « موريتزي » أن (بدر) قاد حملة ضد (البريمي) فلم يستطع مجابهة الوهابيين ، فصالحهم وعقد معهم معاهدة تتضمن ما يأتي :

١ -- يبقى بدر حاكماً لمسقط ويدفع الى الدرعية كل سنة ٥٠٠٠٠ ريال .

٢ -- يحتل ٤٠٠ وهابي ضواحي « بركة » لمنع العبث بالمعاهدة .

٣ -- يخضع بدر لأوامر سعود ويقدم اليه المعونة التي يطلبها منه .

٤ -- يقيم مندوب عن سعود في مسقط لمراقبة السكان ، من حيث قيامهم بالفرائض الدينية .

وكانت هذه المعاهدة مخزية لمسقط ولبدر ، ولكنها ضمنت لبدر حماية العاهل الوهابي .

ويقال ان بدر هو الذي طلب احتلال الوهابيين لبركة ، وذلك لحمايته من منافسيه .

وكان عند امراء مسقط حرس من السند مخلصون ، ولكن بدر لم يكن مطمئناً الى ولائهم فأحب أن يسرحهم ويحتمي بالوهابيين الأربعمائة الذين كان يرغب في إسكانهم بركة .

ذهب بدر الى بركة ، وكان سعيد ، ابن عمه ، المطالب بالإمامة ، هناك ، فطعنه بخنجر ، ولكن بدر استطاع الإفلات منه وألقى بنفسه من نافذة الدار وامتطى جواده وهرب ، غير أن سعيد لحق به وأدركه وقتله .

وكان مقتله عام ١٢١٩ هـ. (لا سنة ١٢٢٠ كما جاء في تاريخ ابن بشر) .

ويزعم مؤلف اللمع ان بدر أرسل إلى سعود تحفاً وهدايا كثيرة ، وعاهده على الدين والسمع والطاعة ، وطلب منه أن يوليه كل عُمان ، وان سعود قبل عرضه وعفا عما سلف من اساءته .

ويتعجب مؤلف اللمع من عمل بـدر لأنه (لم يُرَ من غيره من الخوارج — الإباضية — متابعة دين غير دين آبائهم باعتقاد صدق) ثم يقول :

(فحين سمع قيس بإطاعة بدر ، ابن أخيه ، لسعود ، وانه ادخل قضاة نجد في مسقط ، وأجرى حكمهم على أهل عمان ، أخذته الغيرة وهمّ بمدافعة بدر).

وفي اللمع أيضاً أن بدر عرف مقاصد قيس في محاربتـه فكتب إلى مطلق المطيري في البريمي وإلى شيخ القواسم ان يستعدوا لقتال قيس معه ..

السيد سعيد :

بعد مقتل بدر ، أعلن سعيد نفسه سلطاناً على مسقط ، وكان عمره ٢٦ سنة.

وقد جاء في كتاب « عرض البريمي ما يأتي :

(كانت الحالة حسنة بين عمان والسعوديين في زمن حكم بدر بن سيف آل بو سعيد .

وفي سنة ١٢٢١ هـ . اغتيل بدر ، وانسحبت القوات السعودية المتمركزة في الباطنة الى قاعدتها في البريمي .)

ويقول موريتزى ان السيد سعيد كان لطيفاً ومُحبّاً للعدل ، وانه بنى لنفسه قصراً على الطريقة الأوروبية ، واتخذ كنيسة قديمة ، كان بنـاها البرتغاليون ، مقراً للقضاء ، وكان عدد سكان مسقط في زمانه يقدّر بستين ألفاً .

ويقول رنتز في كتيب « عمان » ان سعيد بن سلطان لم يطلق على نفسه لقب الإمام ، واكتفى بلقب (السيد) ، الذي تلقب به كثير من أمراء مسقط بعده ،

ولا يعني ذلك ان أمراء مسقط متحدرون من سلالة الرسول ﷺ ، وإنما هو لقب اختاره بدلاً من الإمامة .. التي كان يتلقب بها حكام مسقط ، وكان بعض حكام مسقط يبالغ في استعمال الألقاب والنعوت ، فعمّ السيد سعيد ، سعيد بن أحمد ، كان يبدأ كتبه هكذا: (من المتوكل على الله سبحانه إمام المسلمين سعيد.. البوسعيدي العربي الأزدي العماني ..) ويختمها بهذه العبـــارة : (الواثق بالله الصمد ، إمام المسلمين سعيد بن أحمد) ..

والسيد سعيد حكم مسقط أكثر من خمسين عاماً وُيعدّ أعظم حكامها .

البريمي سعودية :

ينكر الانكليز ان البريمي سعودية ، ولكن موريتزى ، الذي نشر كتابه باللغة الانكليزية في لندن خلال ولاية سعيد بن سلطان ، يقول ما يأتي :

(إن حدود هـذه البلاد – أي مسقط – باتجاه الشمال الغربي تنتهي قرب بلدة البريمي ، التي تقع على ُبعد أربعة أيام تقريباً أو مائة ميل من البحر .

إن هذا المكان ُملك للوهابي ، وعلى مقربة منه تبتدىء صحراء تمتـد حتى الدرعية ، عاصمتهم) .

وهذا هو النص الانكليزي :

(The frontiers of this country towards the north - west terminate near the city of Bremi, which is situated about four days journey or near 100 miles from the sea. The place belongs to the wahabi and near it commences a desert which extends to Dereia, their capital .) .

عمان تدخل في طاعة سعود :

يقول ابن بشر ان سعود أرسل عام ١٢٢٣ هـ . سرية قليـلة من رجال الدين الى عمان لتعليم أهلها فرائض الدين والاطلاع على أحوالهم .. فلمـــا وصلوا .. وجدوا سعيد بن سلطان رئيس مسقط وقيس بن أحمد رئيس صحار وباطنة عمان

ومعها عشرة آلاف مقاتل او أكثر في حالة قتال مع رجال سلطان بن صقر بن راشد صاحب رأس الخيمة – ورأس عمان يومئذ من جهة سعود – .

وقـد جمع ابن صقر ، في قول ابن بشر ، ثلاثة آلاف مقاتل من قومه ومن رجال عمان المؤيدين له ، (والتقى الجمعان عند خور [١] ، المكان المعروف في عمان بين الباطنة ورأس الخيمة ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، فانهزم جمع قيس هزيمة شنيعة وقتل قيس المذكور ، وهلك من قومه خلق كثير بين القتل والغرق في البحر ، قيل ان الذي هلك قريب أربعة آلاف مقاتل .

ثم بعد هـــذه الوقعة أرسل ابن قيس إلى سعود وسلطان بن صقر وطلب المبايعة على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ، وبايع على ذلك وبذل مالا كثيراً وشوكة من الحرب .

وأرسل ابن أخيــه سعيد بن سلطان إلى سعود وبذل مالا كثيراً وبايع على السمع والطاعة .

وصار جميع عمان تحت ولاية سعود .

وجمع سلطان بن صقر الغنائم من هذه الوقعة وأخذ خمسها ودفعها إلى عمال سعود وأرسلوه إلى الدرعية) .

لم يشر ابن بشر إلى اشتراك القوات السعودية التي كانت متجمعة في البريمي في هذا القتال ، ولكن عرض البريمي ذكر ذلك ، وهو الصحيح .

---

(١) جاء موضع المعركة في ابن بشر هكذا : (خور .. المكان المعروف) وخور معناه الخليج وليس من أسماء البلدان أو المواقع .. وإنما هو خور (فكان) وهو اليوم من أعمال « الشارقة » ، ولعل الاسم، كما ورد في ابن بشر ، مجرد خطأ مطبعي، ولكنه تكرر في الطبعات المحققة .. فينبغي الانتباه إلى ذلك . وكذلك يجب الانتباه إلى كلمة « سحار » أو « صحار » التي جاءت في ابن بشر « محار » خطأ .. في قوله : إن قيس بن أحمد كان رئيس « محار » .. وفي تلك الأيام كانت عمان مقسمة بين حاكم مسقط وحاكم سحار (أو صحار) ..

ويقول مؤلف اللمع ان المعركة دارت في (خور فكان) بين جنود قيس وسعيد من جهة ، وبين جنود المطيري – القادمة من البريمي – ورجال القواسم الذين يتزعمهم ابن صقر ، من جهة ثانية ، فقتل قيس وانكسر عسكره ورجع سعيد إلى سفنه في البحر ، ويقدر قتلى قيس وسعيد بألف رجل أو أكثر ..

وسار المطيري بعد ذلك إلى (مطرح) ، فدخلها ، وسار القواسم إلى سحار فعجزوا عنها لأنها كانت محصنة تحصيناً قوياً منذ زمن البرتغاليين ، وقد خلف قيساً ابنه عزّان بن قيس على سحار .. (واستمرت حكومة سعود بتلك الأطراف .. تزيد يوماً فيوماً حتى طاعت بلاد الحجر .. وغيرها .. إن سعيد أدّى ذلك الزمان شيئاً من الدراهم طاعة لسعود ، قيل انه دفع له كل سنة مائة ألف ريال ، لكن ذلك سنة خاصة .) .

الانكليز يدمرون رأس الخيمة وسفنها :

في سنة ١٢٢٤ هـ . (أكتوبر عام ١٨٠٩ م .) ، كما يقول بريدجس ، أرسلت حكومة بومباي ، بعد أن أسر القواسم سفينة « مينرفا » التجارية البريطانية ، حملة عسكرية بحرية يقودها الكولونيل سميث والكابتن وينرايت فهاجمت رأس الخيمة وحصنها ودمرت جميع المراكب والمستودعات ودخلت البلدة ونهبتها وقتلت حوالي ثمانين رجلاً ، غير الذين قتلوا أثناء قذف البلدة بالنيران من السفن الحربية . ولم يفقد الانكليز سوى رجلين ..

وجاء في «حوليات الاسفار» أن الحملة البريطانية كانت تتألف من ثماني عشرة سفينة حربية ، وقد انضم اليها عدد من مراكب إمام مسقط ، وان عدد الداوات (أي السفن الصغيرة) التي خسرها القواسم في هذه المعركة الهائلة قد بلغ ١٢٠ غرقت مع ملاحيها ، وبلغ عدد قتلى القواسم ثلاثة آلاف وعدد أسراهم ألفاً . (وهذا العدد مبالغ فيه جداً) .

ويقول كورانسيز إن بعض الداوات كان يحمل حوالي ٤٠٠ بحّار وكان مسلّحاً بستة مدافع او أكثر – وهذه المدافع كان القواسم غنموها من السفن

الانكليزية التي دأبوا على مهاجمتها – وقد أغرق بعض القواسم داواتهم عمداً ، حتى لا تقع في أيدي أعدائهم .

ويقول مؤلف لمع الشهاب إن الحملة الانكليزية المؤلفة من عشرة مراكب ، عليها ألف وخمسمائة عسكري ، وصلت إلى مسقط في شهر رجب من عام ١٢٢٣ هـ . ففرح بها سعيد بن سلطان وأرسل معها عدداً من سفنه ورجاله ، وفي شهر شوال وصلت الحملة الى رأس الخيمة ، ورمت البلدة بالنيران فهرب أكثر السكان إلى النخيل وبقي بعضهم في بيوتهم يقاومون الغزاة ولكنهم قتلوا او استسلموا ، وقد أخذ الانكليز ما وجدوه في البلدة من النقود وغيرها ودمّروا كل السفن وأحرقوا ودمّروا أكثر بيوت رأس الخيمة ، وبعد أن فرغت الحملة من رأس الخيمة سارت عنها في نفس النهار الى « الشارقة » ، وكانت تابعة لرأس الخيمة ، فاستسلم أهلها دون قتال ولكن الانكليز أحرقوا لهم كل سفنهم ، ثم اتجهت الحملة الى جزيرة الحمراء فأحرقت سفنها أيضاً ، وسارت بعد ذلك الى الطرف الثاني من الخليج الفارسي ، حيث توجد بلدتان تابعتان لرأس الخيمة ، وهما « لنجة » و « مقوة » ، فأحرقت كل ما كان فيهما من السفن .

رواية ابن بشر :

يقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢٢٤ هـ . :

(وفيها أقبلت مراكب الانكليز النصارى الى مستنجدهم سعيد بن سلطان ، صاحب مسقط ، المعروفة في عمان ، بعد نقض العهد ، وقصدوا أهل بلد رأس الخيمة ، المعروفة في عمان ، ورئيسها يومئذ سلطان بن صقر بن راشد ، أمير القواسم ، وبندروا فيها وحاربوا أهلها فلم يحصلوا على طائل ، فرفعوا على البلد بلوراً وجعلوه في عين الشمس وقابلوا به البلد فاشتعلت النار فيها ، وكان أكثر بيوتها من عسفان النخل ، فدخلوا البلد واستباحوا ونهبوا ما فيها وأشعلوا فيها النيران ودمّروها ، وهرب سلطان بن صقر وغالب أهل البلد ، حتى فرغ العدو منها وانتقل عنها ، فرجعوا الى بلادهم فعمروها وحصّنوها .)

ويؤخذ على ابن بشر قوله إن الانكليز إنما قدموا لنجدة إمام مسقط ، الذي

كان قد نقض عهده مع سعود ، والحقيقة أنهم إنما أتوا لينتقموا لمراكبهم التي أغرقها القواسم ويمنعوهم من التعرض للمراكب الانكليزية في البحر ، وأما قوله إن الانكليز عجزوا عن البلد فأحرقوها ببلور جعلوه في عين الشمس فقصة خيالية ..

ومما لا شك فيه أن إمام مسقط أراد الإفادة من وصول الحملة البريطانية في تحقيق بعض مقاصده العدوانية ، فانضم عدد من سفنه ورجاله إلى الحملة ليشاركوها في المغانم ويستولوا على البلدان التي تجلو عنها الحملة بعد تدميرها أو إضعافها ..

الوهابيون يقاتلون المتمردين :

لما بلغ الإمام سعود انضمام سعيد بن سلطان إلى الانكليز في الهجوم على رأس الخيمة وحلفائها ونقضه للعهد ومجاهرته بالعداء ، أرسل رجالاً من نجد وأمرهم بالقتال تحت لواء مطلق المطيري فذهبوا إلى البريمي ومن هناك سار بهم مطلق ، مع من اجتمع عليه من مقاتلة عمان الموالين ، لقتال عزان بن قيس ، رئيس أهل الباطنة – صحار ونواحيها – وسعيد بن سلطان ، صاحب مسقط ، ويقول ابن بشر إن القتال بين الفريقين استمر حتى عام ١٢٢٥ هـ . وفي هذا العام استولى مطلق ورجاله على (قرى كثيرة من نواحي صحار من أهل الباطنة ، وبايع غالبهم على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ، ولم يبقَ محارب ، إلا مسقط ونواحيها مملكة سعيد ، وما تحت ولاية عزان من صحار) [١] .

سعيد يستنجد بالانكليز فيرفضون :

في (عرض البريمي) إن جيش مطلق المطيري بلغ ثلاثين ألفاً ، وقد اجتاز الباطنة وحاصر مسقط ثم عاد إلى قاعدته في البريمي ، ويبدو ان سلطان مسقط استشعر العجز عن المقاومة فأرسل إلى الانكليز يطلب مساعدتهم ، فلم يفعلوا ، وذلك لأن الحكومة البريطانية كانت اتصلت بالإمام سعود واحتجت على مهاجمة

---

(١) ابن بشر .

سفنها ، وكان أمن هذه السفن هو الأمر الذي يهمها ولم يكن لهـا أي مصلحة في معاداة سعود أو محاربته متى تحقق لها هذا الغرض ، فكتب سعود إلى الحكومة البريطانية رسالة قال فيها انه منع المسلمين من مهاجمة السفن البريطانية وان أي تاجر يأتي من جهتها إلى موانىء المسلمين سوف يكون آمناً ، وانه هو لن يقترب من الشواطىء الخاضعة للحكومة البريطانية ، وكان ذلك أقصى مـا يطمع به البريطانيون [١] .

ويقول صاحب اللمع ان سعيد بن سلطان لما رأى مطلق المطيري يدنو من مسقط خرج من بركة وسار إلى مسقط على طريق البحر ووصلها قبل مطلق ودافع عنها فاكتفى مطلق بالاستيلاء على البيوت القـائمة خارج سور البلد وأخذ ما فيها ، وجاءت ثلاثون سفينة للقواسم إلى مسقط فلم تستطع دخولها لأن سفن أهل مسقط وبروج مسقط قاومتها وردّتها ، وقـد أمدّ أهل البحرين مسقط بالمساعدات ، واضطر المطيري والقواسم إلى الانسحاب .

---

(١) في (عرض البريمي) ما خلاصته : إن الحكومة البريطانية كتبت رسالة الى الإمام سعود حول الموقف السائد في الجزء الجنوبي للخليج الفـارسي .. فرد الامام سعود موضحاً أهداف السعوديين الذين أكرهوا على الاشتراك في الأعمال الحربية ، ومبيناً للانكليز ان إحراقهم بعض السفن في رأس الخيمة لا يعني نصراً حاسماً لهم يوجب الزهو .. وانه على كل حال منع أتباعه من مهاجمة السفن البريطانية .. وقد أدى هـذا الجواب الى وقوف الانكليز موقفاً فاتراً من طلبات حاكم مسقط التي ترمي إلى مساعدته ضد السعوديين .)

وهذه قطعة من رد سعود على كتابة الانكليز ، مقتبسة من « رحلة في فارس » لجيمس موريس:

(.. إن سبب الخصومات بيني وبين من يسمون أنفسهم مسلمين .. هو انحرافهم عن كتاب الخالق ورفضهم الامتثال لنبيهم محمد ، فلست إذن أشن حرباً على فرقة اخرى ولست أتدخل في عملياتهم العادية ولست أساعدهم ضد أحد ، فما دمت تحت سلطة العلي القدير فقـد سموت على جميع أعدائي . وفي هذه الظروف رأيت من الضروري أن أبلغكم انني لن أدنو من شواطئكم وانني منعت أتباع عقيدة محمد وسفنهم من أن يقوموا بأي تنكيل بسفنكم ، فإذا ما ظهر أحد من تجاركم في موانئي أو رغب في المجيء اليها فسيكون آمناً .. فلا يزدهيكم إذن احتراق عـدد من السفن لأنه ليس لها قيمة في رأيي ولا في رأي أصحابها وأهل بلادها، والحقيقة هي ان الحرب مضرة ولا يخوضها إلا أحمق ، كما قال الشاعر .)

هزيمة سعيد وحلفائه الفرس :

لما يئس سعيد من الانكليز اتجـه الى الفرس ، فأمدوه ، كما يقول ابن بشر ، بنحو ثلاثة آلاف مقـاتل و (في آخر شهر ذي الحجة من عـام ١٢٢٥ جمـع سعيد بن سلطان جموعاً وعساكر كثيرة – وانضم اليه الثلاثـة آلاف عجمي – وساروا الى عمان ، وعاثوا فيما يليهم من رعايا المسلمين، واستولوا على بلاد الجبري (سمايل) ، وهرب الجبري منها ، فسار مطلق المطيري بشوكة المسلمين الذين معه في عمان من أهل عمان ونجد وغيرهم ، فجمع الله بينهم وبين عساكر صاحب مسقط وتنازلوا واقتتلوا قتـالاً شديداً ، فانهزم جنود صاحب مسقط وركب المسلمون أكتافهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأخـذوا خيامهم ومحطتهم وغالب متاعهم ومدافعهم ، وهي أكثر من عشرة مدافع ، ورجع بقيتهم الى مسقط وسمايل ، وأخذ المسلمون منهم غنائم عظيمة ، وقبض الأخماس عمـال سعود وبعثوا بها الى الدرعية) .

رواية العرض :

وجاء في « عرض البريمي » ما يأتي :

(تحول حاكم مسقط الى الفرس ، بعـد الانكليز فزودوه بعدد من الجند ، ترافقهم مدفعية خفيفة قوامها رجال من الروس الفارين ، ولمواجهة هذا التحدي جمع مطلق المطيري قبائل نعيم والظواهر وبني قتب والجنبة والدروع .. وتغلب السعوديون على جيش مسقط وحلفائه الفرس ، ثم شتتوا قواهم تشتيتاً كاملاً .

وحاول سعيد بن سلطان لن يلقي اللوم في هذه الهزيمة على حلفائه الفرس ، فقال وكيله لحاكم بونباي ان الفرس داروا بخيولهم وتقهقروا دون قتال .

وبعد ذلك سعى حاكم مسقط لمقابلة مطلق المطيري، ودفع له مبلغ ٤٠٠٠٠ ريال اتاوة) .

مغامرة أبناء سعود في عمان :

في سنة ١٢٢٥ هـ. ذهب ثلاثة من أبناء سعود وهم تركي وناصر وسعد الى عمان

للقتـال ، مخالفين بذلك إرادة أبيهم الذي استأذنوه في السفر فمنعهم من ذلك ، ولكنه ما كاد يخرج للحج حتى حققوا رغبتهم ، ويقول ابن بشر ان دافعهم الى ذلك المال ، فقد كان أبوهم يعطيهم عطاء كثيراً ولكنهم أرادوا المزيد .. وقـد حاربهم عند وصولهم الى عمان جماعة من باطنة عمان وهزموهم فاستنجدوا بمطلق المطيري فجاء اليهم على رأس جيش كبير ، وترأس تركي الجميع ، وسار بهم الى (بلد مطرح ، المعروف على الساحل ، وأخذوه عنوة وقتلوا من أهله قتلى كثيرة وغنموا منه أموالاً عظيمة ، ثم ساروا على البحر وفي باطنة عمان وظاهرتها فأخذوا بلد « خلفان » عنوة ، ثم ساروا الى « جعلان » و « سور » و «صحار» وغيرها وأخذوها عنوة ، وأوغلوا في عمان وأخذوا أموالاً عظيمة ..

فلما بلغ سعود الخبر، وهو في الحج، أفزعه ذلك وغضب غضباً شديداً ..).

ولما عاد سعود إلى الدرعية أرسل رجالاً من رجاله الأشداء وأمرهم أن يمسكوا قصر البريمي ويطردوا منه حماته ويمنعوا أبناءه من دخوله — وكان أبناء سعود يأوون اليه — كما كتب إلى مطلق المطيري ومن معه من المسلمين أن يخرجوا من عمان فلا يبقى فيها منهم أحد .. وقد شفع بالأبناء كثير من رؤساء المسلمين وطلبوا لهم الأمان من سعود فأبى ثم لان قلبه فقدموا على أبيهم ولكن سعود لم يصف لهم قط ، فقد مرض ابنه ناصر « وأقام شهرين مريضاً في الدرعية ومات ولم يعده أبوه ، وذلك من مخالفة الأمر » .

لم يكد مطلق ورجاله يخرجون من عمان حتى نقض بنو ياس العهد ، فأمر سعود صاحب الأحساء أن يذهب إلى عمان ويكون أميراً على جيوشها وأرسل معه عدداً من المقاتلة ، فقاتل هذا الأمير بني ياس ولكنهم تغلبوا عليه .

حملة محمد علي وآثارها في عمان :

لم يستطع سعود أن يتوفر للعناية بأمور عمان منذ وطأت الحملة المصرية أرض الحجاز ، فقد كان مدعواً لحشد كل قواته لمقاومة الغزو التركي المصري الذي كان يقوده طوسون باشا ، ابن محمد علي باشا ، وفي عام ١٢٢٨ هـ . لم يستطع سعود ، رغم تفاقم الحالة في عمان ومطالبة الموالين له هناك بالنجدة ، أن يرسل إلى عمان

الجيوش الكبيرة التي تعوّد على إرسالهـــا لفتوح البلدان أو اخضاع المتمردين ، فاكتفى بإرسال فرقة صغيرة ، أمر عليها مطلق المطيري .

ويقول ابن بشر ان مطلق سار بالجيوش (وقصد جعلان، فحاصرهم حصاراً شديداً وأخذ عليهم غنائم كثيرة ، فلما رحل عنهم اجتمع جموع منهم ومن غيرهم وتبعوا مطلقاً ومن معه من جيوش المسلمين ، فحصل بينهم وقعة عظيمة ومقتلة شديدة ، قتل فيها من المسلمين عدة قتلى ، وقتل مطلق المذكور) .

لم يكن مصرع مطلق وهزيمة جيشه معناهما نهاية السيادة الوهابية في عمان ، ولكن ذلك على كل حال كان بداءة النهاية ، ولولا حملة محمد علي لدخلت الجزيرة العربية كلها داخلها وساحلها في طاعة الدولة السعودية بل أصبحت جزءاً منها ولتمت وحدتها المنشودة منذ ذلك الوقت [1] .

---

(١) في عرض البريمي : (توفي سعود الكبير في فراشه سنة ١٢٢٩ هـ . أوائل شهر مـــايو سنة ١٨١٤ م .) ، وتصف الوثائق البريطانية نفوذه بقولها : (كان الساحل كله على الجانب العربي خاضعاً له ، باستثناء جزيرة البحرين .. وميناء القرين « الكويت » ، ونحو الجنوب امتد نفوذه الى رأس مسندم على الساحل ، وفي الداخل الى أراضي مسقط ، حيث اعترف أيضاً بسلطانه جنوبي رأس الحد) .

ويقول سر أرنولد ويلسون في كتابه القيم : « الخليج الفارسي » (إن الوهابيين بسطوا سيادتهم عام ١٨٠٣ م . على جميع الساحل العربي للخليج الداخلي (Inner gulf) ويدخل في ذلك القسم المعروف بساحل القراصنة ، موطن القواسم .

وفي عام ١٨٠٩ م . بلغت قوة الدولة الوهابية وسيادتها في أمور الخليج الذروة ، ولقد هز حصار الانكليز لرأس الخيمة في ذلك العام النفوذ الوهابي قليلاً ، ولكن نشأ عنه مزيد من اهتمام الوهابيين بعمان ، فدخلوا تحت قيادة زعيم قوي ، هو مطلق ، المناطق التي حول مسقط) .

صلات سعود مع اليمن

لا يذكر لنـا ابن بشر شيئاً عن صلات الامام سعود بإمام اليمن في صنعاء ، ويقول مؤلف «البدر الطالع» ان الامام سعود كان يرسل من لدنه رسلاً متعاقبين الى إمام صنعاء المنصور وابنه المتوكل ومع هؤلاء مكاتيب بالدعوة الى التوحيد ونبذ الامور الشركية والبدع ، وخصوصاً القبور المشيدة والقباب المرتفعة ، ومن الامور التي تسترعي النظر حقاً ما قاله هـذا المؤلف عن امتثال الإمام لأوامر سعود ، فقد (وقع الهدم للقباب والقبور المشيدة في صنعاء وكثير من الأماكن المجاورة لها ، وفي جهة ذمار وما يتصل بها ..) .

الاستيلاء على البلاد التهامية :

ويقول مؤلف البدر الطالع أيضاً ان جنود سعود وصلوا الىاليمن (فافتتحوا بلاد أبي عريش وما يتصل بها .

ثم تابعهم شريف أبي عريش وأمدوه بالجنود، ففتح البلاد التهامية ، كاللحية والحديدة وبيت الفقيه وزبيدة ، وما يتصل بهذه البلاد) .

أخبار ابن بشر :

ويذكر ابن بشر في أخبار سنة ١١٢٠ هـ. ان صالح رئيس الحديدة وبيت الفقيه بايـع (سعوداً على دين الله ورسوله والسمع والطاعة ، وحسنت عقيدته للمسلمين ..) .

ويذكر بعـــد ذلك أن إمام صنعاء سيّر عساكر عظيمة وحاصروا بندر الحديدة وأخذوه ، وان صالح ، رئيس الحديدة ، سار الى زبيــد (زبيدة) ، بثلاثة آلاف مقاتل وأخذها عنوة ، ولكن امتنعت عليها قلعتها الأمامية فنهب البلدة ثم خرج منها .

ويحدثنا ابن بشر في اخبار سنة ١٢٢٥ هـ. عن معركة كبيرة وقعت بين عثمان المضايفي وجنوده وبين حمود أبو مسمار وجنوده في تهامة اليمن في موضع يقال له « الوحلة » ، خسر فيها أبو مسمار نحو مائتين وخمسين من رجاله وانهزم ..

وفي تلك السنة استولى طامي بن شعيب ، أمير عسير وألمع وغيرهم ، على بندر « اللحية » ، وأخذ غالب ما فيه (من الأموال والذهب والفضة والقماش واللؤلؤ والحرير وأنواع الأموال التي لا يحصيها العدّ .

وذكر لنا أن منهم من طحن اللؤلؤ ، يحسبه ذرة ..) .

وقد قتل الجنود من أهل اللحية كثيراً ، قيل ان الذين هلكوا قتلاً وهلاكاً ألف ، ثم دمروا البلد وأحرقوها .

وسار طامي في هــــذه السنة أيضاً الى بندر الحديدة ونازل أهلها ودخلها عنوة ، وقتل كثيراً من أهلها ودمّر البلدة ، بعد أن أخذ ما وجد فيها من المال والمتاع ، وكان كثير من أهل البلد قــد ركبوا السفن وحملوا معهم خفيف أموالهم حين بلغهم مسير طامي وعشرين ألفـــاً من الجنود معه الى بلدهم لاكتساحها ..

الحملة التركية المصرية

الحملة المصرية

توطئـــة :

كان استيلاء الإمام سعود على الحرمين ، مكة والمدينـــة ، تحدياً صارخاً للسلطان العثماني ، ولو لم يكن هذا الخليفة – السلطان ضعيفاً ، تمزّق بلاده الفتن الداخلية والحروب الخارجية ، لما سكت عن هذا التحدي ، ولسيَّر جيوشه إلى الحجاز ونجد لمحاربة سعود منذ العام ١٢٢٠ هـ . على الأقل .

لم تكن الدعوة السلفية – التي أُطلق عليها اسم الوهابية – السبب المبـاشر في محاربة العثمانيين للحكم السعودي ، فقد كتب شرفاء مكة والمدينـة وقضاتها ومفاتيها وعلماؤهما وأعيانها كتباً كثيرة إلى السلطان يلتمسون فيها إنقاذهم من (الخطر الوهابي المداهم) – كما كانوا يزعمون – فكانت كتبهم تنـاقش في مجلس الشورى باستانبول ثم يُرَدُّ عليها بأن القضية بين أهل الحرمين وبين أهل نجـد ليست أكثر من حرب كلامية .. تثيرها اختلافات في تفسير بعض النصوص ، وليس وراء ذلك أي خطر على الدولة العثمانيـة ، بل ذهب بعض أعضاء المجلس إلى القول بأن شريف مكة يريـــد الإستعانة بقوة السلطان لتحقيق أطماعه « التوسعية » في بلاد نجد ! [١]

---

(١) يقول فؤاد حمزة ، في كتابه « قلب جزيرة العرب » : إن دسائس الشريف غالب هي السبب الأول في استفزاز السلاطين العثمانيين ضد الوهابية ، ويضيف – انظر الصفحة التالية –

كان السلاطين العثمانيون يرسلون ، أحياناً ، الكتب إلى ولاة الشام والعراق يحرضونهم على مكافحة « الوهابيين » ولكنهم لم يكونوا جادين في طلبهم كل الجد أو لعلهم كانوا ينفذون بذلك سياسة استعمارية معروفة ، سياسة « فرق تسد » ، فكانوا يضربون البلاد المحكومة بعضها ببعض أو يدفعونها إلى المغامرة لتضعف وتبقى تحت سلطانهم ، خانعة ذليلة !

على أن موقف العثمانيين تغير تغيراً جذرياً في أعقاب استيلاء سعود على مكة عام ١٢٢٠ هـ.وطرده الموظفين والجنود الترك منها ومنعه الدعاء للسلطان العثماني على المنـابر ، وحرمانه السلطان من أعز لقب يحمله ، وهو : « خادم الحرمين الشريفين » !

كان ذلك شيئاً مثيراً لم تقوَ على احتماله أعصاب السلطان، وزاد الأمر حرجاً منع سعود للعثمانيين ، سواء أكانوا أتراكاً أم شاميين أم مصريين ، من الحج ، ثم غزوه للشام وإحراقه بعض قراها [١] ..

الى ذلك أسباباً أخرى تكفلت بنجاح دسائس الشريف ، فيقول :

(وقد ساعده في وقيعته بهم عند الحكومة العثمانية ان سعود ، بعـد أن فتح الحجاز ، شرع يمهـد للاستيلاء على الديار الشامية ، ساعياً الى ذلك بواسطة الولاة والدعاة ، فأدركت الحكومة العثمانية آنئذ ان الأمر بلغ من الخطورة مبلغاً لا يمكن السكوت عليه ، وكانت الحكومة العثمانية تريد كذلك ان تتخلص من محمد علي باشا في مصر فولته ولاية جدة ، أملا في دفعه وإقصائه عن مصر وكان قصدها اصطياد عصفورين بحجر واحد ، فتضافرت مصالح الحكومة العثمانية والأشراف ، والمصريين أيضاً ، على أهـل نجد ، واستعملوا الدين مطية للأغراض السياسية ، ونشروا عن أهل نجد أنهم أحدثوا بدعة جديدة في الاسلام ومذهباً خامساً لا يقره أهل الجماعة والسنة ، وغير ذلك من الدعايات التي ظلت ذات أثر كبير في إهاجة الرأي العام الاسلامي على أهل نجد .

(١) يقول الجبرتي عن انقطاع الحاج الشامي والمصري مـا يأتي : سنة ١٢٢٢ ، ورد الخبر بأن ركب الحاج الشامي رجع من منزلة (هدية) ولم يحج في هذا العام وذلك أنه لما وصل الى المنزلة المذكورة أرسل الوهابي الى عبدالله باشا أمير الحاج يقول له : — انظر الصفحة التالية —

وأغلب الظن أن الإمـــام سعود كان يستطيع توحيد جزيرة العرب كلها واستبقاءها تحت رايته إلى ما شاء الله ، لو أنه اتبع سياسة ودية أو شبه ودية مع استانبول ، واكتفى بنوع من التحالف يعقـده مع شريف مكة ، يضمن به ولاءه .

لا تأت إلا على الشرط الذي شرطناه عليك في العـام الماضي وهو أن تأتي بدون المحمل وما يصحبهم من الطبل والزمر والأسلحة وكل ما كان مخالفاً للشرع ، فلمـا سمعوا ذلك رجعوا من غير حج ولم يتركوا مناكيرهم .

.. وصل حجاج المغاربة الى مصر من طريق البر، وأخبروا انهم حجوا وقضوا مناسكهم وان سعود الوهابي وصل الى مكة بجيش كثيف وحج مع الناس بالأمن وعدم الضرر ورخاء الأسعار ، وأحضر مصطفى جاويش أمير الركب المصري وقال له : ما هذه العويدات والطبول التي معكم ؟ – يعني بالعويدات المحمل – .

فقال : هو إشارة وعلامة على اجتماع الناس بحسب عاداتهم !

فقال : لا تأت بذلك بعد هذا العام ، وإن أتيت به أحرقته !

وأنه هدم القباب وقبـة آدم وقباب ينبـع والمدينة ، وأبطل شرب التنبـاك والنارجيلة من الأسواق ، وبين الصفا والمروة ، وكذلك البدع .)

ويقول الجبرتي في أخبار سنة ١٢٢٣ :

(.. ومنها انقطاع الحج الشامي والمصري معتلين بمنع الوهابي الناس عن الحج ، والحال ليس كذلك فإنه لم يمنع أحداً يأتي الى الحج على الطريقة المشروعة وإنمـا يمنع من يأتي بخلاف ذلك من البدع التي لا يجيزها الشرع مثل المحمل والطبل والزمر وحمل الأسلحة ، وقد وصل طائفة من حجاج المغاربة وحجوا ورجعوا في هذا العام وما قبله ولم يتعرض لهم أحد بشيء، ولما امتنعت قوافل الحاج المصري والشامي وانقطع عن أهل المدينة ومكة مـا كان يصل اليهم من الصدقات والعلائف والصرر التي كانوا يتعيشون منها خرجوا من أوطانهم بأولادهم ونسائهم ولم يمكث إلا الذي ليس له إيراد من ذلك وأتوا الى مصر والشام ومنهم من ذهب الى استانبول يتشكون من الوهابي ويستغيثون بالدولة فيخلاص الحرمين لتعود لهم الحالة التيكانوا عليها من اجراء الأرزاق واتصال الصلات والنيابات والخدم في الوظائف التي بأسمـاء رجال الدولة كالفراشة والكناسة ونحو ذلك .)

ومهما يكن الأمر ، فإن السلطان محمود ، الذي اعتلى العرش عام ١٢٢٣ هـ . بعد مقتل السلطان سليم وعزل السلطان مصطفى في فتنة الينكشرية ، أخذ على نفسه « تخليص » الحرمين من يدي سعود، ولما كان عاجزاً عن ذلك، لأن بلاده خرجت من الحروب والفتن منهوكة القوى ، فقد قرر تكليف ولاة البلاد العربية الخاضعة لسلطانه،وهي الشام والعراق ومصر،النهوض بأعباء هذا العمل الكبير .

يقول ابن سند: (كان السلطان محمود مهتماً جداً بمحاربة الوهابيين،مستعظماً جيوشهم ، ولا يعتقد أن محمد علي باشا بعسكر مصر ينهض بهـذا الحمل الثقيل ، حتى ان السلطان عزم على تجهيز جيش آخر من طريق والي الشام وجيش ثالث من طريق والي العراق ، ليتساعدا مع محمد علي على طرد الوهابيين من الحرمين، لما كانوا يشاهدونه ويسمعونه من قوة الوهابي وضخامة جيوشه وإطاعة جزيرة العرب بأسرها له ..) .

والحقيقة هي أن كلاً من والي العراق ووالي الشام تلكأ عن الاستجابة لأوامر السلطان ، ويقول بركارت ان باشاوات بغداد ودمشق كانوا يرجحون استبقاء الأموال المعدة للحملة على الوهابيين في جيوبهم..وكانوا يزعمون للسلطات أن مصر وحدها قادرة على غزو الحجاز ، لأنهـا تستطيع الوصول اليها بطريق البحر وهي آمنة مطمئنة ، وأما العراق والشام فيصعب عليهما ذلك كثيراً لأن جيوشهما مضطرة الى اجتيـاز صحارى واسعة محفوفة بالمخاطر والمهالك قبل وصولهما الى الحجاز .

وهكذا قرر السلطان العثماني تحميل والي مصر ، محمد علي باشا ، أمر الحرب في جزيرة العرب .

ويقول بعض المؤرخين ان السلطان العثماني كان ، بذلك ، يضرب عصفورين بحجر واحـد : كان يريد محاربة الوهابيين وتخليص الحجاز من أيديهم ، أولاً ، وكان يريد ، ثانياً ، إضعاف محمد علي بهـذه الحرب ثم إقصاءه عن ولاية مصر ، لتكون خالصه للترك !

ويقول الرافعي ان محمـد علي كان يعرف سوء نية السلطان العثماني ، ولكنه

رأى في الحملة على الوهابيين توطيداً لمركزه وسبيلاً الى رفع شأن مصر بين الدول، لأن نجاحها في إخضاع الوهابيين ، وهو الأمر الذي عجز عنه سلطان الأتراك ، سيخرج محمد علي من هـذه الحرب حاملاً إكليل الغار ، وراية الفتح والفخار ، فلا يقوى السلطان على التفكير في عزله !..

رسل السلطان الى محمد علي :

في عام ١٢٢٢ هـ. أرسل السلطان سليم رسولاً خاصاً من لدنـه الى محمد علي يأمره بالتجهز لمحاربة سعود ، وقد قص علينا « الجبرتي » أخبار هذا الرسول ، والرسل الذين جاؤوا بعده ، مع محمد علي فقـال ، في أخبار سنة ١٢٢٣ ، ان رسول السلطان (حضر بالأوامر بخروج العساكر للبلاد الحجازية وخلاص البلاد من أيدي الوهابية ، وفي مراسيمه التي حضر بهـا التأكيد والحث على ذلك ، فلم يزل الباشا يخادعه ويعده بإنفاذ الأمر ،ويعرفه ان هذا الأمر لا يتم بالعجلة ويحتاج الى استعداد كبير والى إنشاء مراكب في القلزم وغير ذلك من الاستعدادات .

وعمل الباشا ديواناً جمع فيـه الدفتردار والمعلم غالي والسيد عمر والمشايخ ، وقال لهم :

(لا يخفاكم ان الحرمين استولى عليها الوهابيون ومشوا أحكامهم بها ، وقد وردت علينا الأوامر السلطانية المرة بعد المرة للخروج اليهم ومحاربتهم وجلائهم وطردهم عن الحرمين الشريفين ، ولا تخفى عنكم الحوادث والوقائع التي كانت سبباً في التأخير عن المبادرة في امتثال الأوامر ، والآن حصل الهدوء ، وحضر قابجي باشا بالتأكيد والحث على خروج العساكر وسفرهم ،وقد حسبنا المصاريف اللازمة في هـذا الوقت فبلغت أربعة وعشرين ألف كيس ، فاعملوا رأيكم في تحصيلها) .

فلما سمع الحاضرون هـذه الدعوة إلى جمع المال الكثير تملكتهم الشفقة على الشعب ونقلوا للناس ما سمعوه ، ثم اتفقوا « على كتابة عرض حال ، ليصحبه ذلك القابجي إلى السلطان بصورة نمقوها » .

ويمضي الجبرتي بعد ذلك في التحدث عن فتنة استانبول التي انتهت بتنصيب

الأمير محمود سلطاناً ثم يذكر لنا ، في أخبار سنة ١٢٢٤ . وصول رسول جديد من عند السلطان ، يحمل مرسومين :

(أحدهما الإخبار عن صلح الدولة مع الانكليز والموسكوب – الروس – وانفتاح البحر ..

والثاني : الأمر بالسفر والخروج إلى فتح الحرمين وطرد الوهابية عنهما ..

.. وان يوسف باشا الصدر السابق المعروف بالمعدن ، تعين بالسفر للحرمين على طريق الشام .

وكذلك سليمان باشا ، والي بغداد ، متعين بالسفر أيضاً من ناحيته على الدرعية .

وأحضر – رسول السلطان – للباشا تقريراً بالولاية مجدداً ، وخلعة وسيفاً .)

وفي أخبار سنة ١٢٢٥ هـ . يذكر الجبرتي ان السلطان أرسل مندوباً جديداً اسمه « عيسى آغا » ، ولما وصل مصر (زار المسجد وفرّق الدراهم على الفقراء ، وأحضر معه خلعة وألبسها لابن الباشا المسمى اسماعيل ، وجعله باشا مير ميران ، كما أحضر معه أوامر وخلعة وسيفاً وخنجراً لمحمد علي باشا .. وصحبته أيضاً مهمات وآلات ومراكب ولوازم حروب لسفر البلاد الحجازية ومحاربة الوهابيين .)

وقد قرأ عيسى باشا ، في مجلس عام ، المرسوم الذي يحمله من السلطان (وهو الأمر بالخروج إلى الحجاز ، وألبس الباشا الخلعة والسيف بحضرة الجميع ، وضربوا مدافع كثيرة عقب ذلك .)

ويبدو أن مهمة عيسى باشا كانت موفقة ، وقد عاد إلى استانبول يحمل هدايا جليلة من محمد علي باشا إلى السلطان .

لماذا تأخر محمد علي عن تنفيذ أوامر السلطان ، ثم نفذها في كثير من الحزم ؟

لعل أعظم أسباب التأخير اشتغال محمد علي بمكافحة المماليك الذين كانوا يحكمون مصر ويريدون القضاء عليه ليستعيدوا عزهم القديم ، فلما تغلب عليهم ، وأصبح – كما يقول المؤرخ الفرنسي مانجان – « سيد مصر المطلق » ، صرف عنايته إلى إعداد الحملة ضد الوهابيين .

ويقول هانوتو ، مؤلف « تاريخ الأمة المصرية » : إن محمـد علي قرر خوض الحرب في جزيرة العرب لثلاثة اعتبارات :

١ – الطموح الذي كان يراود كل رؤساء مصر ، وهو التوسع نحو سورية ، عن طريق الشاطىء الآخر من البحر الأحمر .

٢ – الرغبة في توسيع نفوذه في العالم الإسلامي ، بإظهار قوته في قلب بلاد الإسلام .

٣ – الرغبة في التخلص من الأرناؤوط (الألبـان) ، لأنهم كانوا يحملونه أعباء جسيمة ويؤلفون خطراً عليه في القـاهرة ، فأراد إبعادهم إلى ساحات القتال في الحجاز ونجد .

اعداد الحملة :

أنفق محمـد علي جهوداً كبيرة وأموالاً كثيرة في إعداد حملته الى الحجاز ، ولم يتورع عن احتكار الأرزاق ومصادرة النـاس وفرض الضرائب الثقيلة على التجار لتأمين نفقات الحملة وحاجاتها ، ويقول مانجان ان محمـد علي أحب قبل سفر الحملة الى ساحات القتـال أن يعرف قوة عدوه وحقيقة نوايا الشريف غالب وأحوال القبائل الحجازية فأرسل السيد أحمد الملا الى الحجاز لهذا الغرض .

ذهب هـذا المندوب الى جدة أولاً ، فاستقبله الشريف غالب بمظاهر الثقة والترحيب ، فزعم له الملا أنه يريد الحج ، وودّعه وذهب الى مكة ، لا ليحج ، ولكن لينفذ وصية محمد علي ، فلما فرغ منها ، عـاد الى جدة ، وزار الشريف مودعاً ، فأرفقه الشريف برجل ثقته الشيخ أحمد التركي ، وطلب منهما أن يحملا الى محمد علي باشا تحياته وأمانيه المخلصة .

كان أحمـد التركي محدثاً بارعاً يحسن الاقناع والاجتذاب ، وكان يحمل معه هدايا جليلة من الشريف غالب الى محمد علي، وقد استطاع أن يقنعه بأن الشريف مستعد لمساعدة الجيوش التي يرسلها محمـد علي ، تنفيذاً لأوامر السلطان ، بكل قواه وبكل موارده ، ولو ذهب هو نفسه ضحية هذا العمل ...

وأردف التركي قائلاً ان العرب كلهم مثل الشريف في ذلك ، فهم ينتظرون

وصول الجيوش لمساعدتها ، لأن أكثر سكان الحجاز يعيشون من موارد الحج وزيارة الأماكن المقدسة ، وقد حرمت البلاد في ظل الوهابيين من هذه الموارد وأصبح سكانها بؤساء .

زيادة عدد الحملة :

تحقق محمد علي من صحة أقوال التركي ، بمعلومات تلقاها من (الملا) ومن جهات أخرى ،فازداد نشاطه في إعداد الحملة ورفع عددها الى ثمانية آلاف: ستة آلاف مشاة وألفين من الخيالة .

وفي ١٠ نيسان سافر محمد علي الى الاسكندرية فباع ٤٠٠٠٠ اردب من القمح الى الانكليز ، وأكره عشائر ولد علي على دفع مبلغ كبير من المال اليه ، وقام الكيخيا ، من جهته ، بفرض ضرائب كبيرة على الملتزمين والتجار ، وبهذه الوسائل توفرت للحملة مبالغ كبيرة جداً ، الى جانب ما كانوا يصادرونه لأجلها من الحيوانات وخصوصاً البغال والأرزاق .

قائد الحملة .. وموكبه :

اختار محمد علي لقيادة الحملة ابنه طوسون باشا ، وأقام لهذه المناسبة عرضاً عسكرياً في شوارع القاهرة ، وقد سار الدالاتية في مقدمة العرض ، وتبعتهم عشر قطع من المدفعية ، ثم المشاة الترك – وكانوا يسيرون بأعداد كبيرة وفي غير ترتيب – ثم الوالي ، فأغاوات الينكشرية والمؤن ، ثم جمال حسنة الزينة ، فجياد رائعة يمتطيها التتار تسير بين يدي قائد الحملة طوسون باشا ، وكان يرافقه نائبه الكيخيا ، ويتبعه الحرس وفرقة من الموسيقيين .

الحملة المصرية الاولى

كان عدد أفراد الحملة المصرية (الأولى) ، التي جهزها محمد علي باشا لغزو الجزيرة العربية :

٨٠٠٠ من المشاة .

و ٢٠٠٠ من الفرسان .

وكان معهم عدد كبير من العمال والصناع وغير المحاربين .

ولم يكن المقاتلون كلهم من أبناء مصر العرب ، فقد كان بينهم (١٥٠٠) الباني – ارناؤوطي – وعدد من المغاربة والترك وبعض المرتزقة من بلدان مختلفة.

قـــائد الحملة :

اختار محمد علي لقيادة الحملة ابنه الثاني (أحمد طوسون) ، وكان عمره ستة عشر عاماً .

ويقول الجنرال « فيغان » ان محمد علي لم يختر لهذه الحملة ابنه البكر (إبراهيم) مع أن بنيته أقوى وسنه أكبر، لأنه كان يخشى المؤامرات والاغتيالات فاستبقى إبراهيم في مصر ليكون خلفاً له إذا ما حدث له حادث ..

وصية .. أو وصاية الأب :

ويقول الجبرتي ان محمد علي أوصى طوسون ، قبل سفره ، ألا يفعل شيئاً من الأشياء « إلا بمشورته واطلاعه ، ولا ينفذ أمراً من الأمور إلا بعد مراجعته » .

المنجمون :

ويورد الجبرتي هذا النبأ الطريف : (طلب محمد علي من المنجمين أن يختاروا وقتاً صالحاً لالباس ابنه حلة السفر ، فاختاروا له الساعة الرابعة من يوم الجمعة).

سفر المشاة بحراً :

وفي شعبـــان من سنة ١٢٢٦ هـ . = أيلول ١٨١١ م . ركب المشاة السفن والداوات من ميناء السويس، وكان مع المشاة عشرون مدفعاً والكثير من الذخائر والمؤن والمعدات .

— وكان عدد من هذه الداوات (أي السفن) قد أرسلها الشريف غالب محملة بالبن إلى مصر وبعث إلى محمد علي، لاتفاقه السري معه، أن يحتفظ بها ويستخدمها في شحن المؤن والمعدات — .

سفر طوسون والفرسان براً :

وفي رمضان سافر أحمد طوسون على رأس الفرسان من « بركة الحج » ، وكانت تتبعه قافلة كبيرة من الإبل محملة بالمهمات والمؤن .

وسافر معه أيضاً كبير التجار محمد المحروقي (المشار اليه في رياسة الركب واحتياجاته وأمور العربان) [١] كما صحبه أربعة شيوخ يمثلون المذاهب الأربعة وهم أحمد الطحطاوي الحنفي ومحمـد المهدي الشافعي والشيخ الخانكي المالكي والشيخ المقدسي الحنبلي، وكان هؤلاء الشيوخ ، فيما يقول عنهم « مانجان » يمشون وراء راية النبي ﷺ ويظنون أنهم ذاهبون .. ليعيدوا الضالين إلى الحظيرة ..

جواسيس سعود أخبروه بقرب مجيء العساكر الى الحجاز :

يقول مانجان ان سعود كان له في مصر جواسيس ، وقد أخبروه بأن الجيش المصري يتهيأ للسفر إلى الحجاز ، فأمر سعود بتجهيز الجيوش في نجد وفي سائر

---

(١) يقول الرافعي ان المحروقي هو الذي تولى إدارة مهمات الحملة وكان له في إعدادها وتجهيزها ورسم خطوطها شأن كبير .

البلاد التابعة لسلطانه ، فبلغ عدد الجنود الذين جمعهم خمسة عشر ألفاً ، جعلهم تحت قيادة ابنه عبد الله ، وعثمان المضايفي .

ثم انضم اليهم طامي وغيره ..

الاستيلاء على ينبع :

يكتفي ابن بشر في وصفه لاستيلاء العساكر المصرية على ينبع بالقول ان هذه العساكر ، لما اجتمعت في ينبع « هرب منه رئيسه جابر بن جبارة ، وقصد المسلمين » .

وقد وجدنا في رسائل محمد علي وابنه طوسون ، وحوليات الجبرتي وتاريخ مانجان ما يعيننا على تكوين فكرة مقاربة عن الاسلوب الذي تم به استيلاء المصريين على ينبع .

ينبع البحر — اول « فتح » !..

كلمة « ينبع » تطلق على ميناء ينبع او « بنبع البحر » ، كما تطلق على ينبع البر او « ينبع النخيل » ، وهما بلدتان متجاورتان ولكنهما منفصلتان .

ألقت المراكب ، التي تحمل المقاتلين المشاة من مصر ، مراسيها أمام ميناء ينبع ، وخرج منها عدد من الجنود الى البر يطلبون الماء ، لشدة عطشهم ، فمنعهم المرابطون عند عين الماء منها وطردوهم عنها ، ثم صبّت عليهم حامية القلعة ناراً حامية ، فأثار ذلك غضب العساكر فنزلوا من سفنهم وأحاطوا بالقلعة ورموها بالمدافع ، ثم أحضروا السلالم وصعدوا الى أسوار القلعة وتغلغلوا في داخلها وقتلوا حماتها المدافعين عنها ، ولم ينج منهم إلا عدد يسير هربوا على خيولهم ، وكان بين الهاربين وزير الشريف غالب .

ويقول مانجان ان الشريف غالب كان تعهد لسعود بالدفاع عن ينبع ، ولذلك اكتفى الوهابيون بوضع حامية صغيرة فيها لا يتجاوز عدد أفرادها ثلاثمائة مقاتل ، ولكن الشريف غالب لم يفِ بعهده .

ويقول الجبرتي ان الشريف غالب كان أرسل الى أصحاب المراكب الراسية في ميناء ينبع أن ينقلوا ما في سفنهم من أموال التجار وغيرهم ويضعوه في القلعة

تحت حراسة وزيره المقيم فيها – وهذا سر وجود الوزير هناك، فهو لحماية أموال التجار لا لحماية القلعة – .. ولما استولى المصريون على القلعة ، وجدوا فيها تلك الودائع والأموال والأقمشة والبن ، وكان حارسها قد هرب ، فنهبوها ، ثم فعلوا ما هو أفظع وأفجع ، ذلك انهم (سبوا النساء والبنات الكائنات بالبندر وأخذوهن أسيرات) .

ويردف الجبرتي قائلاً ان المبشرين بهذا الفتح .. وصلوا الى مصر فضربت المدافع الكثيرة من القلعة ابتهاجاً وسروراً وأرسلوا شخصاً الى استانبول ليبشر السلطان ، (وكان ذلك أول فتح حصل) .

ينبع البر :

تم الاستيلاء علي ينبع البحر قبل وصول طوسون وفرسانه ، فلما وصل طوسون انضم اليه المشاة ، وأصبحوا مع الفرسان جيشاً واحداً تحت قيادته ، وكتب طوسون الى أبيه رسالة يصف فيها ما حدث بعد ذلك ، فقال :

(بعد استيلاء جنودنا على ينبع البحر ، أخذ الوهابيون الذين يقودهم ابن جبارة وابن مضيان يهجمون على مواقعنا ، ويسلبون بعض الحيوانات ، فقاومهم جنودنا واضطروهم الى التقهقر نحو ينبع البر ،حيث أنشأوا ما يشبه التحصينات.

وقد جاء الى معسكرنا عدد كبير من البدو عارضين علينا الخدمة، فاشترينا منهم جمالاً كثيرة، ثم سرنا إلى ينبع البر،وبعد أن استراح الجنود قليلاً في موضع يقال له « مبارك » ، اندفعوا نحو ينبع البر في خمسة طوابير ، ومع كل طابور مدفعان اثنان من مدافع الهاون .

وسرعان ما اقتحم جنودنا الشجعان مخيمات العدو ، فلما رأى القائدان الوهابيان سرعة حركتهم وشدة بأسهم لاذا بالفرار ، ودبت الفوضى في صفوف مقاتلتهم ..

وقد قتلنا منهم نحو ألفي رجل ، وقطعنا رؤوس ستمائة من القتلى لارسالها إلى مصر ، ولكنها فسدت ..

واستشهد من رجالنا أو جرح نحو مائتين .

وتمّ الاستيلاء على بلدة ينبع البر بهدوء وسلام ، ولم يقع نهب ولا عدوان على الأهالي ..

وتليت في المساجد الخطب والأدعية باسم السلطان ، خليفة المسلمين) ..

وهكذا يفخر طوسون بالتمثيل بالقتلى ، وهو أمر حرمته الشرائع كلها وتنكره الضمائر وليس من شأن البشر وإنما هو من شأن الضباع والحشرات .. ومن المؤسف المخزي انه عاد إلى مثل هذا أكثر من مرة ، ثم فعل ذلك خلفاؤه.

ويقول مانجان ان المصريين استولوا ، بعد استقرارهم في ينبع ، على قرية « السويق » ، بلدة ابن جبارة ، ثم على المويلح .

ويقول الجبرتي : (في منتصف ذي الحجة وصلت هجانة ، ومعهم رؤوس القتلى ومكاتبات .. انهم ملكوا قرية ابن جبارة « السويق » ، وفر ابن جبارة هارباً) ..

وما ندري إن كانت هذه الرؤوس المقطوعة التي أرسلها طوسون هي تلك الرؤوس التي أفسدها الحر ، في ينبع ، أم غيرها .. ومن الذي تلذه هذه الهدايا: محمد علي أم حاشيته ؟ أم يراد بها إثبات فعال الجيش الطوسوني بالبرهان الحسي ؟ أم يراد بها إرهاب الناس ؟

الزحف الى المدينة

معركة بدر :

كان طوسون ينوي الزحف من ينبع الى جـدة فمكة .. ولكن الشريف غالب أرسل اليه أحد رجاله فزيّنَ له المسير الى المدينة المنورة أولاً ، وقال له انه متى استولى على المدينة سهل عليه الاستيلاء على جدة ومكة ..

أخذ طوسون بهذه النصيحة ، وفي منتصف شهر ذي القعدة بدأ زحفه الى المدينة ، وكان يعرف ان الطريق طويلة.. وان الوهابيين سيعترضونه وان معارك ستقع .. ولكنه لم يكن يتوقع قط أن تنزل به هزيمة منكرة .

الاستيلاء على بدر :

كانت المرحلة الاولى في طريق طوسون الى المدينـة قرية (بدر) ، حيث

جرت في السنة الثانية للهجرة موقعة بدر المشهورة التي انتصر فيها النبي ﷺ على قريش نصراً مؤزراً .

دخل طوسون (بدر) بدون قتال ، لأن أحداً لم يدافع عنها ، واتخذها معسكراً له .

معركة قرب بدر مع الوهابية :

ويقول محمد علي في رسالة الى السلطان العثماني ان طوسون (رتب دوريات للحراسة ودوريات لاستكشاف مواقع الأعداء . وانه أرسل عدداً من الهجانة — جعل على رأسهم ابن شديد ، وهو زعيم بدوي موالٍ — الى قرية ابن جبارة « السويق » للاستيلاء عليها من ناحية ولسؤال سكانها عن أخبار الوهابيين وتحركاتهم ، فعرف هؤلاء الهجانة من السكان ان الوهابيين وصلوا الى مكان قريب من بدر ، وانهم يستعدون للهجوم على المصريين ، وأبلغوا ذلك طوسون فأرسل فرقة من الفرسان للتثبت من الأمر ، ولكن هؤلاء الفرسان القلائل الذين أرسلوا طليعة للاستكشاف لا للقتال فوجئوا بجموع الوهابيين ، الذين يزيد عددهم على أربعة آلاف ، فاضطروا الى مقاتلتهم ، فإذا الوهابيون يفرّون أمامهم منهزمين ، بعد أن قتلوا منهم مائتي رجل وغنموا نحو مائة بعير وخمساً وعشرين فرساً ، ولم يحاول الفرسان تعقب المنهزمين لكثرتهم ..

وعندما بلغ طوسون هذا النصر الذي أحرزته فئة قليلة من فرسانه على عدد هائل ، سجد لله شكراً) .. وأرسل الى أبيه في مصر رؤوس القتلى الذين سقطوا في ساحة القتال !..

رواية الجبرتي :

نقل الجبرتي في تاريخه ما أُشيع في مصر عن هذه المعركة ، فقال :

(ورد عليهم خبر بأن جماعة من كبار الوهابية حضروا بنحو سبعة آلاف خيّال .. وفيهم عبد الله بن سعود وعثمان المضايفي ، ومعهم مشاة .. وقصدوا أن يدهموا « العرضي » على حين غفلة ، فخرج اليهم شديد ، شيخ الحويطات ،

ومعه طوائف ودلاة وعساكر ، فوافاهم قبل شروق الشمس، ووقع بينهم القتل، والوهابية يقولون :

– هاه يا مشركون .

وانجلت الحرب عن هزيمة الوهابية ،وغنموا منهم نحو سبعين هجيناً من الهجن الجياد ، محملة أدوات ، وكانت الحرب بينهم مقدار ساعتين .) .

رواية ابن بشر :

يقول ابن بشر ان سعود، لما بلغه نزول المصريين في ينبع وهرب ابن جبارة، أمر ابنه عبد الله أن ينزل الخيف ، من وادي الصفراء ، ويستعد لإقبال العساكر المصرية ، ففعل ، (ثم إن العساكر المصرية والتركية زحفت على المسلمين وأقبلت عليهم ، فأرسل اليهم عبد الله طليعــــة جيش وفرساناً ، واستعد لهم الترك ، وحصل على المسلمين هزيمة ، وُقتل اثنان وثلاثون رجلاً ..)

إن ابن بشر يتحدث هنـــا عن معارك وادي الصفراء .. ولكننا نستطيع من المقارنة بين هــذه الرواية وبين أقوال محمد علي أن نستنتج أن المعركة إنما جرت بين طليعتين لا بين جيشين : طليعة عبد الله وطليعة طوسون ، وأن عدد المقاتلة كان أقل كثيراً مما ذكر الجبرتي .. والله أعلم .

موقعة الصفراء

هزيمة المصريين النكراء وبكاء طوسون :

يقول بركهارت ان طوسون سار من بدر ، بعد أن أبقى حامية فيها ، إلى (الصفراء) ، وهي سوق لبني حرب ، تبعد ثمان ساعات عن بدر ، ومن هناك سار إلى (الجديدة) ، قرية حرب ، فقاومه رجال حرب قليلاً ثم فروا أمامه، فاستسهل أمرهم فتتبعهم ،فإذا به يجد نفسه أمام سلسلة من الجبال ملأها وغطاها المقاتلة الوهابيون المنتشرون في كل الجهات .. بأعداد مخيفة ..

كان طوسون يستطيع التراجع بشرف إلى مكان حصين واجتناب الاشتباك بهذه القوة التي لا يملك مقاومتها طويلاً ، فضلاً عن التغلب عليها ، ولكن جنوده لم يتركوا له سبيلاً إلى التفكير السليم ،فقد هالهم ما رأوه فانهزموا بسرعة عجيبة

وفروا لا يلوي بعضهم على بعض ، ثم حاول الفرسان حماية المشاة في هزيمتهم ، ولكنهم ما لبثوا ان فروا هم أيضاً ..

ويزعم بركهارت ان أحد المشتركين في تلك المعركة أخبره أنه شاهد طوسون تنفر الدموع من عينيه وهو يرى ما حلّ بجيشه ، وأنه سمعه يصيح بالهاربين :

– أليسَ بينكم من يريد الصمود معي ؟

فلم يستجب لندائه أكثر من عشرين فارساً .. ومن حسن حظه ان الوهابيين اشتغلوا بجمع الغنائم عن تتبعه هو وجنده ..

وهكذا عاد طوسون مسرعاً إلى معسكره في بدر فأحرقه ، وسار من هناك إلى (البريكة) ، حيث ركب سفينة أوصلته إلى ينبع !

ويرى بركهارت ان طوسون ما كان لينجو من القتل لولا شجاعة إبراهيم آغا [١] ، الذي بقي ملازماً له ، ساهراً عليه ، بعد أن هجره كل قواده ورجاله طالبين السلامة لرؤوسهم فحسب ..

رواية البسام :

ويقول الشيخ محمد البسام – في كتابه المخطوط (الدرر المفاخر في أخبار العرب الأواخر) المحفوظ في مكتبة المتحف البريطاني في لندن – إنه كان يحارب في صفوف الجيش الوهابي في الخيف ، بالصفراء ، وإن عدد هذا الجيش أربعون ألفاً ، وأما عدد جيش طوسون فنحو سبعة آلاف وان الوهابيين عملوا ثلاثة أيام في حفر الخنادق وإقامة المتاريس ، حتى (توجهت سبعة آلاف

---

(١) إبراهيم آغا اسم مستعار ، وحقيقة الاسم : طوماس كيث ، وهو بريطاني من مقاطعة اسكتلندا كان يعمل بحاراً على ظهر السفينة الحربية « هايلندرز » ، التي اشتركت في الحملة البريطانية على مصر ، وقد وقع أسيراً ، وكان عمره عشرين سنة ، فاعتنق الإسلام وآثر البقاء في مصر ، وساقه القدر الى طوسون – بعد أن ارتكب ذنباً فشفعت به أم طوسون – فجعله عبداً مملوكاً من مماليكه ثم رأسه عليهم ، وفي أعقاب معركة الصفراء هذه اتخذه طوسون أميناً على المال (خزندار) ..

وسنرى ، فيما بعد ، ان طوسون جعله حاكماً على .. المدينة المنورة .

من العسكر اليهم ، فأخـــذ الحرب بينهم ثلاثة أيام ، ولم يجد عسكر الوزير طوسون مدخلاً الى عسكر الوهابي ، لأجل أن السهل خندق ، والجبل مترس.. والأرض امتلأت على رحبها بالوهابي وعساكره) ..

وكان مسعود بن مضيان قد أمره عبد الله بالنزول في مكان بعيد عنه ، فلما احتاج عبد الله الى مزيد من الذخائر أرسل الى ابن مضيان أن يقدم اليه (فجاء معه ألف راية ، فلما رآه عسكر طوسون بهذا العدد ، قالوا : هـــذا الوهابي الكبير – يعنون سعود – والذي في أهل نجد هو ولده عبد الله .

فأدبر عسكر طوسون ممشى ثلاث ساعات ..

والذي قتل من عسكر طوسون ثلاثة آلاف .) .

أول المعركة .. غير آخرها :

من يقرأ وصف بركهارت او البسام لمعركة الصفراء يخيل اليه ان عساكر طوسون لم يقاتلوا وانهزموا من أول يوم،والحقيقة انهم حاربوا ثلاثة أيام وحققوا في أول الأمر انتصارات ، ولكنهم ُغلبوا على أمرهم بعــد ذلك وهربوا ونزلت بهم خسائر جسيمة وكانت هزيمتهم مخزية جداً .

وصف معركة الصفراء في ابن بشر :

يقول ابن بشر ان الإمام سعود لما سمع بسير العساكر المصرية الى المدينـــة (أمر على نواحي المسلمين من الحاضرة والبادية، من أهل نجد والجنوب والحجاز وتهامة ، فسيَّرهم مع ابنه عبد الله ، فنهض عبد الله بتلك الجنود ، ونزل الخيف، المعروف من وادي الصفراء ، فوق المدينة النبوية ، واستعدوا لإقبــال العساكر المصرية .. واجتمع معه من الجنود نحو ثمانية عشر ألف مقاتل وثمانمائة فارس .

ولما نزل عبدالله بالخيف أمر على مسعود بن مضيان ومن معه من بوادي حرب وجيش أهل الوشم أن ينزلوا في الوادي الذي في جانب منزلهم الذيهم فيه مخافة أن يأتي معه دفعة من الترك فيفتكوا بالمسلمين ..

ثم إن العساكر المصرية والتركية زحفت على المسلمين وأقبلت عليهم،فأرسل

اليهم عبد الله طليعـة جيش وفرساناً ، واستعد لهم الترك ، وحصل على المسلمين هزيمة ، وُقتل اثنان وثلاثون رجلاً .

فنزل عسكر الترك مقابل عسكر المسلمين، فالتقى الفريقان ، وجعل عبدالله على الخيل أخاه فيصل بن سعود وحباب بن قحيصان المطيري ، فحصل قتـــال شديد ، وصبر الفريقـان ، وكثر القتل في الترك والمسلمين ، وصار عدة وقائع ومقاتلات في هـذا المنزل ، وابتلي المسلمون بلاءً شديداً ، فكلما حمل الترك على جمع المسلمين انهزم الأعراب وثبت غيرهم ، وأقاموا على ذلك ثلاثة أيام ، فأرسل عبد الله إلى مسعود بن مضيان ومن معه من حرب وأهل الوشم وأمرهم أن يحملوا على الترك ، فأقبلوا ، وصار أول حملة عليهم ، مع جمـلة جنود المسلمين ، فانهزمت العساكر المصرية لا يـــلوي أحد على أحد ، وانكشفوا عن مخيمهم ومحطتهم ، وولوا مدبرين وتركوا المدافع — وهي سبعة — والخيـــام والثقل والرحايل وكثير السلاح وما في محلهم من جميع آلات الحرب والذخائر ، ومـا نجا منهم إلا أهل الخيل ، الذين أدبروا مع باشتهم . ومـات غالب خيولهم حفاً وظمأ حتى وصلوا الى « البريكة » وركبوا منهـا في السفن إلى ينبع واستقروا فيه ، وقتل من رجالتهم عـدد كثير وأخذ المسلمون منهم من الأموال والسلاح ما لا ُيحصر ..

والذي حرر لنا ان القتلى من الترك أكثر من أربعة آلاف رجل .

وقتل من المسلمين من جميع النواحي نحو ستمائة رجل ، منهم مقرن بن حسن ابن مشارى بن سعود ، ورئيس قحطان هـادي بن قرملة ، وسعد بن ابراهيم بن دغيثر .. وغيرهم .

.. وكانت هذه الوقعة في العشر الأواخر من ذي القعدة .) .

وصف الشيخ عبد الرحمن للموقعة :

كان العالم الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب من شهود معركة الصفراء — وهناك من يسميها معركة الجديدة — وقد وصف جانباً منهـــا في مقاماته ، فقال ان المسلمين اجتمعوا في بلد حرب (وحفروا في مضيق الوادي

خندقاً ، وعبأوا الجموع ، فصار في الخندق من المسلمين : أهل نجد ، وصار عثمان المضايفي ومن معه من أهل الحجاز فوق الخندق .

فحين نزلت العساكر (المصرية) ارزت خيولهم وعلموا أن لا طريق لهم الى المسلمين ، فأخذوا يضربون بالقبوس ، فدفع الله شر تلك القبوس الهائلة عن المسلمين ، ان رفعوها مرّت وما ضرّت ، وان خفضوها اندفعت في التراب ..

فهذه عبرة ، وذلك من أعظم ما معهم من الكيد أبطله الله في الحال .

ثم مشوا على عثمان ومن معه في الجبل ، فتركهم حتى قربوا منه فرموهم بما احتسبوهم به وما أعدوه لهم حين أقبلوا عليهم ، فما أخطأ لهم بندق ، فقتلوا العسكر قتلاً ذريعاً .

وهذه أيضاً من العبر ، لأن العسكر الذين جاءهم أكثر منهم بأضعاف ، ومع كل واحد من الفرود والمزندات ، فما أصابوا رجلاً من المسلمين وصار القتل فيهم .. هذا كله وأنا أشاهده ..

ثم مالوا الى الجانب الأيمن من الجبال بجميع عسكرهم من الرجال ، وأما الخيالة فليس لها فيه مجال ، فانهزم كل من كان على الجبل من أهل بيشة وقحطان وسائر العربان ، الا ما كان من حرب فلم يحضروا ، فاشتدّ على المسلمين لما صاروا في أعلى الجبل ، فصاروا يرمون المسلمين من فوقهم ، فحمي الوطيس آخر ذلك اليوم ثم من غد ، فاستنصر أهل الإسلام ربهم الناصر لمن ينصره فلما قرب الزوال من اليوم الثاني ، نظرت .. فإذا برجلين قد أتيا فصعدا طرف ذلك الجبل فما سمعنا لهما بندقا ثارت ، إلا ان الله كسر ذلك البيرق ونحن ننظر ، فتتابعت الهزيمة على جميع العسكر فولوا مدبرين وجنبوا الخيل والمطرح وقصدوا طريقهم الذى جاؤوا معه ، فتبعهم المسلمون يقتلون ويسلبون) ..

وصف الجبرتي لهزيمة الصفراء :

ويقول الجبرتي ان القادمين من الحجاز أخبروا ان جيش طوسون نزل الصفراء والجديدة فوجد بينه وبين كبر الجيش الوهابي عدة متاريس فأخذ المتراس الأول

ثم الثاني ، ثم صعد قسم من العساكر إلى قمم الجبال فهالهم مـا رأوا من جموع الوهابيين فقاتلوهم يوماً وبعض اليوم ثم ولوا الأدبار منهزمين وهبطوا من الجبال على أسوأ حال فانهزم معهم سائر المشاة والخيـــالة (وتركوا خيامهم وأحمالهم وأثقالهم وطفقوا ينهبون ويخطفون ما خف عليهم من أمتعة رؤسائهم ، فكان القوي منهم يأخذ متاع الضعيف ويأخذ دابته ، وساروا طالبين الوصول إلى السفائن بساحل البريكة لأنهم كانوا أعدوا عدة مراكب هناك من باب الاحتياط ووقع في قلوبهم الرعب واعتقدوا ان القوم في أثرهم والحال أنه لم يتبعهم أحد.. لأنهم — الوهابية — لا يذهبون خلف المدبر،ولو تبعوهم ما بقي شخص واحد).

ويصف الجبرتي بعد ذلك هرب المنهزمين بالسفن إلى ينبع فيقول انهم كانوا (يتزاحمون على النزول فيها..ويمنعون الباقين من اخوانهم.. بالبنادق والرصاص وانهم كانوا من شدة حرصهم وخوفهم واستعجالهم على النزول في الفطائر يخوضون في البحر الى رقابهم ، وكأنما العفاريت في أثرهم تريد خطفهم) .

وقد وصل طوسون باشا بعد أن تغيب يوماً عن معسكره « حتى أنهم ظنوا فقده » .

.. ورجع المحروقي فقام عليه كبار العسكر وأسمعوه الكلام القبيح وكادوا يقتلونه ، فنزل في سفينة وخلص منهم .

طوسون يشرح أسباب الهزيمة :

أرسل طوسون إلى أبيه رسالة طويلة يصف له فيها بعض وقائع «الصفراء» ، ويشرح له أسباب هزيمته ، وهـــا نحن نقتطف منها أهم الفقرات في شيء يسير من التصرف :

١ — لم تكن الهزيمة ناشئة عن شجاعة الوهابيين وقوتهم .

٢ — من أسباب الهزيمة : اختيارنا للمعركة ميداناً غير صالح .

٣ - وأعظم أسباب الهزيمة : الارتجال وفقدان التخطيط .. وعـدم اتخاذ الاستعدادات الكافية .

٤ – كان قتلانا في المعركة ثلاثمائة قتيل فقط .. وأقسم على ذلك [1] .

٥ – أخبرنا جواسيسنا ان كثيراً من المقـــاتلين انهزموا او همُّوا بالهزيمة ، ولكن عبد الله بن سعود ورجاله النجديين هم الذين صمدوا وثبتوا .

٦ – قتل من رجال سعود ٦٧٠ رجلاً .

ومن جماعة عثمان المضايفي ٣٣٥ .

ومن جماعة أبو نقطة وابن شكبان ٢٨٧ .

ومن قحطان اليمانية ٤٠٠ .

وقتل ٢٧ أميراً .

يضاف إلى هؤلاء عـــدد كبير من الجرحى ، بحيث يبلغ مجموع القتلى والجرحى حوالي أربعة آلاف .

٧ – كان الوهابيون معجبين بشجاعة عساكرنا وقوتهم وكانوا يتساءلون : أبشر هؤلاء أم جن ؟ وكان الخوف من عسكرنا ظاهراً على وجوههم .

٨ – إن هزيمتنا في الصفراء درس لنا ، وستعقبها انتصارات ..

غضب محمد علي على المنهزمين :

لما عـــاد رؤساء العساكر – الذين انهزموا في الصفراء – إلى مصر ، رفض محمد علي أن يرى أحداً منهم ، ويقول الجبرتي انهم وصلوا القـاهرة (في أسوأ حال من الجوع وتغير الألوان وكآبة المنظر والسحن ، ودوابهم وجمالهم في غاية العيّ) ، وتساءل : هل كانوا قادرين على النصرة والغلبـة وفرّطوا في ذلك .. حتى غضب عليهم محمد علي ؟

سبب الهزيمة قلة الدين والفسق :

ويرجع الجبرتي سبب الهزيمة إلى قلة الدين ، فيقول ان أحد كبار المصريين العائدين من المعركة قال له :

---

(١) قدر الرافعي عدد قتلى المصريين بستمائة ، ثم مات آخرون من الجوع والعطش والمرض، بعد فرارهم .

(أين لنـا بالنصر ، وأكثر عساكرنا على غير الملة ، وفيهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهباً ..

وصحبتنا صناديق المسكرات .

ولا يسمع في عرضينا أذان ولا تقام به فريضة ، ولا يخطر في بالهم شعائر الدين ..

والقوم – أي الوهابيون – إذا دخل الوقت أذّن المؤذنون وينتظمون صفوفاً خلف إمام واحد بخشوع وخضوع .. وإذا حان وقت الصلاة والحرب قائم أذن المؤذنون وصلّوا صلاة الخوف ، فتتقدم طائفـة للحرب ، وتتأخر الاخرى للصلاة .)

أضاع الوهابيون الفرصة :

هناك مـا يشبه الإجماع من المؤرخين على أن الوهابيين ارتكبوا خطأ كبيراً بعدم تتبعهم عساكر طوسون المنهزمة وإفنائها مرة واحدة .. ثم الحيلولة دون دون وصول قوات مصرية جديدة .

قال الجنرال فيغان : لم يحسن رجال سعود استغلال انتصارهم في الصفراء ، فقد كان عليهم أن يتتبعوا خصومهم إلى ينبع ، ولكنهم ظنوا أنهم هزموا طوسون هزيمة لا قيام له بعدها .. واكتفوا بتقوية حاميتهم في المدينة .. تاركين لأهل الصفراء مهمة الدفاع عن أرضهم .. وعادوا إلى أوطانهم ..

أمـا مانجان فيذهب إلى أن الوهابيين حسبوا انسحاب طوسون مكيدة ، فلم يتعقبوه ..

هل فكر محمد علي في الانسحاب من الحرب ؟

يقول هانوتو ان محمد علي ، بعد الهزيمة التي ُمنيت بها جنوده ، لم يعد راغباً في متابعة الحرب ،ففي عام ١٨١٢ طلب من الوكيل البريطاني ميست أن يكتب إلى اللورد مينتو الحاكم العام ويستدرجه إلى إذاعة بيان يعلن فيه عزمه على تدمير القوات المصرية ، وذلك ليتخذ محمـد علي هذا الكلام وسيلة وحجة لاستدعاء

الحملة المصرية من الحجاز وصرف النظر عن الحرب في الجزيرة العربية نظراً إلى الخطر البريطاني المداهم ..

ولكن استيلاء طوسون على المدينة ومكة أعاد إلى محمد علي الثقة والطمأنينة والطمع ، فغيَّر رأيه وقرر المضي في الحرب ، بعد أن لاحت له بشائر النصر ..

النصر بعد الهزيمة :

بعد هزيمة الصفراء ، أقام طوسون ، مع فلول جيشه ، في ينبع ، ينتظر الجيوش والمؤن والأسلحة والذخائر والأموال التي طلبها من والده ، ليتابع الحرب.

وقد أدرك محمد علي أن سمعته وبقاءه في ولاية مصر مرهونان بنجاحه في الحرب فلم يدخر جهداً في تجهيز الجيوش وإرسالها تباعاً إلى الحجاز ، مع كل ما يلزمها ..

وكانت أول فرقة أرسلها محمد علي بقيادة (أحمد آغا) ، الذي أصبح ، فيما بعد ، مستشار طوسون المفضل .

ويقول بركهارت ان أحمد هذا – الذي لقبوه في الحجاز ونجد بـ (بونابرت) تشبيهاً له بامبراطور فرنسا وقائدها العظيم نابوليون بونابرت – اشتهر خلال حوادث المماليك بشدة فتكه وسوء خلقه فلم تكن لحياة الناس عنده قيمة ولم يكن للأخلاق عنده اعتبار .. وربما نطق بعض النجديين اسمه هكذا : « بن نبارت » ، فكأنهم ظنوا أن له أباً اسمه نبارت ..

أما الفرقة الثانية التي أرسلها محمد علي مداداً لابنه فقد عقد لواءها لصالح آغا السلحدار .

ثم أرسل عساكر كثيرة من المغاربة والأتراك ..

هل أخبر سعود الانكليز بالامدادات المصرية :

يزعم فيلبي في كتابه (العربية السعودية) ان سعود ، لما بلغه خبر الامدادات التي طلبها طوسون من مصر ، بعد هزيمته ، أرسل مندوباً إلى بوشهر ، لمفاتحة المقيم البريطاني في الأمر ، ولكن حكومة الهند رفضت التدخل ، لأن البريطانيين كانوا يريدون إضعاف سلطان الوهابيين ..

(٨)

الشريف غالب يكتب الى طوسون :

استقر طوسون في ينبع البحر ، وأفاد من درس الهزيمة فأصلح أحواله ، وأقام النظام والألفة والتعاون بين ضباطه وجنوده ، وتناقل البدو أخبار الامدادات التي تصل إلى طوسون بكثرة وفيها الجنود والسلاح والطعام والأموال،فكان ذلك اغراء ودعوة لهم إلى محالفته طمعاً بالمال والمغانم.

ولما رأى الشريف غالب تعاظم قوة طوسون كتب اليه واعتذر له عما كان منه .. ووعده بأن يدخل الجيوش المصرية التركية مدينتي مكة وجدة بأمان ، كما وعده بإرسال جماعة من رجاله لمساعدته في قتال الوهابيين .

محمد علي يخبر السلطان بتأخير الزحف لشدة الحر
وانه سيتولى بنفسه ادارة المعارك :

ويقول محمد علي في رسالته إلى السلطان العثماني انه استحسن تأخير الزحف إلى المدينة المنورة حتى أوائل الشتاء لأن الحر لا يطاق، والماء قليل — ويستشهد محمد علي بحديث روي عن النبي ﷺ لم تثبت صحته ، وهو : « من صبر على حر مكة وبرد المدينة فتحت له الجنة » — .

ويقول محمد علي في هذه الرسالة أيضاً انه أوصى (الآغوات) الذين يعملون مع ولده أن يتمسكوا بالطاعة والاخلاص ويستبسلوا في القتال فإن لم يفعلوا أنزل بهم أقسى العقوبات .

.. وانه سأل القواد عن عدد الجنود الذين يرون ضرورة جمعهم وتجهيزهم لتحقيق النصر— لأنه لا يريد أن يقول قائل في المستقبل ان محمد علي ضنّ بإرسال الجنود فغلبه الوهابيون — فأجابوه انهم يريدون خمسة عشر ألف جندي .. [1]

فجمع محمد علي هذا العدد ، ثم أضاف اليه فرقة كبيرة من الفرسان ..

---

(١) يقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢٢٧ : (وفي هذه السنة قدم من مصر أحمد بن نابرت على العسكر الذي في ينبع البحر مع أحمد طوسون ... بعساكر كثيرة جهزها معه محمد علي صاحب مصر ، فضبطوا ينبع البحر وتبعهم بقية عربان جهينة واستولوا على ينبع النخل ..)

وهو قائم الآن بتجهيز ثلاثة آلاف جندي من المغاربة ، فوق الذين أرسلهم من قبل ..

وينهي محمد علي رسالته قائلاً :

سأجمع كل ما أستطيع جمعه من الجنود، وأعمل كل ما أقدر على عمله، مضحياً براحتي ومالي وصحتي وحياتي ، تحقيقاً لرغبات مولاي السلطان .. وسأتولى أنا بنفسي إدارة المعارك .

استخدام المال للنصر :

لم يشأ طوسون أن يجعل جنوده وأسلحته ، على كثرتها ، وسيلته الوحيدة إلى كسب الحرب ، وإنما تذرع بالسياسة والكياسة والكرم الزائد في معاملته لزعماء البلاد ورؤساء العشائر ، وذلك لاستمالتهم إلى صفه والتقوي بهم وإضعاف خصمه بانفضاضهم من حوله، وقد وجّه عناية خاصة إلى عشيرتي حرب وجهينة لأنهما تقيمان في المنطقة الممتدة من المدينة إلى الصفراء وما بعدها — أي في طريق زحفه إلى المدينة .

وهذه السياسة أوصاه بها أبوه فاتبعها وساعده في تحقيقها المحروقي وكبار رؤساء العسكر .. فالمحروقي اشترى جماعة من بني حرب والقواد اشتروا أعداداً كبيرة من بدو جهينة ..

ويقول ابن دحلان انهم أعطوا شيخ مشايخ حرب (مائة ألف ريال فرنسية عيناً ، ففرقها على المشايخ وخصّه هو بمفرده « ١٨ » ألف ريال . وأعطوا شيخاً صغيراً من مشايخ حرب ثمانية عشر ألف ريال ، ورتبوا لهم علائف تصرف لهم كل شهر، وكان ذلك بتدبير شريف مكة الشريف غالب، وهو — في الظاهر — تحت طاعة الوهابي .)

ويلاحظ الجبرتي ان سعود بن عبد العزيز لم يكن كريماً مع العرب ، ويقول ان المصريين انهزموا في العام الماضي بسبب مقاومة عربان حرب لهم في الصفراء، ولكن هؤلاء البدو المتوهبين أصابهم العسر والعناء فتركوا الوهابيين وانقلبوا

عليهم ، لأن الوهابيين – في زعمهم – لا يعطونهم شيئاً ويقولون لهم :
« قاتلوا عن دينكم وبلادكم . » .

.. وقيل لمحمد علي : إذا بذلتم لهم الأموال صاروا معكم وملّكوكم البلاد ، فأرسل من مصر أموالاً كثيرة وهدايا دفعت إلى شيوخ العربان .

ويضيف الجبرتي إلى ذلك جملة تدلّ على كرهه لسياسة الشريف غالب تجاه الوهابيين ، قال : (وكل ذلك بمخابرة الشريف غالب أمير مكة وتدبيره ، وقد فعل ذلك بعد حج ابن سعود وارتحاله ، وسيلقى جزاءه ...)

والحق إن هذه الأموال والهدايا التي بذلت بسخاء نادر لاستمالة العربان قد مهّدت أمام طوسون الطريق إلى المدينة ، لأن هؤلاء العربان هم أهل الدار وحُماة جبالها ووهادها وطرقها ، وطوسون جعلهم يحاربون معه بدلاً من أن يحاربوه ..

استيلاء طوسون على الصفراء :

قام طوسون بعد استمالته العربان المقيمين في جواره ، بتوطيد حكمه في ينبع البحر والبر والمويلح ، ثم أخذ في توسيع منطقة « نفوذه » تدريجياً ، وتطهيرها من الخصوم .. ولما فرغ من ذلك نقل معسكره إلى « بدر » ، وشرع يرسل من هناك الحملات الصغيرة يناوش بها الوهابيين وأنصارهم ، ويبدو أن حملاته كانت موفقة لأنه قتل كثيراً من العربان الموالين للوهابيين أو اضطرهم إلى الفرار والابتعاد ، بحيث أصبح طريقه إلى الصفراء ، التي لقي فيها من قبل هزيمة منكرة ، طريقاً آمناً ممهداً ..

أرسل طوسون طليعة من جنده إلى الصفراء لاستكشاف أحوالها ، فوجدوها خالية ، فسار اليها طوسون ودخلها بسلام ، من غير حرب .

قال الجبرتي ، في أخبار رمضان سنة ١٢٢٧ هـ . :

(وردت هجانة يبشرون باستيلاء الترك على عقبة الصفراء والجديدة من غير حرب ، بل بالمخادعة والمصالحة مع العرب وتدبير شريف مكة ، ولم يجدوا أحداً من الوهابيين) .

أما ابن سند فيزعم أن المصريين بعد أن قويت عزائمهم بالرجال والمدافع

(نهدوا إلى الصفراء مرة ثانية ، وساعدهم على دخول تلك الجبال والمضايق قبائل بني حرب ، وخصوصاً « الأحامدة » .. فخيّم عسكر المصريين في الصفراء وصارت بينهم وبين الوهابيين حرب ثانية انكسر فيها الوهابيون وانهزموا وقد داخلهم الخوف والرعب من صوت المدافع ترن بين الجبال ولها دوي وما كانوا سمعوا بمثلها قط ، فرفعوا عساكرهم من هذه الجهات) .

وكلام ابن سند غير صحيح ، لأن جنود نجد كانت متجمعة في المدينة وحول الطائف، ولم يكن في منطقتي ينبع والصفراء مقاتلة وهابيون ، وربما كانت فيها بقية قليلة من رجال ابن جبارة فاستسلم بعضها وهرب بعضها ولحق بالموحدين .

سرور السلطان .. وتسمية محمد علي قائداً .. الخ ..

سرّ السلطان باستيلاء طوسون على المناطق التي كان عجز عنها وأضاعها ، وأكبر اجتهاد محمد علي في إرسال الجنود والأسلحة والأموال إلى الحجاز..وعزم محمد علي على المسير إلى الحجاز ليتولى إدارة المعـارك بنفسه ، فأصدر « فرماناً » سمّى فيه محمد علي (القائد الأعلى لجيوش الحجاز) وأطلق يديه في كل شيء يرى عمله هناك و (باستقلال تام) .. وتمنى للحملة نجاحاً كاملاً ..

وكان محمد علي قـد طلب من السلطان أن يمده بأعداد من « العمال الفنيين والمعماريين لإقامة القلاع والاستحكامات ، مع معداتهم » ، وبعدد من القذائف الصاروخية وقذائف اخرى مختلفة ذكر له أنواعها، ليستعين بذلك كله في أعماله الحربية في الحجاز ونجد ، فأرسل اليه السلطان ما طلبه ، مشترطاً عليه أن يدفع أجور المهندسين والعمال ..

الاستيلاء على المدينة

رواية ابن بشر :

يقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢٢٧ هـ . : إن العساكر المصرية ، بعد استيلائهم على وادي الصفراء وبلدان بوادي حرب (ساروا قاصدين المدينة النبوية ، وسار معهم بوادي حرب .

فنزلوا على المدينة في منتصف شوال ، وحصروها أشد الحصار ، ونصبوا عليها المدافع والقنابر الكبار ، وهدموا ناحية قلعة البلد وحفروا عليها السراديب وثوروا فيها البارود ، وكان فيها عدد كثير من جميع النواحي جعلهم فيها سعود وقت قفوله من الحج ، نحو سبعة آلاف رجل ، لكنهم ابتلوا بالأمراض المؤلمة .

ثم إن العساكر المصرية كادوهم بكل كيد ، وسدُّوا عنهم المياه الداخلة في وسط المدينة ، وحفروا سرداباً تحت سور قلعة المدينة ، وملؤوه بالبارود وأشعلوا فيه النار ، فانهدم السور فقاتلهم من كان فيها قتالاً شديداً .

ثم إن أهل المدينة فتحوا للترك باب البلد ، فلم يدرِ المرابطة إلا والرمي عليهم من الترك داخل البلد ، وذلك لتسع بقينَ من ذي القعدة ، فانحاز المرابطة وجنود المسلمين إلى القلعة فاحتصروا فيها وكانت ضيقة عليهم من كثرتهم وصار فيها خلق كثير يرتكم بعضهم على بعض ، ونصب الترك عليهم القنابر والمدافع ، فكانت القنبرة إذا وقعت وسط القلعة أهلكت عدداً من الرجال ، فكثر فيها المرضى والجرحى ، فطلبوا المصالحة بعد أيام ، فأنزلوهم منها بالأمان .

وهلك في هذه الوقعة من المسلمين – بين القتل والوباء والهلاك في البر بعد ما خرجوا من المدينة وقبل أن ينزل عليهم الترك – نحو أربعة آلاف رجل من عسير وأهل بيشة والحجاز وأهل الجنوب وأهل نجد .

وظهر باقيهم إلى أوطانهم .

وأمسك الترك «حسن قلعي» وعذبوه بأنواع العذاب ، وبعثوه إلى مصر .) .

ويشير ابن بشر إلى أن الإمام سعود بلغه سقوط المدينة ، قبل قدومه مكة للحج في ذلك العام .

رواية ابن سند :

يقول ابن سند ان الوهابيين لما علموا بوصول العساكر المصريين الجدد إلى ينبع وعرفوا عزمهم على المسير إلى المدينة ، أمروا أهالي المدينة « الجوانية » بإخلائها ، فأخلوها ، ولم يلقَ هؤلاء النازحون عن دورهم حرجاً لأن أهل « المناخة » رحّبوا بهم وأدخلوهم بيوتهم ، ولكن الغلاء اشتدّ على الناس لأن الوهابيين أخذوا (جميع الأقوات وحصروها عندهم في المدينة الجوانية) .

ولما وصل « صالح آغا الكاشف » ، على رأس ثلاثمائة فارس ، ليستكشف بأمر طوسون مواقع الوهابيين ، إلى ذي الحليفة – المسماة الآن بأبيار علي – علم بذلك أهل المدينة ، فأرسلوا اليه رسولاً (أن يقدم عليهم ليلاً ، وهم معه ، وأظهروا له بغض الوهابيين وعداوتهم ، ودلّوه على عوراتهم) ، ولكن الآغا لم يطمئن إلى هذا الكلام وظنه مكيدة ، ثم توالت عليه وفود أهل المدينة ، فاطمأن قلبه .

ويزعم ابن سند ان فتح المدينة تمّ على أيدي هؤلاء الفرسان الثلاثمائة الذين كانوا مع صالح آغا ، فقد دخل الآغا بفرسانه المدينة ليلاً حتى لا يراه الوهابيون الذين في القلعة ، وبذلك نجا من رميهم له بالمدافع التي تصل قنابلها إلى ما بعد العقيق ، فتلقاه أهل المدينة بالترحيب ، وانضموا اليه (وكان في أهل المدينة رجال معروفون بالشجاعة ، فصار بمجموع عسكره مع أهل المدينة نحو سبعمائة رام ، وأهل المدينة ، مع شجاعتهم ، أدرى بمخابىء بلدهم وطرقها . .

وقد تظاهر أهل المدينة بالعداوة للوهابيين – وصاروا يبيعون ويشترون في سوق لهم مخصوص في العنبرية ولا يمرّون إلا من الأزقة والمنعطفات – ومن لطف الله بأهل المدينة ان الوهابيين لا يحسنون ضرب المدافع على الوجه الأتم ، وإلا لأهلكوا أهل المدينة ..

ثم إن أهل المدينة اتفق رأيهم مع صالح آغا الكاشف على أن يحفروا لغماً تحت الأرض فحفروه عند حوش النخاولة .. فلما انهدم السور من هناك كبَّر أهل المدينة مع عسكر الكاشف وهجموا على داخل البلدة ، واستمر القتل بين الطرفين .. وصار أهل المدينة يهجمون على الوهابية .. من أعلى البيوت وينقبون عليهم السقوف والحيطان .. إلى أن حصروهم في القلعة ، وقد أنزل الله الخوف والجبن على الوهابيين في ذلك اليوم، مع انهم اشتهروا بالشجاعة والإقدام ، وأما في هذه المعركة فكأن الله ربط على أيديهم .. فطلبوا الأمان لأنفسهم ، ونجوا إلى نجد ، وتركوا القلعة مشحونة بأموالهم ..

وصار الكاشف يتعجب من قوة إقدام أهل المدينة ومن شدة هجومهم وتسلقهم على الوهابيين بطرق مثل البهلوانية ، إلى أن صار المدني يطلع على الوهابيين من وسط البئر تكون مشتركة بين بيتين فيدخل المدني من البيت الآخر وينزل في البئر ويصعد على الوهابيين من داخل البئر فينهزمون ويظنونه جنياً .

ولكن استشهد كثير من أهل المدينة ..

وكل هذا وأحمد طوسون ليس له علم بتلك المحاربات والمحاصرة والألغام، ولا كان يتصور العقل ان سبعمائة رجل يحاربون عشرة آلاف داخل الحصون والقلاع ويخرجونهم من حصونهم ..

ثم بعد ذلك قدم أحمد طوسون باشا بجيشه فخيَّم عرضيه خارج المدينة .)

رواية محمد البسام :

ويقول محمد البسام ، مؤلف «الدرر المفاخر»: إن محمد علي لم يغلب الوهابيين لقوته وضعفهم (لا والله ما تغلب عليهم صاحب مصر عن ضعف منهم او جبن ، بل خيانة من العربان ورضى من ساكني البلدان ..)

ويصف استيلاء طوسون على المدينة فيقول انه حاصر حماة المدينة الوهابيين ونازلهم مدة شهر او أقل ، ولما دعاهم إلى التسليم فلم يقبلوا برئت ذمته منهم ، فصبّ عليهم البارود صباً ثم هجم عليهم العسكر (فاحتصروا في القلعة الصغيرة وأعطاهم الأمـــان فخرجوا ، فإذا هم « ٥٠٠ » خمسمائة .. وكانوا من قبل اثني عشر ألفاً ..

وأعطاهم الوزير « طوسون » إبلاً وزاداً وماء وأكرمهم ، وتعجب الوهابي لكرمه ووفائه ..

وبقي مسعود بن مضيان في قصره محتصراً ، حائر الأفكار ، فدعوه بلا أمان ، وطلب الأمان فامتنع الوزير ، وقـام ابراهيم بونابرت ، وكتب له على لسان الوزير : إنك آمن . فأقبل ، وأكرمه الوزير إكراماً مفرطاً ، فلما انتهى ثلاثة أيام ، كل يوم أعظم إكراماً ممـا قبله ، جاء نهار رابع أوثقوا قيوده وناقشوه في أفعاله ، فما أجاب بحسنى ولا سيئة لمعرفته بالهلاك .

ومن الأسرى : حسن القلعي ، ضابط الحجرة الشريفة .)

رواية بركهارت :

يقول بركهارت أن أحمد بونابرت ، بعد قتال يسير مع حامية المدينة ، دخل ظاهرها واضطر الوهابيين إلى الانحصار في المدينة « الجوانية »، التي كانوا أخلوها من السكان ، وكان حول المدينة الجوانية سور ، وفيها قصر حصين .

وقد انضم أهل المدينة إلى المصريين ، ولم يكن مع المصريين مدافع ثقيـلة تستطيع تدمير السور والحصن ، فلجأوا إلى الألغام .. وأمكنهم بذلك تدمير قسم من السور ، فاستطاع العسكر الأرناؤوط الدخول من خلال هذا القسم المنهار إلى المدينة الجوانية .. وفوجيء الوهابيون بذلك وكانوا مجتمعين في المسجد لصلاة الظهر فأسرعوا إلى الحصن .. وقتل منهم في طريقهم إلى الحصن نحو ألف رجل ، ووصل إلى الحصن ألف وخمسمائة ..

وكان (طوماس كيث) – إبراهيم آغا – أول من دخل المدينة . وقد

عيّنه طوسون ، فيا بعد ، حاكماً على المدينة المنورة !.. وهذا عمل مستهجن جداً [١] ..

بقي الوهابيون محاصرين في حصنهم ثلاثة أسابيع ، فلما نفدت مؤنهم طلبوا الأمان ، فأمنهم أحمد بونابرت على أنفسهم ومتاعهم ، ووعدهم أن يعطيهم الركائب التي طلبوها لتوصلهم إلى أوطانهم ، ولكن رجال الحامية الوهابية لم يجدوا عند نزولهم من حصنهم سوى خمسين بعيراً .. بدلاً من الثلاثمائة بعير التي وعدوا بها فتخففوا من متاعهم ورضوا بما وجدوه ..

ولكن الترك تتبعوهم في الطريق وقتلوا منهم ونهبوا ..

وكان أكثر هؤلاء من عسير .

أما مسعود بن مضيان رئيس بني حرب فكان مع عياله في حصن له في بستان خارج المدينة ، فأمنوه ، لكنهم ما لبثوا أن دمروا داره وقتلوا أولاده وأتباعه ثم وضعوه في الحديد وأرسلوه إلى ينبع .. وقد استطاع الهرب خلال الرحلة ، ولكن رجالاً من عشيرته أسلموه إلى المصريين ، لقاء دنانير أخذوها منهم .

وأسر المصريون كذلك حسن القلعي ، الذي كان حاكم المدينة ، قبل استيلاء الوهابيين عليها .

إن سلوك المصريين في المدينة — وهو يطلق عليهم اسم الترك — كان مثيراً ومخجلاً وشوه سمعتهم كثيراً عند العرب ، فأصبح اسم التركي في الحجاز محتقراً. ولقد قام أحمد بونابرت بعمل همجي فظيع ، إذ جمع جماجم الوهابيين القتلى وصنع منها برجاً ، ونصبه في الطريق إلى ينبع ، وأقام حرساً لحمايته ، ولكن العرب اعتدوا على هذا البرج غير مرة. ولما زار بركهارت المدينة عام ١٨١٥ م. لم يكن قد بقي من البرج إلا شيء قليل جداً ..

أفراح القاهرة .. واستانبول :

يقول الجبرتي ان هجانة وصلوا من الحجاز الى السويس في ١٠ ذي الحجة ،

---

(١) أنظر ترجمة طوماس كيث في الصفحات السابقة ، في مبحث معركة الصفراء .

ومعهم رسول يحمل مفاتيح المدينة المنورة.. فحصل للباشا سرور عظيم وضربوا مدافع وشنكا بعد مدافع العيد .. ونودي على الناس بتزيين الأسواق ثلاث ليال وكتبت البشائر الى جميع النواحي ..

ويقول المؤرخ التركي جودت باشا ان السلطان ، حين بلغه فتح المدينة ، أمر بتوزيع الألقاب والرتب على عدد كبير من الأشخاص استبشاراً بهذا الفتح العظيم.

ولما وصل رسول محمد علي الذي يحمل الى السلطان مفاتيح المدينة — ومعه أيضاً ابن مضيان — وذلك يوم الجمعة ٢٦ محرم ١٢٢٨ هـ . أمر السلطان باجراء احتفال ديني ورسمي كبير في جامع أبي أيوب الأنصاري تسلم خلاله المفاتيح من رسول محمد علي ليحفظها في خزانة قصره وأعطى الرسول مالاً كثيراً .. وأما ابن مضيان فقد أمر بقطع رأسه .

الاستيلاء على مكة

الاستيلاء على جدة فمكة بالتواطؤ مع الشريف :

يقول بركهارت ان الشريف غـالب ، شريف مكة ، الذي أصبح مواليا للعثمانيين ، أرسل إلى أحمد طوسون يستقدمه إلى جدة ومكة ..

فأرسل طوسون جيشاً من ألف فارس وخمسمائة من المشاة ، وعقـد لواءه لمصطفى بك ، صهر محمد علي ، وهو من الذين اشتهروا بالقسوة وشدة الفتك .

انقسم جيش مصطفى بك إلى قسمين ، فذهب قسم قليـل مؤلف من بضع مئات إلى جدة ، ودخلها بأمان ..

وسار كبر الجيش إلى مكة ، ودخلها بأمان أيضاً .

وأما المضايفي فقـد كان انسحب إلى الطائف ، لاقتناعه بأنه عاجز عن مقاومة العسكر .

رواية ابن دحلان :

ويقول ابن دحلان ان الشريف غـالب كاتب العساكر الذين في ينبع وطلب منهم الحضور للاستيلاء على جـدة ومكة ، فجاءت عساكر من طريق البحر واستولت على جدة في أوائل المحرم سنة ١٢٢٨ هـ .

(وكان بمكة جماعة من الوهابية في القلعة ، يسمونهم « المهاجرين » ، فلما بلغهم وصول العساكر إلى جدة « خرجوا » من القلعة في الليل ، فأصبحت القلعة

ومكة خاليتين منهم)،فجاءت العساكر المصرية ودخلوا مكة بأمان، واستقبلهم الشريف غالب وأكرمهم .. (وكل ذلك بلا قتال بتدبير الشريف سراً ..)

(.. وكان سعود أمير الوهـــابية ، حج في سنة ١٢٢٧ هـ . ثم ارتحل إلى الطائف فالدرعية ..

ولما وصل إلى الدرعية علم باستيلاء المصريين على مكة .) .

رواية ابن بشر :

ويقول ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢٢٧ هـ . التي استولى فيهـا المصريون على المدينة ، ان الإمام سعود حجّ في ذلك العام حجته التاسعة ، وأقام على عادته في مكة إلى العشر الأواخر من ذي الحجة ، وبذل الصدقات وكسا الكعبة ،واجتمع بالشريف غالب مراراً وتهاديا ، وكان قد بلغه خبر المدينة قبل قدومه إلى مكة ، فأبقى في مكة (عساكر ممن كان معه ، وبايعه غالب « عن الخيانة والغدر » .)

ثم خرج سعود من مكة وسار إلى الدرعية ، بعـد أن أمر ابنه عبد الله أن ينزل بجميع الجنود في وادي مر ، المعروف ، قرب مكة .

(ثم بعـــد ذلك بأيام يسيرة اجتمعت العساكر المصرية وساروا من المدينة إلى مكة .

.. فوقع من غالب ما أوحش عبد الله بن سعود ، فأرسل إلى العساكر الذين في مكة واستظهرهم ، فرحل عبد الله من مكانه وانحاز إلى « الريعـان » ، ثم رحل وانحاز إلى « العبيلاء » ونزل عندها بالمسلمين .

ثم أمر عثمان المضايفي ، وكان معه ، أن يتجهز لبـلده الطائف ويضبطها ، فسار عثمان اليها .

وارتحل عبد الله من العبيلاء وتوجه إلى الخرمة .. قافلاً ، وقد دخل المسلمين الفشل ، وذلك بقضاء الله وقدره وبسبب ذنوبنا ، نسأل الله المغفرة .) .

ويردف ابن بشر ، في أخبار سنة ١٢٢٨ هـ . قائلاً :

(ثم ان طوسون والعساكر المصريين ساروا الى مكة ودخلوها بغير قتال ،

وذلك بعد ما قفل عبد الله ، فنزل طوسون قصر « القرارة » المعروف في مكة . وكان الشريف هو الذي دعاهم لدخولها ، ومالأهم عليه) .

أفراح محمد علي بهزيمة العرب والاستيلاء على مكة :

ويقول الجبرتي ، في أخبار سنة ١٢٢٨ هـ . :

(وردت البشائر من البلاد الحجازية باستيلاء العساكر على جدة ومكة من غير حرب) .. فضربوا المدافع وزيّنوا خمسة أيام ، وكان ذلك في « قوة فصل الشتاء » ..

وأرسل محمد علي باشا الكتب الى كبار الولاة في الشام والعراق ، يبشرهم بالفتح العظيم .. ليفرحوا بذلك ويخبروا من حولهم ..

أفراح استانبول :

ويقول ابن دحلان في الفتوحات الإسلامية ان محمد علي أرسل المبشرين الى دار السلطنة ومعهم المفاتيح وكتبوا اليهم انها مفاتيح مكة والمدينة وجـــدة والطائف ، (فدخلوا بها دار السلطنة بموكب حافل ، ووضعوا المفاتيح على صفائح الذهب والفضة ، وأمامهم البخور في مجامر الذهب والفضة ، وخلفهم الطبول والزمور ، وعملوا لذلك زينــا وشنكا ومدافع ، وخلعوا على من جاء بالمفاتيح ، وزادوا في رتبة محمد علي باشا ، وبعثوا له أطواخاً ، وعدة أطواخ بولايات لمن يختار تقليده) .

السلطان التركي يستعيد لقبه المفقود :

« خادم الحرمين الشريفين » :

ويقول الجبرتي ، في أخبار جمادي الثانية سنة ١٢٢٨ هـ . :

(وصل من الديار الرومية واصل ، وعلى يـده مرسوم فقرىء بالمحكمة .. ومضمونه الأمر للخطباء في المساجد يوم الجمعة على المنابر بأن يقولوا عند الدعاء للسلطان ، فيقولوا :

« السلطان ابن السلطان – بتكرار لفظ السلطان ثلاث مرات – محمود خان بن السلطان عبد العزيز خان بن السلطان أحمد خان الغازي .

خادم الحرمين الشريفين » .

.. لأنه استحق أن ينعت بهـــذه النعوت لكون عساكره افتتحت بلاد الحرمين) الخ ..

رسالة سليان باشا الى الأمير بشير :

أثبت الأمير حيدر الشهابي في تاريخه صورة الكتاب الذي أرسله والي الشام سليان باشا الى الأمير بشير الشهابي ، حاكم لبنان ، يخبره فيه بفتح مكة ، وقد استعمل فيه نعوتاً فاجرة في وصف أهل نجد ، وهـــذا هو الكتاب نورده ، بعد حذف كلمات نابية فيه ، فاليوم يعرف الناس كلهم حقيقة الدعوة السلفية الإصلاحية التي كانوا يسمونها «الوهابية» ، وأنها تمثل الإسلام في أصفى معانيه ، وأما افتراءات الخصوم وسبابهم فإنها تدل على سوء أدبهم مع ربهم ثم مع الناس ولا تضر الدعوة شيئاً .

صورة الكتاب :

(من سليان باشا المعظم والي دمشق الشام

الى افتخار الأمراء الكرام ذي القدر والاحترام ، جناب ولدنا الأعز الأمجد الأمير بشير الشهابي ، زيد مجده .

بعد التحية والسلام ، بمزيد الاعزاز والاكرام ، نبدي اليك أنه يوم تاريخه قد ورد لنــا كتاب من سعادة الأخ الأفخم والي مصر القاهرة المحترم يخبرنا ان سعادة ولده طوسون باشا بعـــد استيلائه على المدينة المنورة ، توجه بعساكره المظفرة الى جـــدة المطهرة ، وقطع دابر الوهابيــة « ... » ، وأدار عليهم الدائرة ، بقدرة ملك الدنيا والآخرة وتطهرت منهم تلك الرحاب الشريفة والديار المنيفة ، واستولى على مكة المعظمة وجدة وتلك البقاع المكرمة ، ولم يبق أحد في تلك الديار ، من اولئك الوهابية ..

وبما ان هذه البشارة تجلب السرور التام ، الى جميع الإسلام ، أرسلنا اليكم مرسومنا هــذا لكي تشهروه على الخاص والعام ، وتستجلبوا الدعوات الخيرية

لحضرة مولانا السلطان الذي هو ظل الملك العلاّم وخليفة سيّد الأنام ، ولنا ولجميع المسلمين من الرعايا وولاة الأحكام،وليكن ذلك معلوماً عندكم تعتمدونه والسلام) .

شيخ حرم مكة :

.. وابتهاجاً باستيلاء طوسون على مكة وتكريماً له ، أصدر السلطان العثماني فرماناً ثبّت فيه طوسون باشا « والياً على جدة والحبش » ، ومنحه لقب : « شيخ حرم مكة » ..

الاستيلاء على الطائف

مناوشات مع المضايفي .. ثم أسره :

سعود يعرض افتداء المضايفي .. والصلح :

لما بلغ المضايفي ، أمير الطائف ، دخول المصريين مكة وانضمام الشريف غالب اليهم ، وانضواء كثير من عربان حرب وغيرهم تحت لوائهم ، عرف أن مقامه في الطائف أصبح محفوفاً بالمخاطر ، فغادرها (منهزماً بعياله ونسائه وبعض خيله وما خفّ من أمواله ومتاعه ، ولحق بعبد الله .

وكان خروجه من الطائف في ٢٣ محرم أول سنة ١٢٢٨) .

ويقول مانجان ان طوسون أعدّ لغزو الطائف ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة وستة مدافع ، ولكن انسحاب المضايفي كفى طوسون وأصحابه القتال، فذهبت فرقة من عسكره، ومعهم الشريف غالب،واستولوا على الطائف بسلام.

ويقول بركهارت ان المضايفي لم يستسلم إلى الهدوء والدعة ، بعد خروجه من الطائف ، وكان يرهق حامية الطائف بهجمات متكررة ، ويقطع الطريق إلى مكة ، ويهاجم العساكر المصرية في أماكن وأوقات مختلفة .

ويقول ابن بشر ان المضايفي نزل « رنية » ، بعد خروجه من الطائف ، فانضم اليه جماعة من عدوان وغيرهم من أهل الحجاز ، (وقصد الطائف، وملك قصرين أو ثلاثة من أعمال الطائف ، ثم نزل قصر « بسل » المعروف .

فحين علم الشريف غالب نزوله ، سار اليه بعساكر كثيرة من الترك وغيرهم

فحصره في ذلك القصر ، وحاصر القصور التي حوله ، وأقـام على ذلك أياماً .
ثم إن الشريف استولى عليها ، وقتل كثيراً من قوم عثمان المضايفي وأتباعه ، نحو خمسين رجلاً .

(وهرب عثمان ، فلما وصل قرب « الحزم » ، ظفر به أناس من « العصمة » من عتيبة فأمسكوه وساروا به إلى غالب ، فأمسكه أسيراً ، وكان إمساكه في ١٠ رمضان .

ثم قُتل بعد ذلك .) .

ويعطينا بركهارت التفاصيل الآتية عن مصرع المضايفي :

(لقد استطاع المضايفي الهرب من بسل ، ومعه ثلاثون فارساً من أتباعه ، ولكن فرسه عقرت ، فالتجأ إلى خيمة بدوي من عتيبة ، فأخذه هـذا إلى الشريف غالب طمعاً بالجائزة ..

تمّ أسر المضايفي في أيلول سنة ١٨١٢ م .

وسلم الشريف المضايفي إلى المصريين، وهؤلاء أرسلوه إلى استانبول، بحراسة فرقة يشرف عليها اسماعيل ، أصغر أولاد محمد علي .

وفي استانبول قطعوا رأسه .

وقد ارتكب الشريف غالب خطأ شنيعاً بما فعله مع المضايفي ، ومهّد بذلك الطريق لمحمد علي ليتخلص من الشريف غالب نفسه ..)

ويقول غوان ان السلطان منح الأمير الفتى اسماعيل رتبة باشا ، لأنه أوصل اليه المضايفي وبشّره بالاستيلاء على الطائف وجلب بذلك السرور .. إلى قلب السلطان ..

ويذكر الجبرتي في أخبار سنة ١٢٢٨ هـ . ما يؤيد رواية بركهارت ، قال :

(قبل خروج الباشا محمد علي إلى الحجاز بيومين ، قدمت هجانة مبشرين بالقبض على عثمان المضايفي بناحية الطائف ، وكان قد جرد على الطائف ، فبرز اليه الشريف غالب وصحبته العساكر التركية والعربان ، فحاربوه وحاربهم ،

فأصيب جواده فنزل إلى الأرض .. فقبضوا عليه ، ولما أحضروه إلى الشريف غالب جعل في رقبته الجنزير .

والمضايفي هذا زوج أخت الشريف ، وخرج عنه وانضم إلى الوهابيين فكان أعظم أعوانهم وهو الذي كان يحارب لهم ويقاتل ويجمع العربان ويدعوهم عدة سنين ويواجه السرايا على المخالفين .. وهو الذي كان افتتح الطائف . وهدم قبة ابن عباس الغريبة الشكل والوصف) .

هل طلب سعود افتداء المضايفي وعرض الصلح :

ذكر ابن دحلان ان الامام سعود،حين بلغه أسر المضايفي، بعث إلى طوسون رسلاً يعرضون عليه مائة ألف ريال فدية له .. والصلح والكف عن القتال ، فتقابل هؤلاء الرسل أولاً مع الشريف غالب وطوسون باشا ، ثم أرسلوهم لمقابلة محمد علي باشا في مصر ، فقال لهم :

أما المضايفي فقد توجه إلى باب السلطنة ..

وأما الصلح فلا نمتنع منه ، ولكن بشروط ، منها :

- أن يدفع لنا كل ما صرفناه على العساكر من ابتداء الأمر إلى وقت تاريخه .
- وأن يأتي بكل ما أخذه من الجواهر والأموال التي كانت بالحجرة الشريفة وكذلك ثمن ما استهلك منها .
- وأن يأتي بنفسه ويتلاقى معي وأتعاهد معه ويتم صلحنا بعد ذلك .

وإن أبى ذلك ولم يأت فنحن ذاهبون اليه ..

فقالوا له : اكتب له جواباً .

فقال : لا أكتب جواباً ، لأنه لم يرسل معكم جواباً ولا كتاباً ، وكما أرسلكم بمجرد الكلام فعودوا له كذلك) .

سكوت ابن بشر ورواية الجبرتي :

لم يشر ابن بشر إلى هـذا العرض في تاريخه ، وما كنا لنكترث لكلام ابن دحلان لغلبة الغرض عليه ، ولكن الجبرتي، المعروف بصدقه وسلامة نيته أشار إلى هذا العرض وربما أخذ ذلك ابن دحلان عنه .

قال الجبرتي ، في أخبار ذي القعدة سنة ١٢٢٨ ، ما يأتي :

(وصلت أخبار بأن سعود الوهابي أرسل قصاداً من طرفه إلى ناحية جدة ، فقابلوا طوسون باشا والشريف غالب ، وقد خلع عليهم طوسون وأخذهم إلى أبيه فخاطبهم وسألهم عما جاؤوا فيه ، فقالوا :

الأمير سعود الوهابي يطلب الإفراج عن المضايفي ويفتديه بمائة ألف فرنسه ، وكذلك يريد اجراء الصلح بينه وبينكم وكف القتال .

فقال لهم : أما المضايفي فإنه سافر إلى الدولة ، وأما الصلح فلا نأباه بشروط) .

ملاحظـــة :

في رواية الجبرتي ان مقابلة الوفد لمحمد علي تمت في الحجاز ، لأن الجبرتي يقول ان طوسون (أخذهم) إلى أبيه .. بينما يذكر ابن دحلان أن اللقاء كان في مصر ..

ونحن نرجح رواية الجبرتي ، وقد أيدتها دائرة المعارف الإسلامية .

وقــد وجدنا رسالة كتبها طوسون إلى أبيه سنة ١٢٢٧ هـ . يقول فيها ان الشريف غالب أبلغه ان الوهابيين يعرضون الصلح واخلاء جميع الطرق الموصلة إلى مكة تيسيراً للحج ..

وربما كان هذا العرض هو العرض الذي نقل الى محمد علي ، فوصلت أخباره الى القاهرة ...

ولا نستغرب ، بعد هذا ، أن تكون وساطة الشريف غالب لعقد الصلح ، من الأسباب التي دعت محمد علي إلى عزله عن الشرافة ، خوفاً من قيامه بدور جديد مريب ..

قدوم محمد علي الى الحجاز ومعاركه

محمد علي في مكة :

كتب السلطان إلى محمد علي يذكّره بوعد كان قطعه.. أن يذهب إلى الحجاز ويتولى بنفسه قيادة الجيوش وإدارة المعارك ضد الوهابيين ، فلم يسَع محمد علي إلا الاستجابة لرغبة السلطان، فالأحوال في مصر الآن مستقرة وقد بطلت حجة كان يرددها للاعتذار عن السفر ، وهي : قيام الفتن والدسائس في بلاده ..

والحقيقة هي أن محمد علي أصبح ، هو نفسه ، شديد الرغبة في السفر إلى الحجاز ، لأسباب كثيرة غير إرضاء السلطان التركي ، ولعل في مقدمة تلك الأسباب : ان وجوده في الحجاز يريق عليه ألق الفتح وعظمته ويزيد من سمعته وهيبته في العالم الإسلامي، إذ يربط بين اسمه وبين فخر الانتصارات والفتوحات، بدلاً من أن يتوزع هذا الشرف بين قواد عديدين، أو ينسب إلى السلطان نفسه.

أضف إلى ذلك ان وجود محمد علي بين رجاله المحاربين يقوّي عزيمتهم ويلهب حماستهم فيحققون مزيداً من الانتصارات ، خصوصاً بعد هزيمة « تربة » التي جعلت الوهابيين ينشطون في هجماتهم على المصريين حتى قيل انهم يفكرون في استرجاع المدينة ومكة وكل ما فقدوه، ومعنى ذلك — إذا تحقق كله أو بعضه — انهيار حكم محمد علي في مصر .. نتيجة إخفاقه في الحجاز ..

وهكذا سافر محمد علي في شهر ذي القعدة عام ١٢٨٨ هـ . إلى الحجاز ..

أيامه الاولى .. في مكة :

يقول بركهارت ان محمد علي قضى أيامه الاولى في مكة بالعبـادة ومجالسة العلماء ، وكان يتظاهر بالتقوى والصلاح ، وينفق الكثير من الصدقات، ويكرم العلماء والشيوخ ، ويتعهد إصلاح الحرم المكي وتزيينه ، وكان يرى في الحرم المكي كثيراً ..

ويروي بركهارت عن محمد علي هذه القصة الطريفة :

جاء يوماً بدوي وقال له ببراءة وبساطة :

– لقـد تركت ديانة المسلمين « يعني الوهابيين » وانتقلت إلى ديانة المشركين « يعني ديانة محمد علي وجماعته » ..

فلما تُرجم هذا الكلام لمحمد علي ، تظاهر بالضحك ، وهو يكتم غضباً ، ثم قال لترجمانه : قل له : آمل انك ستبقى دائماً مشركاً ..

التموين :

رأى محمد علي الضيق الذي يعانيه أهل مكة والطائف بسبب انقطاع الوارد من البحر ، فاستأجر من سلطان مسقط عشرين مركباً ، أضافها إلى ما عنـده من المراكب ، وبذلك استطاع ضمان الميرة والتموين للأهالي وللجيش .

هموم محمد علي :

ويمكننا القول ان ثلاثة أمور كانت تشغل محمد علي وتستأثر باهتمامه، وهي:

١ – تقوية جيشه ، معنى ومادة .

٢ – تحقيق انتصارات سريعة في تربة والقنفذة ، لمنع خصومه من الاستفادة منهما ومما وراءهما .

٣ – التخلص من الشريف غالب .

احصاء خسائر العسكر السابقة ، ومقادير الامدادات :

أحصى محمد علي تكاليف حملته حتى يوم وصوله إلى مكة فوجدها قد بلغت خمسة وثلاثين مليون فرنك .

وأحصى خسائره في الجنـد فوجد أن ثمانية آلاف منهم قد ماتوا ، إما في ساحات القتال أو بالأمراض وغيرها ..

ووجد أنه فقد خمسة وعشرين ألف بعير ...

هذه الخسائر الجسيمة هي التي جعلت طوسون يلتزم ، في الفترة التي سبقت وصول أبيه إلى مكة ، خطة الدفاع ، ولكن هـذه الخسائر لم تفتّ في عضد محمد علي .. وإنمـا جعلته يجتهد في تعويضها والاستزادة من المقاتلة والذخائر والأموال ..

لما حضر محمد علي إلى الحجاز أحضر معه ألفين من المشاة ، ولكنه استقدم بعد وصوله بقليل ألفين من الفرسان ومعهم ثمانية آلاف فرس وبغل تحمل المؤن.. ثم كتب إلى مصر يطلب سبعة آلاف كيس من النقود .. وسبعة آلاف عسكري (فشرع كتخدا بك – كما يقول الجبرتي – في استكتاب أشخاص من أخـلاط العالم ، مـا بين مغاربة وصعايدة وفلاحي القرى ، فكان كل من ضاق به الحال في معاشه يذهب ويعرض نفسه ويشتري فرساً وسلاحاً .)

وقد فرض محمد علي لتأمين نفقاته الحربية المتصاعدة ضرائب جديدة، وأمر بمصادرة الملابس وغيرها من التجار في مصر .

عزل الشريف بالحيلة ونفيه :

لما وصل محمد علي من مصر ورسَتْ سفينته في الميناء أسرع الشريف غالب إلى استقباله على ظهر السفينة ، وعانقه عناقاً طويلاً ، وتعـاهد الرجلان على التناصر والتعاون والوفاء ..

ولما أقام محمد علي في مكة كان الشريف غالب يكثر من زيارته والتقرب اليه..

ولكن هـذا الود استحال بعد ذلك إلى جفاء فخصام مكبوت ، والسبب الظاهر هو : المال .

محمد علي يحتاج إلى المال لإنفاقه في حروبه والترويج لسياسته .. والشريف غالب بخيل وَشرِه إلى المال ولا يريد أن يؤخذ من الموارد المالية التي كان يتصرف بها أي شيء..

كان الشريف غالب يأخذ نصف واردات الجمارك في جدة ، وأحياناً كان يأخذ هذه الواردات كلها .. فلما عيَّن محمد علي والياً من قِبَله على جدة ، استولى هذا الوالي على رسوم الجمارك ولم يسمح لوزير الشريف غالب باستيفاء شيء منها ..

ويقول بركهارت ان الشريف شكا أمره إلى محمد علي ، فطيّب خاطره بالكلام .. ولكنه لم يحقق له شيئاً من طلبه ..

ثم طلب محمد علي من الشريف غالب أن يأمر العرب بتسليم العساكر أعداداً من الجمال يحتاجون اليها ، فأظهر الشريف الامتثال لأمره ، ولكنه لم يفعل ، وكأنه بذلك يردّ له « التحية » بمثلها ..

وهكذا تحرجت الأمور بين الرجلين، وأضمر محمد علي في نفسه الخلاص من الشريف غالب وإبداله بواحد آخر من الأشراف ضعيف الشخصية لا يعصي له أمراً.

ويمكن القول ان تفكير محمد علي في الخلاص من الشريف غالب لم يكن جديداً، ولعله كان يفكر في ذلك منذ سنتين، والأسباب التي تحمله على التشكيك في اخلاص الشريف له كثيرة :

منها ان الشريف غالب غير مأمون الوفاء، وقد سبق له التعاون مع الوهابيين وكان ينافق للفريقين ..

ومنها ان الشريف له في مكة أنصار، وله مطامع، وسيحاول الاحتفاظ لنفسه بالزعامة في مكة وجمع العرب حوله .. وطاغية مثل محمد علي لا يتحمل وجود زعيم الى جانبه ينافسه ، وقد يصبح خصماً له ..

ومنها مسألة المال .. فإلى جانب رسوم الجمارك ، كان محمد علي يعتقد ان الشريف غالب جمع ثروة هائلة وظفها في الهند ، وان نهمه إلى جمع المال لا يعرف حداً ..

وقد وجدنا في رسالة كتبها محمد علي الى السلطان بعد استيلاء الجنود المصريين على ينبع سنة ١٢٢٦ هـ. ما يثبت تشككه في أمر الشريف ورغبته في عزله، فقد كتب في تلك الرسالة الى السلطان أنه وقف على رسائل مريبة كتبها الشريف

غالب تكشف عن سوء نيته وخيانته .. فأصدر السلطان في ذي الحجة من سنة ١٢٢٦ هـ . « فرماناً » – أي أمراً ملكياً – جاء في مقدمته أن محمد علي أخبر السلطان بأن جيوشه طردت العدو من ميناء ينبع ، وأنه يستأذن السلطان بإبعاد الشريف غالب الى مكان ما ..

لذلك :

(أعطى السلطان محمد علي الحرية بأن يسجن هذا الأمير أو ينفيه الى القاهرة لأنه قام بدسائس في الحجاز .

كما فوضه باختيار خلف له بشرط أن يكون شريفاً متحدراً من بيت النبي ﷺ ، وأن يكون أهلاً للمنصب ..

ويأمر السلطان كذلك بالاستمرار في الحرب حتى تطهر الأماكن المقدسة وجدة من « أهل البدع » [١] .. ويتم النصر عليهم في الحجاز ونجد .

وبذلك يخلد اسم محمد علي ويحفظ له السلطان خدماته) [٢] .

رسالة محمد علي الى السلطان :

كتب محمد علي إلى السلطان ، بعد مقامه في مكة وغضبه على الشريف غالب ، يستأذن السلطان في التخلص من الشريف ، فأجابه السلطان في جمادى الاولى سنة ١٢٢٨ بأنه : (أطلق يديه في عمل ما يريده بالشريف غالب ، باستثناء قتله ..) .

الشريف كان يرتب مؤامرة لقتل محمد علي :

ويقول بركهارت ان محمد علي ادّعى ان الشريف غالب كان يريد قتله والتخلص منه .. وهذه الدعوى كاذبة ، ولكن محمد علي حرص على إشاعتها بين الناس ليبرر بها عزله للشريف من غير أن يثير عليه نقمة العرب ، الذين كانوا يتهمونه بقلة الوفاء والغدر بالأصدقاء لو لم يكن له مثل هذه الحجة ..

---

(١) من المضحك حقاً أن يقال عن الذين اشتهروا بمحاربة البدع .. انهم أهل البدع .

(٢) ترجمنا الفرمان عن ترجمة فرنسية في مجموعة « نعوم حايم » .

لقد حاولنا الوصول إلى الرسائل التي كتبها الشريف ووقعت بيد محمد علي لعلنا نجد فيها مـا يثبت ، أو ينفي ، دعوى محمـد علي ، فلم نوفق إلى ذلك ، ولكننا وجدنا حاشية كتبها السلطان على رسالة لمحمد علي يقول فيها: «انهم .. كانوا ينوون محو محمد علي وإزالته ، وأنا أدعو الله ، وهو خير الحافظين ، أن يحفظه » .

كيف أمسك محمد علي بالشريف ثم نفاه ؟

يقول بركهارت ان محمد علي لم يستطع عزل الشريف غالب بالسهولة التي يعزل بهـا أحد رجاله ، لأن للشريف أنصاراً ومكانة وقد مضى عليه في منصبه ثمان وعشرون سنة.. وعند الشريف حرس قوي يتألف من ألف جندي وثمانمائة عبد ، وله قصر حصين يقيم فيه على احدى تلال مكة .. وهكذا كان عزل الشريف أو أسره يهدد بإثارة أزمة وقد يكون سبباً في نشوب حرب .

لذلك لجأ محمد علي الى اسلوب من أساليبه الناجحة التي استعملها للتخلص من خصومه في مصر ، كزعماء المماليك وغيرهم..وهذا الاسلوب يقوم على استدراج الخصم بالحيلة والمكر للحضور بمفرده الى قصره ، ثم إمساكه وإبعـاده أو قتله .. ثم إبلاغ الجمهور أنـه ارتكب جريمة شنيعة استوجبت سجنه أو قتله ، حماية للبلاد والعباد من الأخطار والشرور والفتن ... الخ .

نفذ محمد علي خطته بدقة وإحكام ، فجعل ابنه طوسون يعود من جدة الى مكة ، وبذلك استدرج الشريف للذهاب اليه وتحيته في قصره .

ولما دخل الشريف قاعة الضيوف ، فاجأه أحد الضباط – ومعه عـدد من الجنود وقد شهروا سيوفهم – قائلاً :

– ان السلطان أمر بعزلك وإبعادك .

فقال الشريف : لقد أفنيت عمري في خدمة السلطان ، ولن أخشى مقابلته.

ولكن الضابط أمسك به ، ثم أبعده ، بأمر محمد علي ، الى مصر ، وأرفقوه بابنيه وزوجته وبعض رجاله .

ثم طلب السلطان من محمد علي نفي الشريف غالب الى مدينة « سلانيك » اليونانية ، وكان يحكمها الترك ، فنقلوه اليها وخصصوا له راتباً شهرياً .

ومات الشريف غالب هناك بالطاعون سنة ١٢٣١ هـ.

أما منصب الشرافة، الذي شغر باعتقال الشريف غالب وعزله ، فقد اختار له محمد علي الشريف يحيى بن سرور بن مساعد ، ابن أخي غالب ، ولكن محمد علي لم يترك له أية سلطة .

رواية ابن بشر :

ويقول ابن بشر في قدوم محمد علي الى مكة وما كان بينه وبين الشريف غالب بن مساعد ما يأتي :

(وفي هـذه السنة ١٢٢٨ – في ذي القعدة ، قدم محمد علي صاحب مصر مكة المشرفة ، بالعساكر العظيمة وقدم معه الحاج المصري ، فلما دخل مكة واستقر به القرار فيها ، سار اليه الشريف غالب للتحيـة ، فأكرمه محمد علي وعظمه وأعطاه عطاء جزيلاً ، وفعل معه بالظاهر فعلاً جميلاً ، وكان قصده غير ذلك ..

فلما ضبط محمد علي مكة بالعساكر وزاره الشريف على عادته ، أمسكه وقيّده وحبسه، وأحاط بجميع ما يملك من الأموال والأثاث وغير ذلك مما يعجز عنه الحصر، وأخرج حرمه وعياله من قصر «اجياد» المعروف في مكة واستولى عليه ، وأمسك كبار بنيه وقيّدهم وحبسهم معه واستعمل في مكة شريفاً يحيى ابن سرور ، أخا غالب ، ونادى بالأمان لأهل البلد ، وادّعى ان هـذا أمر السلطان .

وكان قبضه على غالب وبنيه لعشر بقين من ذي القعدة .

وهرب من مكة أكثر الأشراف وأتباع غالب وسكنوا الجبال ..

ثم إن محمد علي جهز غالب وبنيه عبد الله وحسين إلى مصر ، فلما وصلوه ، أرسل غالب شكاية إلى السلطان وهو محبوس في مصر ، فورد الأمر من السلطان

أن يكون الشريف وأبناؤه في سلانيك ، ويعطى مـــا يلزمه من خراج وغيره ويُردّ عليه شيء من أمواله ..

ويقول ابن بشر أيضاً :

(ثم ان محمد علي أراد أن ينصب الشريف (راجح) ويكون بابا للعرب[1]، فلم يأمنه راجح وهرب منه ونزل على غزو المسلمين من أهل الحجاز عند بلد تربة .

ثم خرج يحيى بن سرور من مكة وأظهر أنه يريد الغزو على البوادي ، ومعه شرذمة على العرب والترك ، فلما قرب « الخبت » هرب بمن معــه من العرب إلى ناحية تهامة وعسير ، خوفاً على نفسه .

ورجع الترك الذين كانوا معه) .

---

(١) هكذا جاءت في ابن بشر : « بابا » للعرب . ولعل كلمة « بابا » تصحيف أو خطأ مطبعي.

معارك تربة

« غالية » تقود المعارك وتهزم الجيوش
يقول الترك ان الجن في خدمتها ..
.. ويشبهها الفرنسيون ببطلتهم جان دارك !

في شعبان من سنة ١٢٢٨ هـ . أمر طوسون قـائد جيوشه التي استولت على جدة ومكة والطائف « مصطفى بك » أن (يتابع حملاته ويطهر أعالي الحجاز من « جيوب » المقاومة النجدية) .

وكانت البلدة الأولى التي يجب عليه الإستيلاء عليها و « تطهيرها » .. هي : (تربة) !

كان مصطفى بك يظن أنه مدعو إلى نزهة ، لا إلى معركة ، فما قيمة هـذه البلدة الصغيرة متى قورنت بالمدن الكبيرة التي احتلها في سهولة ويسر ؟

أما المدافع والأسلحة والذخائر التي كان مصطفى بك يحملها معه ، فلم تكن معدة في حسابه لاقتحام تربة ، وإنما كان يريد – في غروره – أن يفتح بها بلدان عسير وتهامة واليمن !..

يقول ابن بشر إن مصطفى بك اصطحب معه الشريف « راجح » مع جموع من البوادي الذين نقضوا العهد وتابعوا الترك » ، ويكتفي من وصف المعارك التي وقعت في تربة بقوله إن العساكر المصرية (قصدوا بلد تربة ، وفيها مرابطة من أهل نجد وغيرهم ، فحاصروها ثلاثة أيام ، ثم أقبل مدد من أهل بيشة وغيرها

لأهل تربة ، فلما أقبل الترك كمنوا لهم وناوشوهم القتال ، فخرج كمين المسلمين على المحطة والخيام ، فانهزمت تلك العساكر والجموع ، فاستولى المسلمون على محطتهم وخيامهم ، وقتل منهم قتلى كثيرة ورجعوا مكسورين) .

ويبدو لنا أن هذا الوصف لمعركة تربة ، التي تناقل المؤلفون في بلاد الغرب أخبارها باسهاب واعجاب ، أقل مما يجب أن يقال في نضال تربة البطولي بل « الاسطوري »، وفيه كذلك غمط لحق زعيمة تربة : البطلة (غالية) ، التي لم يشر اليها ابن بشر اطلاقاً .

لذلك رجعنا إلى كتب غربية ومخطوطات عربيـة نادرة لاستقصاء أخبار تربة وبطلتها .

ونحب أن نقول باديء بدء إن سكان تربة هم من عشيرة (البقوم) ، وقـد دخلوا في دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وعاهدوا الإمام عبد العزيز على السمع والطاعة سنة ١٢١٢ ﻫ .

الزعيمة غالية :

يقول بركهارت ان عرب البقوم – سكان تربة – بدو وفلاحون ، وكان الشيخ « خرشان » رئيسهم « اسماً » ، ولكن زعيمتهم الحقيقية كانت « غالية » أرملة أحد كبار تربة ، وكانت واسعة الثراء ، توزع الأموال والطعام على فقراء العشيرة ، وكانت مائدتها منصوبة دائماً لكل الوهابيين ، وكان رؤساء الوهابية يعقدون مجالسهم في دارها .

كانت هذه المرأة الوهابية ، لعقلها وحكمتها وكمال معرفتها بشؤون العشائر ، مسموعة الكلمة ، مطلوبة مشورتها ، وكانت تحكم قبيلة البقوم وتوجهها ..

هذه البطلة العظيمة هي التي هجمت برجالها على عساكر مصطفى بك وجموعه ، لأنها لم تكتف بالدفاع عن بلدتها خلف الاسوار ، وإنما خرجت على رأس فريق من رجالها ، بعد أن خطبت فيهم واستثارت نخوتهم ، فقاتلت العساكر التركية المصرية قتالاً شديداً حتى انهزموا أمامها هزيمة منكرة ،وهربوا لا يلوي أحد على أحد ، تاركين خيامهم وأمتعتهم وبعض مدافعهم ..

كيف وقعت هذه الهزيمة :

كان جنود طوسون الذين عادوا سالمين من المعركة، لا يتحدثون إلا عن «غالية».
هذه المرأة التي ظهرت أمامهم على حصانها في صورة «عملاق هائل» لا يستطيع أحد قهره ، فهو قوي بنفسه ، وقوي أيضاً بأعداد من الجن تحيط به وتسرع في تنفيذ أوامره ..

كان الجنود العائدون يقصون من أخبار « غالية » وعجائب أمورها شيئاً كثيراً ، وأقل ما كانوا يقولونه عنها انها ساحرة عظيمة ، وكانت الأساطير التي يتناقلونها تسهم في اضعاف « معنويات » الجنود وتثبيط عزائمهم .

غالية في الكتب الفرنسية :

لا تكاد تجد مؤرخاً افرنسياً يغفل اسم « غالية » في كلامه عن مصر وحملة محمد علي في جزيرة العرب ، وقد شبهها بعض المؤرخين الافرنسيين ببطلتهم (جان دارك) ، التي اشتهرت ببطولتها الخارقة في محاربة الانكليز الذين احتلوا قديماً جزءاً من فرنسا، فلما وقعت جان دارك في أيديهم أحرقوها بالنار، فكانت شهيدة الحرية ، واتخذها الوطنيون الافرنسيون بطلة قومية، وجعلتها الكنيسة : « قديسة » .

ويقول المؤرخ الفرنسي « دريو » ان هزيمة المصريين في تربة أمام (غالية) كانت ضربة قاصمة لسمعة محمد علي وابنه طوسون ، لذلك أسرع محمد علي في السفر من مصر الى الحجاز لتدارك الأمر ..

ويقول المؤرخ « غوان » ان غالية كانت ، في نظر المصريين ، ساحرة تعطي الجنود الوهابيين « سراً » يحصنهم من الهزيمة ، فلا يستطيع أحد أن يغلبهم ،بينما يغلبون هم كل من يقاتلهم ..

وكان يسيطر على المصريين مزيج من الخوف والتطير لم تنفع في تبديده حيلة!

لقد أضعف انتصار غالية عزائم المصريين ، ولكنه قوى عزائم الوهابيين ، ففكروا في استرداد (المدينة) والبلدان التي فقدوها في معارك سابقة !.

غالية في الكتب العربية :

لا نجد في كتب التاريخ السعودي ذكراً لغالية ، استثني اشارة عابرة لأمين الريحاني في كتابه « نجد وملحقاته »، فقد قال، نقلاً عن المؤرخ الفرنسي مانجان: (ان الحملة الثانية على تربة عادت تحدث عن بدوية باسلة كانت في طليعة العربان تحرضهم على القتال .. وهي غالية امرأة أحد مشايخ سبيع) .

أما الجبرتي فقد ذكر في أخبار صفر سنة ١٢٢٩ عودة مصطفى بك إلى مصر ، بعد أن نقم عليه محمد علي ، لهزيمته في تربة (المتأمرة عليها امرأة حاربته وهزمته ..)

ثم ذكر في أخبار جمادى الاولى من تلك السنة هزيمة طوسون في تربة (التي بها المرأة ، التي يقال لها : « غالية ») .

وقال الرافعي في تاريخه ان طوسون أرسل أحد قواده مصطفى بك لمهاجمة تربة (فانقضّ الوهابيون ، وكانوا بقيادة سيدة تسمى غالية ، أثارت فيهم الحمية والحماسة ، فأعملوا في الجيش المصري قتلاً إلى أن وقعت الهزيمة ، وارتد المصريون بغير نظام إلى الطائف) .

وقال الأب لويس شيخو ، في بحث نشره في مجلة المشرق عام ١٩٢٠ م . ان الوهابيين في تربة خرجوا لمحاربة المصريين (وكانت في مقدمتهم امرأة تدعى غالية ، زوجة شيخ قبيلة « صبيح » تهزج وتهوّس القوم ، فأبلوا البلاء الحسن وكسروا المصريين وضبطوا كل أثقالهم وأسلحتهم) .

وذكر محمد البسام في كتابه المخطوط ، المحفوظ في مكتبة المتحف البريطاني ما يأتي :

(البقوم .. الحاكمة عليهم امرأة اسمها « غاليـــة » ، ذات رأي وتدبير ، وحزم وشجاعة ، لم يدركها أشد الرجال .

وهذه المرأة المذكورة في القلعة المسماة « تربة » .

وأما بلدها فبلد واسعة ، أرزاقها تأتيها من الطائف) .

هزيمة تربة الثانية :

بعد هزيمة مصطفى بك في تربة ، التي قُدّر عـدد القتلى فيها من جنوده بما يقرب من ألف قتيل ، أمر محمد علي ابنه طوسون أن يستولي على تربة ، ليمحو عار الهزيمة التي ألحقتها بالجيش .. امرأة !

وفي عام (١٢٢٨) ، سار طوسون الى تربة على رأس جيش من ستة آلاف مقاتل ، وكان معه ستة مدافع ، وكان يرافقه عابدين بك ، الذي اشتهر باعتقاله للشريف غالب !

ويقول مانجان ان الشريف راجح سار أيضاً مع الحملة الطوسونية ، ولكنه اختار لها طريقاً طويلاً جداً استنفدت خلاله أكثر مؤنها وأصابهـا التعب والإنهاك ، وكان ذلك بسبب شدة حقده على محمد علي الذي نصّب الشريف يحيى والياً على مكة .. (وقد هرب الشريف راجح بعد ذلك وانضم الى الوهابيين).

ويقول بركهارت : (إن الجنود المصريين — الذين كانوا متعبين ويعتقدون فوق ذلك بسحر غالية ويخافونها خوفاً شديداً — قالوا لطوسون إن استمرارهم في القتـال سوف يفنيهم ولا يبقي على أحد منهم ويكفي أن عدد قتلاهم في اليوم الأول بلغ سبعمائة قتيل.. فأفضل الرأي الانسحاب والعودة الى مكة والطائف، وانتظار أيام أحسن .

اضطر طوسون الى الرضوخ لهذا الرأي ، لأنه رأى بوادر العصيان والتمرد من جنوده ، وكتب الى أبيه رسالة يذكر فيها سبب إخفاقه ..

ثم انسحب بجيشه الى الطائف ، بعد أن أحرق خيامه .

ولكن الوهابيين استطاعوا انتزاع مدفعين من مدافعه) .

ويقول الجبرتي ان طوسون حاصر تربة ثمانية أيام فلم يقدر عليها فتراجع عنها منهزماً .

رسالة محمد علي الى الجيش :

ويقول مانجان ان محمـد علي أرسل مفتشاً من قبله للتحقيق في أسباب هزيمة تربة .

وكتب محمد علي – بعد عودة المفتش – رسالة الى رؤساء الحملة الثانية على تربة ، قال فيها :

(.. أنا أعرف أن سبب الهزيمة لا يعود اليكم ، وإنما يعود الى العربان ، وقد عاقبتهم !

أنتم رجال شجعان ، وموقفكم في الساعات الحرجة يستحق الثناء والتقدير .

يجب ألا تيأسوا ، ففي الحرب نجاح وإخفاق !

إن فقدان المؤن هو وحده سبب رجوعكم الى الطائف !

وسوف يلقى المسبب لهذه الخيانة جزاءه الذي يستحقه !) .

حمل رسالة محمد علي رسول خاص ، وكانت ترافقه قافلة محملة بالأموال والملابس والخيام.. فأعطى طوسون الجنود ما شاء و « طيّب » خواطرهم وأثار حماستهم لحملة قادمة !.

معركة تربة في رواية « ابن بشر » :

ويقول ابن بشر : (إن محمد علي سيّر ابنه طوسون بالعساكر العظيمة والجموع الكثيرة إلى جهة الحجاز واليمن ، وكان أدنى ما يليهم تربة ، وكان قد حصنها سعود بالبناء ، وأعدّ فيها عدة للحصار ومرابطة ، واستنفر أهل الحجاز واليمن وأمرهم أن ينزلوا مرابطة حولها ، ثم أقبل طوسون ومن معه من العساكر والجموع ونازلوا أهل بلدة تربة وحاصروها نحو أربعة أيام ونصبوا على قصورها المدافع والقنابر ورموها رمياً كثيراً فلم يؤثر فيها شيئاً ، وأنزل الله الرعب فيه وعساكره ورحل منها بعد ما قُتل من قومه قتلى كثيرة ، ومع الترك في هذه الموقعة من البوادي بني سعد وهذيل وناصرة .) .

آخر معـــارك سعود

انتصار سعود في الحناكية :

كانت الأشهر الخمسة الاولى من سنة ١٢٢٨ هـ. ، التي عقبت استيلاء المصريين على الطائف ، أشهراً هـــادئة ، انصرف فيها المصريون إلى الراحة والدعة ، ولم يعكر عليهم صفوهم أحد ، باستثناء حملات يسيرة قـــام بها الإمام سعود في (الحناكية) و (أُحد) ، وكانت آخر معاركه ، رحمه الله .

قال ابن بشر في أخبار سنة ١٢٢٨ :

(.. في آخر ربيع الأول سار سعود بالجيش المنصور ، من جميع النواحي وآفاق نجد ، الحاضرة والبـــادية ، وقصد (الحناكية) ، الماء المعروف قرب المدينـــة النبوية ، وكان في قصرها عسكر من الترك مع عثمان كاشف ، وعلى الماء أعراب من حرب وغيرهم ، فلمـــا أقبل عليهم هرب البوادي بإبلهم وتزبّنوا الحرّة ، فدهمهم المسلمون في منازلهم وأخذوا مـــا وجدوا فيها من الأثاث والأمتاع .

ثم إن سعوداً نازل العساكر التي في ذلك القصر ، وهم نحو ثلاثمائة فـــارس ومقـــاتل ، وحاصرهم ، فهَمّ المسلمون أن يتسوّروا عليهم الجدار ، فطلب العسكر من سعود العفو ،فمنع عنهم المسلمين،فنزلوا بالأمان على دمائهم وأموالهم، وشرط عليهم أن يسيروا إلى ناحية العراق ، فساروا اليها ..

في أحد :

ثم إن سعوداً رحل من الحناكية وسار إلى جهة المدينــــة النبوية ، فغنم في طريقه من بوادي حرب مغانم كثيرة ، فلما قرب من جبل أُحد وإذا خيل من الترك وجيش من حرب قــد أقبلت ، فأغارت عليهم خيل المسلمين وقتلوا منهم نحواً من ثلاثين فارساً ، وكان الجيش قد هرب قبل الخيل وتزبّن المدينة .

ثم نزل سعود على (أبا الرشيد) ، عند البلد ، وهرب أهل البرك عنها .

في السوارقية :

ثم رحل ونزل (الحساء) [1] ، ثم سار في وادي الصفراء فأحرق في الفرع نخيلاً وقتل رجالاً ثم سار في الحرّة ونزل على أهل بلد (السوارقية) فحصرهم ونزلوا منها بالأمان على نصف الحلقة وشطر ما تحت أيديهم ، فأقام عليهم مدة أيام ، وجمع فيها الغنائم وقسمها على المسلمين للراجل سهم وللفارس سهمان) .

---

(١) الحساء هي المعروفة اليوم بآبار علي ، وهي ميقات أهل المدينــة المسماة بذي الحليفة – تاريخ ابن بشر ، طبعة وزارة المعارف ، من حاشية للمحقق – .

وفاة سعود

قال ابن بشر :

(وفي هذه السنة — ١٢٢٩ هـ. — توفي الإمام قائد الجنود الذي اجتمعت له السيادة والسعود : سعود بن عبد العزيز بن محمد بن سعود .

.. وكانت وفاته ، رحمه الله تعالى ، ليلة الإثنين حادي عشر شهر جمادى الأولى من هـذه السنة ، فكانت ولايته عشر سنين وتسعة أشهر وأيام . وموته بعلة وقعت أسفل بطنه أصابه منها مثل حصر البول) .

الدولة الوهابية عند وفاة سعود :

كانت الدولة الوهابية ، يوم وفـاة سعود ، ما تزال باسطة راياتها على البلاد الممتدة من الخليج الى البحر الأحمر ، ومن اليمن الى أطراف العراق والشام .

أما المنطقة التى خرجت عن طاعة سعود فرقعة من الأرض تضم مكة والطائف وساحل الحجاز والمدينة المنورة ، وكانت مرتفعات الحجاز ، كتربة ، وأكثر بلاد عسير وتهامة ، تقاوم محمد علي وتتغلب أحياناً على جنوده .

ولذلك قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في مقاماته ، بعد ذكره استيلاء المصريين على مكة والمدينة والطائف في عهد سعود :

(ان الله أبطل كيد العدو وحمى الحوزة وعافى المسلمين من شرهم ، وصار المسلمون يغزونهم فيما قرب من المدينة ومكة في نحو من ثلاث سنين أو أربع ،

فتوفى الله سعود وهم غزاة على ما كان مُعيناً لهذا العسكر من البوادي ، إلا ما كان من مكة والطائف وبعض الحجاز) .

ويذكر ابن بشر أن المقاومة كانت قائمة في بعض مناطق الحجاز خلال أيام سعود الأخيرة ، فلم يهدأ للمصريين وأنصارهم بال ، وكان (الشريف راجح ومن تبعه ، وغصاب العتيبي ومن معه من أهل الحجاز واليمن من جنود المسلمين نازلين فيما بينهم وبين بلدة تربة ، يصابرون تلك العساكر ويديرون فيهم الرأي) .

وقد سار في المحرم من سنة ١٢٢٩ كل من (حجيلان بن حمد ، أمير القصيم ، بأهل القصيم ، ومحمد بن علي صاحب الجبل بأهل الجبل ، جيشهم نحو ثلاثمائة مطية ومعهم من البوادي قريب ذلك ، وأغاروا على عياد الذويبي ومن معه من بوادي حرب ، وهم قرب الحناكية ، المعروفة ، فنزلوا على البوادي وبنوا خيامهم ووقع بينهم قتال شديد) .

ويذكر ابن بشر ان عبد الله بن سعود كان عائداً من غارة قام بها على بوادي حرب في الحجاز وكان لقيهم في الحرة قرب قرية الصفينة ، وأخـذ عليهم إبلاً وغنماً كثيراً ، فلما وصل الى « الخانوقة » بلغته وفاة أبيه .

جوانب الضعف في سياسة سعود

قلنا غير مرة في هـــذا الكتاب إن الإمام سعود بن عبد العزيز من أفاضل الرجال ومن عظماء الزعماء ومن كبار الأئمة السعوديين ، ولكننا لا نراه – لا هو ولا غيره ! – معصوماً من الزلل ، مجرداً من الأخطاء والنقائص البشرية ، وإن كانت كفـــة حسناته ومزاياه هي الراجحة كثيراً ، وكثيراً جداً .. وقديماً قال الشاعر :

(ومن ذا الذي ترضي سجاياه كلها
كفى المرء نبلاً أن تُعَدَّ معايبه)

ولقد قرأ بعض الأفاضل فصلاً من كتابنا فلم يستحسن إشارتنا إلى « حدّة » كانت في الإمام سعود ، و « شدّة » شابت سياسته في معاملة الدول الاخرى ، وخصوصاً الدولة التركية ، وهذا – في رأينا – لون من « التعصب » لا نشارك فيه صاحبه ، ولسنا وحدنا في انتقادنا لجانب من سياسة الإمام سعود ..

الملك عبد العزيز ينتقد سياسة سعود :

يقول الشيخ حافظ وهبه انه سمع من جـــلالة الملك عبد العزيز ومن بعض شيوخ نجد انتقاداً لسياسة سعود ، وخلاصة هــذا النقد (انه في الوقت الذي غاضب فيه سعود الأتراك وردّ حاجهم ، وكان فيه إحدى بنــات أو شقيقات السلطان التركي ، كان يتهادى مع شاه إيران ويتقرّب منه .

كما ان جلالته انتقده أيضاً في قبول نصائح الشريف غالب ، التي لم تكن تنطوي على الإخلاص،بل كانت تنطوي على استثارة الناس ضد الحكم السعودي ، وان الشيخ عبد الرحمن بن حسن قد نصح سعوداً بعدم الإصغاء لنصائح الشريف غالب ، كما نصحه أيضاً بالاعتدال في معاملة الأتراك والمصريين، غير ان سعوداً كان شديداً ، كما أنه كان شديد التعصب لرأيه .) (١)

دفاع الأمير شكيب عن مصافاة سعود للعجم :

ويرى الأمير شكيب أرسلان ان مصافاة سعود للعجم كانت سياسة بارعة .. قال :

(.. كان الأمير سعود بن عبد العزيز رجلاً ماهراً في السياسة ، فرأى انه ما دام مقاوماً للسلطنة العثمانية فلا بد له من أن يصافي أعداءها ، فتودّد إلى شركة الهند الانكليزية وإلى العجم ، وأمر جماعته بالمحافظة على قافلة الحج الفارسي تزلفاً إلى فتح علي شاه .) (٢)

رواية بركهارت عن ندم سعود :

روى بركهارت عن لسان الإمام سعود كلمات قالها في آخر أيامه، تدلُّ على ندمه على الشدة التي استعملها في صِلاته ببعض الدول الأجنبية ، وعلى تشدُّده في بعض أوامره ونواهيه .. فقد قال : (لولا هذه الأمور والتصرفات لوصلت دعوتنا إلى القاهرة واستانبول .) والله أعلم !

---

(١) كتاب (جزيرة العرب) لحافظ وهبه .

(٢) كتاب (حاضر العالم الاسلامي) الجزء الرابع .

أقوال المؤلفين العرب في سعود

كتاب الريحاني

قال أمين الريحاني في كتابه (تاريخ نجد وملحقاته) :

(.. في ١١ وقيل في ٨ جمادى الأولى من السنة ١٢٢٩ هـ = ٢ أيار ١٨١٤ م. مات في الدرعية الامام سعود ، وهو في الثامنة والستين من عمره . مات لا بالحمى – كما قال هوغارت نقلاً عن أحد المستشرقين الذين كانوا يومذاك في مكة – بل بعلة المثانة ، وقيل بعلة أخرى ، هي نكبة أهل نجـد في الحجاز ، التي عجلت ولا شك في أجله .

وقد كانت ولايته إحدى عشرة سنة ، إذا حسبناها من يوم وفـــاة والده عبد العزيز ، وسبع وعشرين سنة إذا عدّت من يوم بويع بالإمارة في السنة الثانية والمئتين والألف .

كان يدعى **بالكبير** ، وقد خصّ بتلك السجايا أو بأكثرها ، التي تؤهل رجل التاريخ لهذا اللقب . **فقد كان في عظمته متواضعاً ، وفي حكمته ورعاً ، وفي عدله حليماً** ، وفي سياسته جامعاً بين المرونة والمضاء ، أضف الى ذلك ذكاءً لم يكن عادياً ولم يقف به عند حد السياسة ، فقـــد كان مولعاً بالعلم محباً للعلماء فلم يستنكف من عقد مجالس للمطالعة والتدريس في قصره وتحت إشرافه عندما يكون في العاصمة ، بـــل كان هو يتولى التعليم في بعض الأحايين فيدهش حتى

العلماء بما كان يحسنه من علمي التفسير والفقه ، وبالرغم من تعدد مشاغله ومشاكل ملكه البعيد الأرجاء كان يزور مجالس التدريس العامة فيطلع على أعمال الطلبة ويجزي منهم الأذكياء المجتهدين .

وقد كان سعود كبيراً في أخلاقه مثله في أعماله ، لا ينكر الفضل على ذويه وإن كانوا من أعاديه ، ولا يقف في إحسانه ومكارمه عند شبهات النفس وأهوائها ، مثال ذلك معاملته للشريف غالب على ما كان يبطنه الشريف من الكيد والغلّ ، فلو كان فاتح مكة غير سعود ، لو كان محمد علي مثلاً ، لما أذن للشريف بالعودة اليها بعد أن فرّ منها هارباً إلى جدة .

الحرب خدعة !

أما في غزواته وفتوحاته فلم يكن ليخرج عن القاعدة : ان الحرب خدعة !

وللعرب في ذلك أساليب تقترن فيها السذاجة بالدهاء ، فقد كان سعود إذا أراد أن يغزو الى جهة الشمال يُظهر أنه يريد الجنوب أو الغرب والعكس بالعكس . وعندما نزل الرقيعة في غزوة الأحساء أمر رجاله أن يوقد كل واحد منهم ناراً وأن يطلقوا كلهم البنادق دفعة واحدة فارتجت الأرض وأظلمت السماء وأسقط كثير من الحوامل في الأحساء . هذه الطريقة في الحرب ، طريقة الإرهاب والترويع ، مألوفة عند العرب خصوصاً عند أهل نجد .

ولا حاجة لذكر البسالة ، في سعود الكبير ، والإقدام وعلو الهمة والمرام ، فإن في فتوحاته الشاهد الأكبر على ذلك .

مزيتا حكمه :

أما حكمه فقد كان له مزيتان كبيرتان رائعتان هما : الأمن والعدل :

الأمن : وكان أساسه العقاب الشديد السريع بموجب الأحكام الشرعية .

والعدل : وكان أساسه الأمتن المساواة وعدم المحاباة .

نقيصة حكمه :

بيد أنه لم يكن على شيء من الإدارة ، ولا كان النظام – ما عدا بعض قواعد أساسية تتعلق بالجيش – معلوماً ، فلم يكن يربط النواحي القصية بعضها ببعض

غير كلمة الأمير ، ولم يكن ليحفظها وثيقة العرى غير صولته ، فإذا ذهبت الصولة ذهب الملك !

فؤاد حمزة :

قال فؤاد حمزة ، في كتابه : (قلب جزيرة العرب) :

(.. عصر سعود الكبير يحسب بحق الدرّة اللامعة في تاريخ حكومة آل سعود الاولى ، فقد اكتسبت دولته على زمانه أكبر رقعة وأعظم موقع ، وحين نشوب الحرب بينه وبين المصريين والترك قبيل وفاته بقليل كانت بلاده ممتدة من أطراف عمان ونجران واليمن وعسير إلى شواطىء الفرات والبادية السورية ومن الخليج الفارسي إلى البحر الأحمر .

توفي سعود في الدرعية عام ١٢٢٩ هـ . (١٨١٤ م .) بعد أن شهد العظمة التي بلغتها بلاده ، وقد كان سعيداً بموته قبل أن يرى ما حلّ بها على يد الدولة العثمانية .)

محمد البسام :

قارن محمد البسام ، في كتابه : (الدرر المفاخر) بين سعود وبين آبائه ، فقال إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب أسّس دعوى دينية لا دعوى دنيوية (فلما تبيّن بهذه الدعوى ، وكشف ما أسرّ من النجوى ؛ حكم محمد بن سعود حتى أقام على تخته مدة ، ثم حكم ابنه عبد العزيز وقامت الامور بأمره غاية القيام ، وخدمته كما يشاء الليالي والأيام ، ثم بعده ابنه سعود ..

أما محمد وعبد العزيز فطلبهم بذلك نشر الإسلام ، وتبيين شرائعه والاعلام ، وكفروا من أبى عن طاعتهم ، وقاتلوه بغاية استطاعتهم .

وأما سعود .. فعنده حقيقة ان الإسلام موجود في سائر المشارق والمغارب ، لكن لا يمكنه نفوذ أوامره في طلب الملك إلا بدعوى آبائه ، ففعل فعلهم في الدعوى الذين هم أسسوها .

وبعده ابنه عبد الله بن سعود ، الذي ختمت به دولتهم بقهر عزيز مصر محمد علي باشا ، وجميع ملكهم ما تجاوز مائة سنة .) .

مؤلف لمع الشهاب :

ويقول مؤلف « لمع الشهاب » :

(لا يخفى عليك ان سعود لما ولي الأمر بعـد أبيه كانت هذه أحواله : انه يلبس الثياب « النعيم » مصبوغة وغير مصبوغة ، وغالب مـا يلبسه « قميص » من البز الهندي اللطيف ، لكنه من الكرباس ، وقبـاؤه فيأخذه من ذلك البز ، ولكن يأمر بصبغه باللون العودي او السمائي ، وقلما يلبسه أبيض ، وكان يستعمل العباء السود التي تصنع بالأحساء من غير طرفيها وتحاط بالحرير الأحمر وفي حواشيها قليل من الحرير الأصفر او الأخضر خيطت به على ما هو العادة في خياطة العباءة الأحسائية ، ويسمى هذا النوع العباءة « القيلانية » ، لأن نوع صوفها عندهم يسمى القيلاني ، وهو نعيم جداً يشبه « الكلك » .

وكان يحمل السيف دائماً ، وسيفه عليه من الفضة والذهب والجواهر ، مرصع غلافه بها على صفحات الذهب من جانب أعلاه وأسفله ، وكان السيف لا يبرح معه حتى في مضجعه في فراشه مع زوجته ، لأنه كان غير آمن على نفسه بعد مقتل أبيه عبد العزيز غيلة ، وقد مرّ بيانه .

وكان تحته أربـع نسوة بالعقد وست جوار من الكرج ، أرسل بعض النـاس خفية إلى أطراف بلاد الروم فاشتروهن له بقيمة كثيرة ، قيل كل واحدة اشتراها بثلاثة آلاف ريال أو أكثر لأنهن متناهيات في حسن الصورة ، وله أيضاً عشر وصيفات حبشيات ، بعضهن أهـداه اليه الشريف حمود أبو مسمار صاحب أبي عريش وتهامة اليمن ، وبعضهن أتاه بهن القواسم أهل رأس الخيمة ممـا اكتسب ومن الغنائم .

وقد غيّر سعود بنيان البيت الذي كان لأبيه عبد العزيز ، فوسع عرصته وبنى غرفاً وخلوات وعيّن لكل امرأة موضعاً خاصاً لها ولخدمها ، بحيث يكون بينها وبين غيرها حائط عظيم لا يتراءين من أجله ، وكذلك الجواري القوارج والكرجيات والحبشيات ، كل واحدة لها خدم من الزنجيات وغيرهن ولهـا بيت على حدة .

وأما لباس نسائه فكان أحسن لبـاس ، وغالبه من الحرير الهندي المصنوع بالذهب ، أحمر أو أصفر أو أخضر أو غير ذلك من الألوان ، وكذلك يلبسن من بز الشام الحرير العال المطرز بالذهب .

هذا لباسهم بالشتاء ، وأما بالصيف فغالب لباسهن من بعض البز المجلوب من بلاد قسطنطينية كمثل شيء يقال له « مرهق » ، وردي اللون أو أزرقه وأرديتهن من العبي القيلانية ، على كل عباءة طيران من الذهب طرزت بها ، وتصنع هذه العبي في الأحساء وربما صنعت في الدرعية أيضاً . هـــذا اذا أردن الخروج الى زيارة احد او ضيافة ، وفي بيوتهن ليس عليهن سوى الثياب المذكورة .

وقـــد جمّلهن من الحلي شيء عظيم من الذهب المرصع بالجواهر النفيسة من الياقوت الأحمر وغيره . وكان – سعود – يحب رؤية الفصوص من الفيروزج عليهن ، وكان يرسل بعض الناس الى ملك فارس فيشترون له ذلك ، وهكذا صنع للجواري ، بل ربما يدسّ لجواريه البيض شيئاً زائداً .

وكان سعود يترف في المأكل كما يترف في الملبس ، وغالب قوته وقوت عياله الأرز ، وصار أكل الحنطة لديهم قليلاً ، واتخذ له أناساً من أهل الأحساء والقطيف يصنعون له الأطعمة الحسنة من اللحوم المقلية والطيور المحشية ، والحلويات الخبيصية بالسكر والبلوج .

هذا في بيته ، وأما في المجلس العام ، اذا أضاف أحداً او جاءه وفد او سفير من بعض البلاد فأكله مع ذلك اللحم والثريد ، وقلما يأمر حينئذ بإخراج شيء من الأرز في الخوان .

وكان يأكل مع الضيوف لا منفرداً عنهم .

وفي البيت يجمع أولاده الذكور معه على خوان واحد .

واتخذ له شربة من الطين المفحور لطيفة جـــداً تصنع في الأحساء على هيئة المشربة البغدادية بل هي أرق وأذكى .

.. وأما بالنسبة الى طلب الولائم فكان يجيب من دعاه ولو كان فقيراً ،

لكن .. لما مضى من زمن حكومته مقدار ثلاث سنين ، امتنع عن أن يسير الى الضيافة ، نعم ، يضيف الناس ويكرمهم .

وكان معاصروه من أولاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب: الشيخ حسين الأعمى، الذي كان معاصر أبيه عبد العزيز – وقد تقدم ذكر أحوال الشيخ حسين – فبقي الشيخ حسين قاضياً في أيام سعود الى قبل موته بثلاث سنوات ، فمات حسين وغسله أخوه الشيخ علي وصلى عليه آل سعود قبل عامة الناس ودفن بجانب أبيه ، ثم صارت المشيخة وأمور الدين والفتيا بيد الشيخ علي بن الشيخ محمد، فأعزه سعود وأطاعه كإطاعة أبيه الشيخ محمد بن عبدالوهاب، إلا أن الشيخ علي ليس بمرتبة الشيخ حسين في العلم والعمل . وكان الشيخ علي يحب النساء جداً وهو رجل مطلاق. [رواية لمع الشهاب مشبوهة، ونقلناها لمجرد العلم بما كتب سعود]

سليمان الدخيل :

ويقول سليمان الدخيل ، في بحث نشر في مجلة « لغة العرب » البغدادية :

(الإمام سعود بن عبد العزيز : تولى هذا الأمير ديار نجد ، وجنّد جنوداً تزيد على أربعمائة ألف ، بين فارس وراجل ، وأخضع سائر ديار جزيرة العرب، وحاول مناهضة الملوك الحاكمين على أطراف الجزيرة واستخلاصها من أيديهم ، وقد توفق لشيء كثير من ذلك .

ومن عجيب أمره أنه لم تهزم له راية قط .

وقد كان عالماً ذكياً أديباً ، حسن الخط ، مجيداً للقراءة الصحيحة ، وقد كان من الهيبة والأبهة والجلال بحيث يبهر عيون الناظرين، وكان فصيح الكلام ، إذا تكلم أنصت اليه جميع السامعين .) .

مؤلفا آثار الادهار :

وفي آثار الادهار :

(هو أبو عبد الله .. خلف أباه عبد العزيز سنة ١٨٠٣ للميلاد .

كان شهماً ، كريم النفس ، ثابت العزم ، عالي الهمة ، وسيماً ، حسن البزة ، غاية في الذكاء والاستقامة ، أديباً وقوراً عالماً متفنناً ، خبيراً بتقلبات الأيام ،

شجاعاً مقداماً ، يتجشم صعاب الامور ويتحمل هول المشاق ، وكان له عند أبيه مكانة أرفع من مكانة إخوته ، وعقد له غير مرة على قيادة الجيش الوهابي وأنفذه إلى داني البلاد وقاصيها ، فخدمه الحظ وساعدته الأيام على بلوغ غايته .

وكان فيه من التديُّن والحلم والعدل ما استمال اليه الخاصة والعامة من الناس فارتفع مقامه عندهم .

وكان صارماً في تنفيذ الأحكام ، يعاقب المجرمين أشدّ العقاب .

وقد جهد وسعه في إبطال الطلاق ..) .

الأمير أحمد الشهابي :

ويقول الأمير أحمـــد الشهابي ، في كتابه (الغرر الحسان في أخبار أبناء الزمان) ، وهو كتاب مذكرات ألّفه صاحبه الأمير في عهـــد الأمير بشير الشهابي ، وكان معاصراً للإمام سعود .. قال ، بلغته العامية اللبنانية :

(أخبار سنة ١٢١٧ : وفيها الوهـابي الذي طلع خارجه من عرب الحجاز وكان يسمى .. « سعود » ، حاصر مكة ، وطرد الشريف إلى العراق ، وهدم جميع المعابد الذي في مكة والعماير الرفيعة ولم « ابقى » غير البيت ، وقبر النبي.

وكان هـذا الوهابي ضهرو قوي في المال والرجال وطاعته العربان وسار في عسكر عظيم ، وكانت شريعته أن لا يعبد إلا الله وحده ، ولا فيه نبي ولا ولي ولا شفيع غير الله وحده ، وكلمن لا يتبعه ويعتقد به يقتله ، فخافت منه الناس وتبعته خوفاً منه ولزود كرمه ، ولم بقى في بر الحجـــاز أحد إلا ووهّب ، وكثرت شريعته إلى ان أكثر أهل مكة والمدينة وهّبوا معه ، حتى قيل ان عبد الله باشا لو ما يوهب ما تركه يرجع في الحاج .

وكان لا يترك أحـــد يتسمى بغير اسم الله ، مثل عبد الله وعبد الخالق وعبد الرحمن وغيرهم ، وكان لا يأخذ من الناس إلا عشر المال) .

قاموس الاعلام :

وقال مؤلف « قاموس الاعلام » :

(سعود بن عبد العزيز — يعرف بسعود الكبير .

إمام من أمراء نجد ، وليها يوم مقتل أبيه بالدرعية سنة ١٢١٨ ، وجنّد جيشاً كبيراً أخضع بـه معظم الجزيرة العربية ، فامتد ملكه من أطراف عمان ونجران واليمن وعسير الى شواطىء الفرات وبادية الشام ، ومن الخليج الفارسي الى البحر الأحمر .

وكان موفقاً يقظاً لم تهزم له راية ، موصوفاً بالذكاء ، على جانب من العلم والأدب ، فصيح اللسان ، شجاعاً مدبّراً .

كانت إقامته في الدرعية ، وتولى بنفسه كثيراً من المغازي ، وفي أيامه حشدت الدولة العثمانية جيوشاً من الترك وغيرهم بقيادة محمد علي باشا (سنة ١٢٢٦ هـ.) لمحاربة آل سعود في نجد ، وأرسل محمد علي ابنه أحمد طوسون من مصر فدخل المدينة ومكة سنة ١٢٢٧ هـ. والطائف سنة ١٢٢٨ هـ.) .

وقال صاحب الخبر والعيان : مات سعود بعلة السرطان المعوي ، والحرب المصرية في بدء شبوبها ، ونجد في أشد الحاجة اليه .

وفي مثير الوجد ان عدد جيوشه زاد على أربعمائة الف .. وانـه توفي وهو عائد من إحدى غزواته ، بين صوار والرياض .

كتاب « آل سعود » :

وقال الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ في كتابه « آل سعود » :

(وُلد الإمام سعود بن عبد العزيز بن محمـــد سنة ١١٦٥ هـ . ، ونشأ قوياً حازماً مهاباً ، بل كان من نوادر الزمن وأفذاذ الرجال ، قرأ القرآن وحفظه ، وأخذ يمارس الرماية والفروسية ، وكان مع هذا يحضر على الشيخ محمـــد بن عبد الوهاب في سائر العلوم .

ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره أخذ يغزو ويجاهد،فكان أول غزوة غزاها سنة ١١٨١ هـ .

وكان مظفراً ميموناً ، فتح كثيراً من قرى نجد وبلدانها .

وفي سنة ١٢٠٢ هـ . أُخذت له البيعة بولاية العهد من جميع الرعية ، وبعد

هذا سلمه والده قيادة الجيوش، فكان قائداً حكيماً وبطلاً عظيماً، فتح الأحساء والقطيف وعمان والزبارة والبحرين، وغزا كربلاء، وهدد العراق، واستولى على مكة لأول مرة سنة ١٢١٨ هـ . وتخلى عنها بعد شهر لظروف حربية .

وفي هـذه الأثناء توفي والده الإمام عبد العزيز بن محمد شهيداً سنة ١٢١٨ ، فجددت له البيعة من جميع الرعية وتولى الحكم .

وفتح الحرمين الشريفين سنة ١٢٢٠ هـ . ، وبعـد ذلك غزا أطراف الشام سنة ١٢٢٥ واكتسح ما أمامه من القرى والعربان ، فداخل الرعب ولاة الشام ، وتخوفت الدولة العثمانية القضاء على الخلافة العثمانية المزعومة .

وقـد سبق أن أوفدت اليه بواسطة وزير العراق رجلاً يسمى « عبد العزيز القديمي » ، يعرض عليه ثلاثين ألف مثقال من الذهب راتباً سنوياً له من الدولة علي شرط المهادنة والمسابلة فلم يقبل .

وأوفدت بعـده لهذا الغرض رجلاً آخر يسمى « عبد العزيز بك » ، فرجع كما رجع الأول بعدم القبول ، وبرسالة طويلة بلغت ست صفحات ملأها سعود وعيداً ..

فلما فتح الحرمين وغزا أطراف الشام يئست الدولة العثمانية من مهادنته، فطلب سلطانها محمود من والي مصر محمـد علي باشا القيام بمحاربته وتخليص الحجاز من يده ، فتردد محمد علي باشا أولاً ، وبعد إلحاح لبّى طلب السلطان ، فحدثت تلك الحروب والوقائع النجدية المصرية ..

وقد توفي الإمام سعود في أثنائها سنة ١٢٢٩ هـ .

رحم الله الإمام سعوداً ، فقد كان جلداً صبوراً ، لا تلين له قناة ، ولا يسأم الجهاد والغزوات .

لقّبه أكثر المؤرخين — لا سيما الغربيين منهم — بـ « سعود الكبير » ، إعجاباً بأعماله الكبيرة وبطولاته العظيمة ، غفر الله له وأدام عز آل سعود ومجدهم .) .

كتيب « مثير الوجد » :

وقال راشد بن علي الحنبلي ، في كتابه « مثير الوجد في معرفة أنساب ملوك نجد » :

(الإمام سعود بن عبد العزيز : تولى ملك نجـد ، وجنّد منها جنوداً تزيد على أربعمائة ألف ، مـا بين فارس وراجل ، وأخضع جزيرة العرب بأسرها ، وحاول مناهضة ملوك الدنيا وانتزاع الممالك ، وكان مدة حياته لم تهزم له راية .

وكان عالِماً ذكياً يحسن الخط والقراءة .

وعليه من الأبهة والهيبة والجلال ما يبهر العقول .

وكان فصيحاً إذا تكلم أنصت له كل سامع .

ثم توفي سنة ١٢٢٩ .)

سياسة سعود

– كما يصفها ابن سند – [1]

كان لسلطان الوهابيين سعود بن عبد العزيز سياسة عجيبة في تسيير الجيوش وجمعها ، وسنبين لك نبـــذة من سياسته في تجنيد الجنود ، وكيف استولى على ذلك الملك الكبير بحجة نشر الدين وإماتة البدع :

(كان آل سعود أمة ضعيفة فقيرة ، وبلادهم ناشفة ليست مخصبة كريف مصر والعراق ، حتى يمكنهم جباية المال منها ، وكان لهم رياسة على العـارض فقط ، فلما اجتمع بهم عالمهم محمد بن عبد الوهاب النجدي ، في القرن الثـــاني عشر ، حسّن لهم نشر الدين المحمدي وإماتة البدع...و « دسّ لهم دسيسة » – كذا – وهي ان هذه الحركات مما يحملكم ملوك الإسلام عموماً ، لأنه لم يبق في ملوك الإسلام من ينكر المنكر ، فطاوعوه ، وهكذا الدول لا تتأسس إلا بالسلطان والدين معاً - انظر مقدمة ابن خلدون - فاقتضى رأيهم أن يحاربوا القرية التي بقربهم ، مثلاً ، ويدعوهم إلى ما هم عليه ، فحاربوها ، وأطاعهم قرى نجد جميعها ، وشروطهم التي يشرطونها على من يدخل في معتقدهم هي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسول الله ،

---

(١) انظر كتاب « مطالع السعود في أخبار الوالي داود » – لابن سند : اختصره المدني .

وإقام الصلاة وإيتـاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلا والجهاد ، وأن تكونوا معنا على أهل البدعة وعلى الكفار وعلى قطّاع الطريق ، فلما يسمع منهم هذا الكلام ، العامي يقول : هو الحق .. ويعاهدهم على هـذه الشروط ، ولكن لا يعلم ما وراءها ، فيفرضون على تلك القرية عشرين رجلا ، مثلا ، في كل حرب، بشرط ان العشرين رجلاً إذا وصلوا للمساعدة مع ابن سعود يكون معهم رواحلهم وزادهم الذي يكفيهم شهراً مثلا ، وانهم يحضرون في اليوم الفلاني مثلاً الذي يعينه لهم ساعة الطلب ، فإذا أراد ابن سعود قتال قرية أو قبيلة فأولاً يرسل إلى القرى التي أطاعته ويطلب من كل قرية مقدار العسكر المفروض على تلك القرية أو القبيلة ، فيأتي اليه من هنا عشرون ومن هناك مائة ومن هنـا خمسون وهكذا .. فتجتمع معه ألوف من الرجال محاربين بسلاحهم ورواحلهم وزادهم الذي يكفيهم شهراً ، فيسير بهم ويحارب القبيـلة العاصية ، ولكنه يحرص ان مدة سفره لا تزيد على الشهر المعين حتي لا ينفد زاد العسكر المصحوب معهم من عند أهلهم فيحتاجون لأن يمدهم سعود بزاد من عنـده ، فإذا حارب القبيلة العاصية وطوّعها شرط عليها تلك الشروط المتقدمة أيضاً ، وهكذا فلو فرضنا أنه أرسل إلى القبيلة الطائعـة وطلب منها مقدار العساكر المفروضة عليها فأخرتها عن الميعـاد يوماً واحداً أو جاء بعض عسكرها ضعيفاً لا يقدر على الكرّ والفرّ أو كان زادهم قليلا أو كان بعضهم راحلته هزيلة فيغضب ويردّ العسكر إلى قريتهم، وبعد رجوعه من تلك الغزوة أول ما يبدأ به تأديب تلك القرية التي خالفت عهوده وينكلها وينهبها وربما يقتل شيخها ، فلهذا صار متى أرسل لكل قرية أو قبيلة يطلب العسكر المفروض عليها فلم يكن لهـا بد من إحضار العدد المعـلوم من أقوى الرجال على أفره الرواحل مع الزاد الذي يكفيهم .

فبهذه السياسة صار يبلغ جيش ابن سعود إلى عشرين ألف مقاتل ، بل بلغنا أنه جيَّش خمسين ألف مقاتل في بعض الأحيان ، وجميع هـــذه الجيوش وتلك الحروب لم يخسر فيها لا صفراء ولا بيضاء ، بل كان يحارب ومصرفه على نفسه ،

سامعاً مطيعاً باذلاً مـــاله ودمه في سبيل الله ، وذلك لحسن سياسة ابن سعود ، ولفصاحة الدعاة والوعّاظ الذين حسّنوا لهم ذبح أنفسهم فاستحسنوه .

فافطن لهذه السياسة التي ملك بها جزيرة العرب أجمع بغير درهم ولا دينار ، ولم يفتح معدناً ولا جبى خراجاً بل كان كل ما يحصله من الدراهم والمغــــانم في غزواته ...

وصف ابن بشر للامام سعود

وصف ابن بشر الإمام سعود وصفاً جيداً ، تناول فيه شخصيته وسياسته وقضاءه وأساليبه في الحروب وموارده وطراز معيشته الخ ... وها نحن ننقل هذا الوصف بشيء يسير من التصرف ، وذلك أننا جمعنا في موضع واحد ما كان متفرقاً من أقوال ابن بشر ، مع أنها تدور حول موضوع واحد ..

عهده :

في عهد سعود (أمنت البلاد ، وطابت قلوب العباد ، وانتظمت مصالح المسلمين بحسن مساعيه ، وانضبطت الحوادث بين مراعيه ، فبلغ من الشرف منتهاه ، ومن سنام المعالي أعلاه .

أخذه عن الشيخ ومعرفته بالدين وتقواه وحبه لأهل العلم وطلبته :

وكانت له المعرفة التامة في تفسير القرآن ، أخذ العلم عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب، أقام مدة سنين يقرأ عليه، ثم كان يلازم على مجالس الدرس عنده، وله معرفة في الحديث والفقه وغير ذلك ، وكان آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، كثير الحض على ذلك في مجالسه ومراسلاته للمسلمين ، محبباً إليه العلم وطلبته وكان يعظمهم ويكرمهم .. ويلزم أهل البلدان بإكرامهم وتعظيمهم .

نصائحه ووصاياه :

.. إذا كتب نصيحة لجميع رعاياه أتى فيها بالعجب العجاب ، وبهرت عقول أولي الألباب .

وكان أول ما يصدر النصيحة بتقوى الله تعـالى ، ومعرفة نعمة الإسلام ، ومعرفة التوحيد ، والاجتماع بعد الفرقة ، ثم الحض على الجهاد في سبيل الله ، ثم الزجر عن جميع المحظورات من الزنا والغيبة والنميمة وقول الزور والمعاملات الربوية وغير ذلك ، وكل نوع من ذلك يأتي عليه بالأدلة من الكتاب والسنة وكلام العلماء ، فمن وقف على شيء من مراسلاته ونصائحه عرف بلاغته ووفور علمه .

كلامه :

وإذا تكلم في المحافل بنصيحة أو مذاكرة بهر عقل من لم يكن قد سمعه ، وخالَ في نفسه أنه لم يسمع مثل قوله وحسن منطقه .

تيقظه وهمته وهيبته .. مع تواضعه ومداعبته لخواصه :

وكان متيقظاً ، بعيد الهمة ، يسّر الله له من الهيبة عند الأعداء والحشمة في قلوب الرعايا ما لم يرَه أحد .

عليه الهيبة العظيمة التي مـا سمعنا بها في الملوك السالفة ، بحيث ان ملوك الأقطار لا تتجاسر على مراجعته الكلام ، ولا ترمقه بأبصارها إجـلالاً له وإعظاماً .. وهو ، مع ذلك ، في الغاية من التواضع للمساكين وذوي الحاجة ، وكثير المداعبة والانبساط لخواصه وأصحابه .

عقله ومشورته :

وكان ذا رأي باهر وعقل وافر ، ومع ذلك إذا أهمّه أمر أو أراد إنفاذ رأي أرسل إلى :

١ ـ خواصه من رؤساء البوادي واستشارهم .

٢ ـ فإذا أخذ رأيهم وخرجوا من عنده ، أرسل إلى خواصه وأهل الرأي من أهل الدرعية ثم أخذ رأيهم .

٣ ـ فإذا خرجوا ، أرسل إلى أبناء الشيخ وأهل العلم من أهل الدرعية واستشارهم ، وكان رأيه يميل إلى رأيهم ويظهر لهم ما عنده من الرأي.

ثباته وشجاعته وحبه الجهاد وانتصاره الموصول :

وكان ثبتاً شجاعاً في الحروب ، محبباً اليه الجهاد في صغره وكبره ، بحيث انه لم يتخلف في جميع المغازي ..

ويغزو معه جملة من العلماء من أهل الدرعية وأهل النواحي ، ويستخلف في الدرعية أحد بنيه وكثيراً ما يستخلف ابنه عبد الله ، ويغزو معه إخوته وبنوه وبنو عمه عبد الله، كل واحد من هؤلاء بدولة عظيمة من الخيل والركاب والخيام والرجال وما يتبع ذلك من رحائل الأزواد والأمتاع للضيف وغيره .

فقام في الجهاد وبذل الاجتهاد وفتح أكثر البلاد في أيام أبيه وبعد موته .

وأعطي السعادة في مغازيه ، ولا أعلم انه هُزم له راية ، بل نصر بالرعب الذي ليس له نهاية ، وكل أيامه مواسم ومغازيه مغانم ، وقذف الله الرعب في قلوب أعدائه ، فإذا سمعوا بغزاه ومعداه هرب كل منهم وترك أباه وأخاه وماله وما حواه ..

سيرته في المغازي :

فأما سيرته في المغازي ، فكان إذا أراد أن يغزو إلى جهة الشمال أظهر أنه يريد الجنوب أو الشرق أو الغرب ، وإذا كان يريد جهة من تلك الجهات ورّى بغيرها ..

وأرسل إلى جميع البوادي « حواويش رجال » يحوشونهم من أقطار الجزيرة للغزو معه ، واعدهم يوماً معلوماً على ماء معلوم ، فلا يتخلف أحد منهم عن ذلك اليوم ولا ذلك الموضع ، وواعد أيضاً جميع المسلمين من أهل البلدان موضعاً معلوماً ، فسارع الجميع اليه قبله .

« وكان عنده من المدافع ستون مدفعاً منها ثلاثون كبار . وكان الذي يتبعه في مغازيه من الجيوش والخيل الجياد من النواحي والبوادي من جميع القبائل لا يحصيها العد ولا يحصرها الحد ، فلو تخلف أحد من البوادي بفرسه عن الغزو أو تخلف من تعين عليه الأمر من رؤسائهم أو من دونهم ، أُدّب أدباً بليغاً وأُخذ من ماله نكال ، وإذا أراد أن قبيلة من قبائل نجد العظام كمطير وعنزة وقحطان

أو غيرهم ، وهم في أقصى الشمال ، يرحلون وينزلون في الجنوب أو الشرق أو الغرب لم يمكنهم مخالفته » [١] .

ثم يركب من الدرعية ، إما يوم الخميس أو يوم الاثنين ، فيخرج النــاس قبله بيومين أو ثلاثة ، وبعده بيومين أو ثلاثة .

وفي كل هــذه الأيام والوادي يتسع ويضيق ، لا يجد السالك فيه طريقاً من عظم مــا يمشي فيه من الخيل الجياد والنجائب العمانيات الثمينة ورحائل الخيل والأمتاع والأزواد .

وتخرج رحائل زهبته وزهـــابه وآلة ضيفه وعليق الخيل قبـله بنحو خمسة عشر يوماً .

فإذا أراد الخروج من الدرعية وقفت له كتائب الخيل في الوادي ، وعنــد القصر الرجال والنساء والأطفال ينتظرون خروجه .

ثم يخرج من القصر ، ويدخل المسجد الجامع الذي عنــد قصره فيصلي فيه ويطيـــل الصلاة ، فإذا فرغ من صلاته ، ركب جواده ، فلا يتكلم بكلمة إلا السلام .. حتى يأتي الموضع الذي يريد نزوله بين الدرعية والعيينة .

ويسير معه ذلك اليوم كثير من الضعفاء والمساكين والولدان وأهل الحاجة ، فيقضي حاجتهم تلك الليلة .

ثم يرحل ، فإذا سار وجد جميع المسلمين مجتمعين على مواعدهم .

فيسير بجميع المسلمين، الحاضر والباد، وينزل في المنزل قبل غروب الشمس، ويرحل قبل شروقها ، ويقيل بالهاجرة .

ولا يرحل حتى يصلي صلاتي الجمع : الظهر والعصر .

ويجتمع الناس للدرس عنده بين العشاءين كل يوم إلا قليلاً ، وعنــد كل ناحية من نواحي المسلمين .

---

(١) الكلام الموضوع بين أهلة صغيرة .. رواه ابن بشر عن لسان رجل أخبره به ..

ورتب في كل ناحية إماماً يصلي بعد الإمام الأول الذي يصلي بالعامة، فيصلي الثاني بالذين يحفظون متاع أصحابهم ويطبخون لهم في صلاتهم، وذلك لئلا يصلوا فرادى ..

فإذا قرب من العدو نحو ثلاثة أيام ، بعث عيونه أمامه ثم عـدا فلا يلبث حتى يبغتهم وينزل قريباً منهم ، فلا يوقد عنـد جميع المسلمين تلك الليلة نار ولا كأنهم نزلوا بتلك الديار .

ثم ينادي المنادي لجميع المسلمين، بعد صلاة المغرب، أن يحضروا عند سعود، فيجتمعون عنده ، ثم يقوم فيهم ويذكرهم ما أنعم الله عليهم به من الاجتماع على كلمة الإسلام ، وان سببه العمل بطاعة الله والصبر في مواطن اللقاء ، وان النصر لا ينال إلا بالصبر ، وما وعد الله الصابرين وتوعّد الفارّين المدبرين ، ويتلو عليهم قوله تعالى :

﴿ ومن يولّهم يومئذ دُبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقـد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ﴾ .

ويزجرهم عن الظلم والغلول ، الذي هو سبب الكسر والخذلان ، وما توعّد الله من غلّ في كتابه ، وما ورد عن النبي ﷺ في ذلك من الترهيب عنه .

ويزجرهم أيضاً عن العجب بالكثرة والزيادة في النفوس ، التي هي سبب الفشل والانهزام ، ويذكرهم مـا قال الرجل في حنين : « لن تغلب اليوم عن قلة » ، حتى ولّوا مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين .

فإذا فرغ ، انصرفوا إلى مواضعهم ومحاطهم حتى يتبين أول الصبح ، وكان قد أمر بعض الأعراب أن يبكروا بالصلاة على أوله ويشنّ الغارة..

فإذا صلى الصبح ، ركب بالمسلمين وضجّوا بالتكبير ، وأغـاروا ، فتظلم السماء والأرض من إثارة النقع وضجيجهم بالتكبير، فيغيب الذهن في تلك الساعة ويوقن المسلمون بالنصر ، فيوقع الله بأسه في من قصدته تلك الجموع ، فلا يرفع السيف إلا عن من لم يبلغ الحلم او امرأة او شيخ كبير ، وتؤخذ جميع الأموال .

ثم يرحل عن معارة القوم بجميع تلك الغنائم ، مع البادي والحاضر ، فينزل

قريباً منها على بعض المياه ، فيعزل الأخماس ، وتباع الغنائم بدراهم وتقسم على جميع المسلمين : للراجل سهم وللفارس سهمان .

ثم يرحل إلى وطنه ، ويأذن لأهل النواحي يرجعون إلى أوطانهم .

مجالسه ودروسه وصلاته في الدرعية :

وأما سيرته في الدرعية في مجالسه وفي الدرس ، فهو انه إذا كان وقت طلوع الشمس جلس النــاس من أهل الدرعية وغيرهم للدرس في (الباطن) المعروف ، بالموسم الذي فيــه البيع والشراء ، إن كان في الصيف فعند الدكاكين الشرقية ، وإن كان في الشتاء فعند الدكاكين الغربية ، ويجتمع جمع عظيم ، كل حلقة تحتها حلقة ، لا يحصيهم العدّ .

ويخلي صدر المجلس لسعود وبنيه وعمه عبــد الله وبنيه ، واخوانه عبد الله وعمر وعبد الرحمن ، وأبناء الشيخ ، فيأتي أبناء الشيخ ويجلسون ، ثم يأتي عمه وبنوه واخوانه ، ويأتي كل رجل من هؤلاء بحشمه وخدمه ويجلسون عند أبناء الشيخ ، ثم يأتي أبناء سعود أرسالاً ارسالاً ، كل واحد منهم يأتي بدولة عظيمة من خواصه وحشمه وخدمه ، فإذا أقبل أحدهم على تلك الحلقة لم يقوموا لهم وهم لا يرضون بذلك ، بل كل رجل من أهل ذلك المجلس يميل بكتفه حتى يخلص إلى مكانه عند أعمامه ، ويجلس من كان معروفاً في شرف الحلقة .

فإذا اجتمع الناس ، خرج سعود من القصر ، ومعه دولة وجلبة عظيمة ، تسمع جلبتهم كأنها جلبة النار في الحطب اليابس ، من قرع السيوف بعضها بعضاً من شدة الازدحام ، لا ترى فيهم الأبيض من الرجال إلا نادراً بل كلهم ممالبكه : عبيد سود ومعهم السيوف الثمينة المحلاة بالذهب والفضة .

وهو بينهم كالقمر ، تبين من فتق سحاب ، فإذا أقبل على ذلك المجلس قام له الذين في طريقه ، لئلا يطأهم العبيد ، حتى يخلص إلى مكانه ، فيسلم على الكافة ، ثم يجلس بجانب عبد الله بن الشيخ ، وهو الذي عليه القراءة في ذلك الدرس ، ويجلس أكثر من معه في طرف الحلقة ، فإذا تكامل الجمع التفت سعود للعلماء والرؤساء من المسلمين عن يمينه وشماله فسلموا عليه وردّ عليهم السلام .

ثم يشرع القارىء في التفسير ..

– حضرت القراءة في ذلك الدرس ، في تفسير محمـــد بن جرير الطبري ، وحضرته أيضاً في تفسير ابن كثير – .

فإذا فرغ الدرس ، نهض سعود قائماً ، ودخل القصر ، وجلس في منزل من منازله القريبة من الناس ورفعوا اليه حوائجهم ، حتى يتعالى النهار ويصير وقت القيلولة ، فيدخل إلى حرمه .

فإذا صلى الناس الظهر ، أقبلوا إلى الدرس عنده في قصره ، في موضع بناه بين الباب الخارج والباب الداخل ، على نحو خمسين سارية ، وجعل مجـــالسه ثلاثة أطوار كل مجلس فوق الآخر ، فمن أراد الجلوس في الأعلى أو الأوسط أو الذي تحته أو فوق الأرض اتسع له ذلك ، ثم يأتي اخوانه وبنوه ، وعمه وبنوه وخواصه ، على عادتهم للدرس ، ويجلسون مجالسهم ، ثم يأتي سعود على عادته .

– ولا يحضر ذلك المجلس أحد من أبناء الشيخ ، لأن هـذا الوقت عند كل واحد منهم طلبة علم يأخذون عنهم إلى قريب العصر – .

والعالم الذي يجلس للتدريس في هذا الوضع أمام مسجد الطريف عبد الله بن حماد ، وبعض الأحيان القاضي عبد الرحمن بن خميس إمام مسجد القصر ، ويقرأ اثنان في تفسير ابن كثير ورياض الصالحين ، فإذا فرغ من الكلام على القراءة سكت ..

ثم ينهض سعود ويشرع في الكلام على تلك القراءة ، ويحقق كلام العلمـــاء والمفسرين فيأتي بكل عبارة فائقة واشارة رائقة ، فتمتد اليه الأبصار وتحير من فصاحته الأفكار ، وكان من أحسن الناس كلاماً وأعذبهم لساناً وأجودهم بياناً.

فإذا سكت قام اليه أهل الحوائج من أهل الشكايات من البوادي وغيرهم ، وكان كاتبه على يساره ، فهذا قاض له حاجته وهذا كاتب له شكاية وهذا دافعه وخاصمه إلى الشرع.. فيجلس في مكانه ذلك نحو ساعتين حتى ينقضي أكثرها..

ثم ينهض قائماً ويدخل القصر ويجلس في مجلسه في المقصورة ويصعد اليه كاتبه

ويكتب جوابات تلك الكتب التي رفعت اليـــه في ذلك المجلس إلى العصر ، وينهض للصلاة .

فإذا كان بعد صلاة المغرب اجتمع الناس للدرس عنده ، داخل القصر في سطح مجلس الظهر المذكور ، وجاء اخوانه وبنوه وعمه وبنوه وخواصه على عادتهم ، ولا يتخلف أحد منهم في جميع تلك المجالس الثلاثة إلا نادراً ، ويجتمع جمع عظيم من أهل الدرعية وأهل الأقطار ، ثم يأتي سعود على عادته فإن جلس شرع القارىء في صحيح البخاري ، وكان العالم الجالس للتدريس في ذلك الموضع الشيخ سليمان بن عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ويا له من عالم نحرير وحافظ متقن خبير ، إذا شرع يتكلم على الأسانيد والرجال والأحاديث وطرقها ورواياتها ، فكأنه لا يعرف غيرهـــا من إتقانه وحفظه ، إلى وقت العشاء الآخرة .

وأمـا الصلوات المكتوبة فكان يصليها في مسجد قصره ، ويصلي معه فئام من الناس .. إلا يوم الجمعة فإنه يصلي مع الناس في مسجد الطريف (المشار اليه ، وهو المسجد الجامع تحت القصر شماله) في موضع بنـاه ، فوق المحراب والمنبر ، هو وخاصة مماليكه واثنان وثلاثة من خواصه ، وجعل على ذلك المصلى طريقاً من القصر يأتي اليه من قبلة المسجد عند المحراب .

وكان يقف خلفه إذا دخل في الصلاة وهو في مسجد قصره اثنان من شجعان مماليكه بسيوفهم خوفاً عليه حتى يفرغ من الصلاة ، وأما إذا كان في مغازيه وحججه ، فكان إذا دخل في الصلاة أوقف ستة من شجعان مماليكه بسيوفهم : اثنان عنـــد وجهه ، واثنان خلفه بينه وبين الصف الثـاني ، واثنان خلف الصف الثاني .

حبه لسماع القرآن :

وكان يحب أن يسمع القرآن من غيره ، فكان في مغـازيه وحججه .. يأمر رجلاً من طلبة العلم وحفـّاظ القرآن حسن الصوت جهيراً مجوداً يتـلو .. سورة

من القرآن .. حتى يفرغ منهـا فيأمره بقراءة سورة أخرى .. ويفعل ذلك في الدرعية أيضاً ..

ضيافته :

وأمـا سيرته للضيف فذكر لي ان خازنه يخرج لضيفه كل يوم خمسمائة صاع من البر والأرز ، وكان المضايفي الموكل بالضيف يدعو أضيافه للعشاء من بعـد الظهر إلى بعد العشاء الآخرة ، وكان أول داخل طعامهم اللحم والأرز والخبز ، والذي بعدهم قريب من طعامهم والباقي حنطة خالصة ..

وأما الغداء فمن طلوع الشمس إلى اشتداد النهار ، على مراتبهم في العشاء .

عطاؤه وصدقاته .. أقل من أبيه :

وأما عطاؤه للرعية وبثه الصدقة فيهم ، فليس لي بها معرفة إلا قليل ، وكان يرسل في كل زمان إلى أهل كل ناحية وبلد صدقة ألف ريال وأقل وأكثر لكل ناحية أو بلد ، وتفرق على ضعفائهم وأئمة المساجد والمؤذنين وطلبة العلم ومعلمي القرآن .

وهذا دائم، في زمنه وزمن أبيه عبد العزيز ، وهو في زمن عبد العزيز أكثر من ذلك ، حتى ان عبد العزيز يرسل دراهم يشترى بها قهوة لأهل القيـام في رمضان في المساجد في جميع البلدان ..

وكان إذا دخل رمضان سار مساكين أهل نجد وكل أعمى وزمن ونحوهم وقصدوا الدرعية ، فكان سعود يدخلهم كل ليلة للعشاء والإفطار عنده في القصر ، مع كثرتهم ، ويعطي كل رجل منهم جديدة وهي في تلك الأيام خمس ريال .

فإذا دخلت العشر الأواخر أدخلهم ارسالاً كل ليلة يكسي منهم جملة، يعطي كل مسكين عباءة ومحرمة وجديدة ، فإذا فرغت العشر فإذا هو قد كساهم كلهم إلا نادراً .

وذكر لي رجل كان عندهم في القصر يعلم القرآن ، قال : « كان سعود في آخر ولايتـه يجمع المساكين يوم سبع وعشرين من رمضان ويدخلهم في قوع

الشريعة ، المعروف في قصره ، ويفرق عليهم كسوتهم المذكورة كل رجل على عادته » ، قال : وهم نحو ثلاثة آلاف رجل .

خيوله وفرسانه ومماليكه :

قال : وملك من الخيل العتاق ألفاً وأربعمائة فرس ، يغزو معه منها ستمائة فرس يركبها رجال انتقاهم من شجعان البوادي وشجعان مماليكه وغيرهم .. ومماليكه الذكور أكثر من خمسمائة مملوك ، وقال غيره : ستمائة ، وقال آخر : إن مماليكه ألف .. والذي يظهر من القصر آخر رمضان ألف وثلاثمائة فطرة عن خدمه وعبيده وما في قصره من الأيتام .

الأمان :

وأما أمان الرعية ، فتقدم بيانه في ترجمة عبد العزيز .. وكان الراكب والراكبان والثلاثة يسيرون بالأموال العظيمة من الدرعية والوشم وغيرهما من من النواحي إلى أقصى اليمن وينبع البر والبحر وعمان وغير ذلك لا يخشون أحداً ، إلا الله ، لا مكابراً ولا سارقاً .

.. جلس يوماً فيصل بن وطبان الدويش ، رئيس اعراب مطير ، والحميد بن عبد الله بن هذال رئيس بوادي عنزة — وكان هؤلاء من أشد البوادي عداوة بعضهم لبعض — عند سعود في صيوانه .. وتنازعا بين يديه وتفاخرا وأظهرا نخوة الجاهلية ، فقال أحدهما لصاحبه :

— أحمد الله على نعمة الإسلام وسلامة هذا الإمام ، الذي أطال الله عمرك بسببه ، وكساك الشيب بعد أن كان آباؤكم لا يشيبون ولا ينتهون إلى حده ، بل نقتلهم قبل ذلك .

وقال له الآخر :

— أحمد الله على نعمة الإسلام وسلامة هذا الإمام ، الذي كثر الله بسببه مالك وسلم عيالك ، ولولا ذلك لم تملك ما هنالك ، ولا نزلت في تلك الديار ولا استقر بك فيها قرار .

فانتهض سعود ، وزجرهم ، وذكّرهم ما أنعم الله عليهم به من الإسلام

والجهاد والجماعة والاجتماع على الصلوات والدروس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما أعطاهم الله في ضمن ذلك من الأموال وكثرة الرجال ، وأمان السبل .. وان الرجل من البوادي وغيرهم يترك خيله وابله في أي موضع شاء لا يخشى عليها إلا الله تعالى .

فانكفوا عما هم فيه وتراجعوا الحديث فيما بينهم ، وشكروا الله تعالى على ما أعطاهم وأولاهم من النعم ، وأزال عنهم من الظلم والجور والقتال والعدوان والإثم ..

الموارد المالية من الزكاة وغيرها :

وصول عمال سعود الى بوادي مصر :

وأما عماله الذين يبعثهم لقبض زكاة الابل والغنم من بوادي جزيرة العرب مما وراء الحرمين الشريفين وعمان واليمن والعراق والشام ، وما بين ذلك من بوادي نجد ، فذكر لي بعض خواص سعود ممن قد صار كاتباً عنده ، قال :

كان يبعث إلى تلك البوادي بضعاً وسبعين عاملة ، كل عاملة سبعة رجال ، وهم : أمير وكاتب وحافظ دفتر وقابض للدراهم التي تباع بها ابل الزكاة والغنم وثلاثة رجال خدام لهؤلاء الأربعة لأوامرهم وجمع الابل والأغنام المقبوضة في الزكاة وغير ذلك – وذلك من غير عمال نواحي البلدان من الحضر لخرص الثمار وعمال زكاة العروض والأثمان وغير ذلك .

وأخبرني ذلك الرجل :

ان سعوداً بعث عماله لبوادي الغز ، المعروفين في ناحية مصر .

وبعث عماله أيضاً لبوادي يام في نجران .

وقبضوا من الجميع الزكاة .

قال : وأتى عمال آل فدعان ، المعروفين ، من بوادي عنزة بزكاتهم ، بلغت أربعين ألف ريال ، من غير خرج العمال ، وثمان أفراس من الخيل الجياد .

وهذا أكثر ما تأتي به العاملة من تلك العمال كل سنة ، وأقل مـــا تأتي به العاملة من أولئك العمال المذكورين ثلاثة آلاف ريال وألفين ونصف .

قال :

والذي يأخذ سعود على بندر اللحية ، المعروفة في اليمن ، مائة وخمسين ألف ريال ، وهو لا يأخذ إلا ربع العشر ، ومن بندر الحديدة نحو ذلك ..

ويأتي من بوادي عنزة أهل خيبر شيء كثير .

والذي يحصل من بيت مال الأحساء يقسم ثلاثاً :

ثلث يدخره لثغوره وخراجاً لأهلها والمرابطة فيه .

وثلث خراجاً لخيالته ورجالته ونوابه ومـــا يخرجه لقصره وبيوت بنيه وبيوت آل الشيخ وغيرهم في الدرعية .

وثلث يباع بدراهم وتكون عند عماله لعطاياه وحوالاته .

ويحصل بعد ذلك ثمانون ألف ريال تظهر إلى الدرعية .

قلت :

وأما غير ذلك ممـــا يجيء إلى الدرعية من الأموال من القطيف والبحرين وعُمان واليمن وتهامة والحجاز وغير ذلك ، وزكاة تمر نجد وعروضها وأثمانها ، لا يستطيع أحد عدّه ولا يبلغه حصر ولا حدّ ، ومـــا ينقل اليها من الأخماس والغنائم أضعاف ذلك .

أقوال الشعراء فيه :

ويذكر ابن بشر ان الشعراء قالوا في مدح سعود في حياته ورثائه بعد وفاته شعراً كثيراً لا يسعه كتاب ، ويكتفي بإيراد ثلاثة أبيات من قصيدة طويلة قالها فيه شاعر عماني ، وهي :

« إذا جزت باب السيف تلقاه فارساً وإن جزت باب العلم تلقـــاه عالما

وإن جزت باب الخوف تلقى مخافة وإن جزت باب السلم تلقى مسالما

وإن جزت باب الدين تلقى ديانة وإن جزت باب الحكم تلقاه حاكما »

وكان يحرص على بقاء الناس جلوساً أثناء مروره أو جلوسه ..

وكان أولاده يختلطون بالجمهور في مجلسه ، ولكنه ما كان يسمح لهم بالكلام في حضرته ، وما كان يأذن لهم بالتدخل في الشؤون العامة ، مع محبته لهم ورقّته عليهم .

موارده المالية :

يبالغ بعضهم في تقدير موارد سعود المالية ، ولكن أحد العارفين من الوهابيين قدّرها بين مليون ومليون ونصف المليون من الريالات .

تسامحه في التجارة :

كان سعود يمنع الوهابيين من السفر (أو التجارة ..) إلى بلاد المشركين وأصحاب البدع ، ولكن أهل نجد ما كانوا يستطيعون الاستغناء عن المتاجرة مع بغداد ودمشق ، فاضطر سعود إلى التغاضي والتسامح ..

وكان سعود يكره أن يسعّر البضائع .

خيوله :

كان عنده (٢٠٠٠) فرس ، منها ٤٠٠ في الدرعية ، وكان عنده أيضاً عدد وافر من الهجن وعند كل واحد من أولاده عدد من الأفراس ..

طعامه :

كان يقدم الطعام كل يوم إلى خمسمائة رجل ، والطعام هو الأرز ولحم الغنم والبرغل ، والتمر .. ويقال انه ينفق على ذلك كل سنة بين ١٠ و ١٢ ألف جنيه انكليزي .

أصبح بخيلاً .. َشرِهاً الى المال :

أصبح سعود ، في أواخر ولايته وعمره ، بخيلاً وشديد الحب للمال والطلب له ، وهذا ما جعل بعض العشائر تنفر منه ..

ولو أنه أنفق أمواله بسخاء ، كما فعل محمد علي باشا ، َلما استطاع هذا أن يستميل اليه القبائل وينتزع منه البلدان ..

حكومة سعود :

الحكومة حكومة نخبة .. على رأسها أسرة آل سعود .

وقـــد قسمت البلاد أقساماً ويتولى الحكم في كل قسم حاكم (أمير) ، وإذا كانت المنطقة كبيرة ُقسمت هي أيضاً بين عدة حكام وُيجعل عليهم أمير .

وأهم المناطق التي يديرها حكام هي : القصيم وجبل شمر والحرمين – أي مكة والمدينة – والحجاز (أي الطائف والمرتفعات) واليمن (عسير وتهامة ..)

أما العارض والحسا فقد احتفظ بهما سعود لنفسه ..

ينفذ حكام البلدان أحكام القضاة ، وقد يستطيعون فرض غرامة أو حبس ، ولهم عدا ذلك سلطات مختلفة ،وربما تشكى سكان المنطقة من تصرفات حكامهم فترفع شكاواهم إلى سعود ، ولذلك يفد المراجعون كل يوم على الدرعية ..

إن زعيم الوهابيين قد يبـــدو حاكماً مستبداً ، ولكن الذي يعرف التقاليد العربية يعـلم أنه ملزم بمراعاة الحكام وشيوخ العشائر حتى لا يتعرض لنقمتهم وقيامهم عليه .

الجيش والحرب :

في حالة الحرب يقـــدم حكام المناطق إلى الدرعية ويعقدون برئاسة سعود مجلساً ..

أمـا في أوقات السلم فلا يستشير سعود إلا أهل الدرعية ، وخصوصاً أسرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ويسمون هذه الأسرة : (أولاد الشيخ) ، وسعود يستشيرهم في كل المسائل المهمة .

ليس هناك جيش دائم .. فبعد انتهاء المعـــارك يعود كل مقاتل إلى بلدته وداره ، ما عدا مئات معدودة من المقاتلين اتخذهم سعود حرساً خاصاً له، فهم في خدمته بصورة دائمة موصولة، وكلهم من الفرسان الشجعان، وكلما سمع سعود بشجاع استدعاه اليه وضمَّه إلى حرسه ، وربما سموا هذه الفرقة : « المنجبة » ..

متى صمم سعود على الحرب أبلغ العشائر والبلدان قراره ، فتقوم كل عشيرة بتجهيز عدد من رجالها ويجتمعون في المكان المحدد لهم ..

وأسلوب « المفـــاجأة » هو الاسلوب المفضل في حروب سعود ، فهو يعلن عزمه على السير إلى جهة يعينها ، ثم يتحول عنها فجأة إلى غيرها حتى لا يعرف بها عدوه فيستعد له ..

تتقدم الجيش الوهابي دائماً طليعة تتألف من أربعين رجلاً ، وقـــد تسبقه بيوم .. وتسمى : (السبر) ..

ينقسم الجيش ، عند خوض المعارك ، إلى ثلاثة أقسام أو أربعة ، يتلو بعضها بعضاً ، ويبدأ بالهجوم الفرسان ثم راكبو الهجن .

ومن أساليب سعود التظاهر أحياناً بالفرار أمـــام العدو ، ثم العودة فجأة لمهاجمته ، وهو في حالة تعب من الملاحقة وعدم انتظار للمعركة ..

إذا استسلم الخصوم قبل البدء بالقتـــال أعطاهم سعود الأمان على أموالهم ، باستثناء الحلقـــة – أي السلاح – وأحياناً يعطيهم الأمان كاملاً فلا يأخذ منهم شيئاً .

ومتى خضعت له بلدة ولّى عليها شيخاً من أهلهـــا ، ولا يترك في البلدان المفتوحة حاميات إلا في حالات قليلة ..

كان سعود ، في شبابه ، يقود المعارك بنفسه ويمشي في مقدمة الصفوف ، ولما كبر صار يشرف على الحروب من بعيد ..

أولاد سعود :

أنجب سعود من زوجته الاولى ، التي توفيت في حيـــاته ، ثمانية أولاد ، أكبرهم من الأحياء : عبد الله .

وأشهر إخوة عبد الله : (فيصل) ، وكان يُعَدّ أجمل فتى في الدرعية ، وأحب الأمراء إلى الناس ..

وكان سعود يعز من أولاده (ناصر) الذي مـــات في معركة ضد جيش مسقط ، و (تركي) الذي حارب في العراق وجهات الشام .

ومن أولاد سعود : عمر ، إبراهيم ، فهـــد ، وكذلك خالد ومشارى .. وغيرهم ..

وكان سعود رقيقاً مع أولاده ، خصوصاً الأطفال منهم ، ومن دلائل رقته أن زوجة ابنه فهد دخلت مع ابنها الصغير إلى مكان قريب من الكعبة ، وكان الإمام سعود واقفاً هنــاك مع جماعة من المطوفين والأعيان ، فما كان منه إلا أن حمل حفيده الصغير وضمّه إلى صدره وأخذ يقبّله ..

وكان عند سعود إلى جانب الزوجات عدد من الجواري، وكان يعهد برضاع أولاده إلى حبشيات .

أقدم ما كُتب في اوروبا عن سعود

الحاج « سيتزن » ، وحديث سعود معه :

الاوروبيان الوحيدان اللذان استطاعا رؤية الإمام سعود في مكة هما : علي بك العباسي ، وقد نقلنـــا في فصل سابق بعض ما قاله في وصف سعود أثناء دخوله مكة على رأس رجاله وجيوشه ..

.. وسيتزن ، الذي اعتنق الإسلام وحجَّ عام ١٨١٠ م . — ١٢٢٥ هـ .

وقد نُشرت مجلة « حوليات الرحلات والجغرافيا والتاريخ » عام ١٨١٣ م . نقلاً عن رسائل (زاخ)، شيئاً مما كتبه سيتزن عن مشاهداته في مكة والمدينة، نأخذ منه ما يأتي ، ولولا قدمه لم يكن ليستحق العناية :

(يحيط بالمدينة المنورة سور وتُعـدُّ في نظر العرب مدينة حصينة ، ويتولى أمرها حاكم وهابي ، وفيها حامية وهابية .

وقد مُنع الناس من الاقتراب من الضريح النبوي والتعلق به وتلمسه بالأيدي — لطلب الشفاعة — وليس فيه نفائس وأحجار كريمة وتحف ونحوها ، لأن سعود أخذ ذلك كله إلى الدرعية ..

ويبدو من شكل حجارة المدينــة أنها كانت قديماً موضعاً لبراكين تتفجر ، وقد استمر هذا التفجر إلى أوائل العهد الإسلامي ، لأنني وجدت في كتاب عربي إشارة إلى انفجار بركاني وُصِف بأنه اشتعال نار كبيرة، وذلك عام ١٩ للهجرة، في عهد عمر بن الخطاب ، فأمر عمر بتوزيع الصدقات ...

وقـــد طلبني الأمير مرة ، وسألني عما أعمـله ولماذا أشتري عدداً كبيراً من الكتب ؟

فأجبته – وكنت علمت أنه يظنني تركياً – أو كما يقولون رومياً – فارتاب بأمري :

– أنا من بلاد فرنسا .

فلما سمع ذلك ارتاح إليّ وتركني وشأني .

وهكذا استطعت أن أرسم خريطة للمدينة وأن أرسم كذلك صورة للضريح النبوي ..

وفي ١٨ يناير عدتُ إلى مكة ، فوجدت فيها الإمام سعود ، وكان ذلك في أعقاب موسم الحج ، وكان سعود قد صحبه في حجته عدد ضخم جداً من الحاج النجدي وكان معه كذلك أكثر من مائتي حاج من العجم ..

رأيت الإمام سعود بعينيّ .. ولم تكن ملابسه فاخرة متميزة وإنمـــا كانت بسيطة ..

وقال لي أحد العــــارفين به انه على حظ كبير من الذكاء ، و « طبيعي » غير معقد ..

رأي فيلبي في سعود :

يقول فيلبي في كتابه « العربية السعودية » :

(كان الغزو التركي يتدلى كالسحابة الدكناء فوق الأيام الأخيرة لرجل لم يعرف الأمن والدعة طوال نصف قرن قضاه في جهد وجهاد موصولين ، ابتغاء وجه الله ثم نصراً للدعوة الوهابية .

وقد لحق سعود بأجداده في أول مايو سنة ١٨١٤ م . ، تاركاً لابنه عبد الله مهمة الدفـاع عن الدولة والدعوة ، اللتين عمل هو أكثر من كل إنسان آخر على خدمتها وبسط آفاقها فتجاوزتا الحدود التي كان يحلم بها المؤسسان الأولان ..

كان سعود مسلماً عظيماً ، ووهابياً عظيماً ، ومحارباً عظيماً ، وملكاً عظيماً ، .. على طريقة تلك الأزمان الخالية التي انقطع بها العهد ..)

وقال فيلبي عن سعود في مكان آخر من كتابه :

(كان سعود في الخامسة والعشرين من عمره حين اعتلى عرش الدرعية .

وكان قد اشترك اشتراكاً فعلياً وثيقاً بتصريف امور الدولة خلال خمس عشرة سنة في ظل أبيه ، أي منذ اختياره ولياً للعهد عام ١٧٨٨ م .

أما قيادته للحروب في عهد أبيه « فتغطي » ستاً وثلاثين سنة ، أي من يوم اشتراكه في المعركة الظافرة ضد قرية العودة ، تحت إمرة ابن عمه هذلول بن فيصل بن محمد عام ١٧٦٧ م .

والحق إن سعود كان في معظم الأوقات القائد الأعلى للجيوش التي جهزها والده عبد العزيز أثناء حكمه الطويل ..

وهكذا كان سعود مؤهلاً تماماً في الحرب والسياسة للنهوض بالأعباء التي ألقيت عليه في إتمام عمل أبيه ..

وقد بلغت الدعوة الوهابية في عهده إلى ذروة إنجازاتها و « توسعاتها » — إن صحّ هذا التعبير ..)

عرض البريمي :

كلمة دوان :

وأورد كتاب «عرض البريمي» الكلمات التالية، مقتبسة من كتاب « دوان» المسمّى (محمد علي) :

« خلف عبد العزيز في منصب الإمام السعودي : ابنه سعود ، الذي كان ساعده الأيمن في الحكم سنوات طويلة ، وفي أثناء حكم سعود الذي دام أكثر من عشر سنوات وصلت الدولة السعودية إلى ذروة مجدها الأول ، وكادت جزيرة العرب كلها تصبح تحت سلطتها ، وفي التاريخ العربي يذكر هذا الحاكم بحق باسم « سعود الكبير » .

وبعد اعتلاء سعود العرش بوقت ليس بطويل كتب باراندييه ، السفير الفرنسي في استانبول ، إلى تاليران يقول :

« إنه في ذلك الوقت أصبح للمرء أن يتوقع رؤية قيام مملكة عربية جديدة

ليست من القوة كتلك التي كانت للخلفاء ، ولكنها قـادرة على أن تظفر بمضي الوقت بدرجة من العظمة تضعها في مستوى واحـــد مع السلطات الاخرى في آسيا ») .

كلمة لوريمر :

وأورد العرض المذكور أيضاً كلمة لوريمر في حكم سعود ، وهي تصح أيضاً في الحكم السعودي في مختلف عهوده ، قال :

(إن اتجاه الحكومة الوهابية في نجد كان في جوهره اتجاه تمدن وحضارة ، وكان من بين أهدافهم الرئيسية التي وضعوها نصب أعينهم إقامة الأمن والنظام وإخماد الحروب المحليـة والمنازعات الشخصية وإحلال عقوبات تفرضها الدولة وتعويضات تمنحها بدلاً من تلك الحروب والمنازعات ..) .

مآخـــذ :

ويأخذ كورانسيز على سعود « بذخه » الذي تجـــلى في لبسه أغلى الملابس واقتنائه لدوره الأثاث الفاخر المجلوب من الهند وغيرها ، ومبالغته في جمع المال والأشياء الثمينة ..

من كتاب مانجان :

ويقول مانجان ان سعود جعل رؤساء العرب يخضعون له وكان يتحدى كل زعيم ويحاول إذلاله ، مع معرفته بأن محمد علي كان يستعد لغزو بلاده ..

الجيش :

وفي عهد سعود وفتوحاته وغزواته ، كان شعب نجد ، وكذلك سكان جميع البلاد التابعة لسلطان نجد ، خاضعين لنظام مخصوص من التجنيد «الاجباري».

يقدّر سعود مـا يجب على كل منطقة أن تقدمه ، فيقود رئيس المنطقة هذا العدد المطلوب من المقاتلين الى المكان المحدد له ، ويبقى قائداً لمقاتلة قومه طول مدة الحرب ، فقد كان لكل منطقة جيشها الخاص ، تحت قيادة أميرها ، ومعه إمام وكتبة .

كل محارب يجلب معه أسلحته وذخيرته ومؤنه ، والفقير يجهزه الغني ويعينه ،

وقد ينوب عن الرجل الذي اضطر الى الاعتذار عن المشاركة في القتال رجل آخر فيجهزه أيضاً ..

لا يعطى المقاتلون رواتب، ما خلا بعض الفرسان ، وتوزع الغنائم بالتساوي بين المحاربين ، ويعزل الخمس ويرسل الى بيت المال .

وكان لمقاتلة الدرعية التقدم على غيرهم .

يأكل المحاربون الوهابيون التمر مع اللبن (الحليب) وقلما يأكلون خبزاً ولحماً.

يتقدم المقاتلون الى ساحة المعركة وهم مشاة ، ويتركون جمالهم وخيلهم خلفهم في حراسة أفراد منهم ، فاذا وجدوا العدو متفوقاً عليهم لجأوا الى مطاياهم .. وإذا انهزم عدوهم تبعوه راكبين لا مشاة ، ولهم في الحروب صيحات وشعارات ، أشهرها : الله أكبر ..

بندقياتهم كانت لها « فتائل » ، وكانوا « يحشونها » بسرعة ، وكثيراً ما يكون معهم الى جانب البندقيات خناجر ورماح وسيوف ، وربما وجد مع بعضهم مسدسات أيضاً ..

ومتى أقاموا معسكراً أو مخيماً عرف كل واحد مكانه : القائد في الوسط ، والفرسان يلتفون حوله ، وكل فرقة تنزل على بعد معقول من الفرقة الاخرى ، ولهم شعار يتعارفون به في الليل ..

تقام الصلوات خمس مرات في النهار، وربما ناموا أثناء النهار ، ليقضوا أكثر الليل في السمر والحديث ..

من صفات أهل نجد :

الوهابيون يصبرون على الجوع والعطش ، وقد يقضون يومين كاملين من دون أكل ولا شرب ، فلا يتشكون ..

لباسهم ثوب وعباءة وعلى رؤوسهم « كوفية » ، وقد يلبس بعضهم في الشتاء « شالاً » يُجلب من مسقط يدعى : « دشمال » ، وغنيهم يلبس ثوباً من جوخ .

سكان نجد أصحاب مزاج « جاف » ، ولونهم أسمر وشعرهم أسود ، والجباه عريضة ،وقد يتكحلون،ووجوههم في كثرتهم غير مستديرة بل طولانية،

وشفاههم بارزة ، ونظراتهم فيها بعض الزهو والقسوة .. أما نساؤهم فجميلات وربما جعل الحجاب ألوان بشراتهن أقل سمرة ..

يعمّر النجديون كثيراً وبعضهم تتجاوز أعمارهم الثمانين .. تتزوج البنات في سن مبكرة وأحياناً في العاشرة .

الأمراض والأدوية :

ليس في نجد أطباء ، والمريض يعالج بالاعراف والتجارب .. وهم يصفون لعسر الهضم والإمساك : (السنا) – السنامكي – وللروماتيزما ، أو وجع المفاصل : الدلك بشحم الغنم أو الزيت المسخن ، وللزحار والمغص : حليب الناقة فإن لم ينفع عمدوا إلى الكيّ ، وهم يستعملون الحجامة والفصد أيضاً وخصوصاً في (الاستسقاء) – ايدروبيزى – ويعالجون الجدري بالحمية وبرشّ الرماد على البثور لتجف ..

أما المجنون فيعالجونه بضربه ، وربما ربطوا يديه ورجليه بالحبال .. أو استعانوا برجل يخرج الشيطان من جسده ..

المنتوجات :

قدر لنا عمال الاعشار محصولات نجد الزراعية كما يأتي :

مليونان ونصف المليون من الصاعات	من القمح
مليونا صاع	من الشعير
مليون ونصف مليون صاع	من الأرز
أكثر من مليون ونصف مليون صاع	من الذرة
ربع مليون صاع	من الدخن (الذرة الصغيرة الدخنية)
أكثر من عشرة آلاف وزنة	من الزعفران
١٨ مليون وزنة	من التمر

ويؤخذ من المزارعين عشرة بالمائة من محصولاتهم في الأراضي المروية ونصف العشر في البعلية .

والمكاييل هي : الصاع ، وكل ٩٨ صاعاً تعادل اردباً واحداً مصرياً .

والموازين هي : الرطل ويعـــادل ١٩٨ درهماً ، والوزنة وتساوي رطلين وثلث الرطل .

العمـــلة :

حاجات الأهالي محدودة وعند كثير منهم أكثر ما يستهلكه من ضرورات المعيشة ، ولذلك يقلُّ النقد المتداول بينهم ..

وهم يستعملون الليرات الذهبية العثمانيـة المضروبة في استانبول ، والقروش الاسبانية ، ومختلف الدنانير الذهبية المضروبة في إيطاليا وهنغاريا ، وغير ذلك من النقود المستعملة في الهند والبصرة ..

دائرة المعارف الاسلامية

وقالت دائرة المعارف الإسلامية :

(.. بعد أن قام سعود بعدة حملات صغيرة على بغداد وعمان ، صمّم على أن يتخلص من حكم الشريف غالب ، فاحتل المدينـة عام ١٢٢٠ واحتل مكة في ذي القعدة من السنة نفسها .

ولما كان الشريف غالب يريد أن لا يذهب ما بقي له من نفوذ ، فقد خضع تمام الخضوع للوهابيين فانتشر المذهب الوهابي في الحجاز .

ولقـد رفض الوهابيون السماح لقافلة المحمل الذي أعدّته الحكومة التركية بدخول الأراضي المقـدسة ، وأبطل سعود الخطبة للسلطان ، وقال في رسالة رسمية انه ليس على والي دمشق أن يعتنق المذهب الوهـابي فحسب ، بل على السلطان نفسه أن يفعل ذلك أيضاً ، ولما رفض صاحب دمشق رفضاً باتاً أن يذعن لمشيئته أجاب سعود بسلب حوران في يوليه عام ١٨١٠ م .

ونظم سعود القرصنة التي كانت تقوم بها القبائل القاطنة على الخليج الفارسي إلى درجة اضطرت معها الحكومة الهندية عام ١٨٠٩ إلى إعداد حمـلة كبيرة اقتحمت رأس الخيمة في ١٣ نوفمبر من السنة نفسها وقضت على اسطول القرصان.

ولما عجز الباب العالي عن صدّ هجمات الوهابيين على ممتلكاته ناط بمحمد علي باشا والي مصر غزو الحجاز .

وفي أواخر اكتوبر أو أوائل نوفمبر عام ١٨١١م. بدأت الحملة المصرية الاولى بقيادة طوسون باشا غزو ينبع البحر وينبع البر .. ومع ذلك فقد هزم عبدالله وفيصل ابنا سعود طوسون باشا في ممر جديدة الضيق في أثناء تقدمه نحو المدينة في ٧ ذي القعدة عام ١٢٢٦ هـ . وأرغم على التقهقر إلى ينبع ، ولم يتابع حركاته الحربية إلا متأخراً في خريف عام ١٨١٢ فنجح هذه المرة بعض النجاح، وسلمت له المدينة في نوفمبر ومكة في أواخر يناير عام ١٨١٢ واقتحم الطائف بعد ذلك بأيام قليلة .

بيد أن الوهابيين نجحوا في صدّ تقدم المصريين إلى تربة صيف عام ١٨١٣ .

وفي أواخر اغسطس نزل محمد علي بنفسه إلى جدة ، وحاول سعود عبثاً أن يتفاوض معه في الصلح ..)

رأي الالوسي في سياسة سعود

قال ابن سحمان ، في تذييله على تاريخ نجد للألوسي :

(ان السيد محمد شكري الألوسي ، لمـــا ألـّف تاريخ نجد ، ذكر فيه ان مذهب أهل نجد في أصول الدين مذهب أهل السنة والجماعة، وان طريقتهم هي طريقة السلف ، التي هي الطريقة الأمثل بل الأحكم .

ذكر ذلك بالأدلة الشرعية مفصلاً ، وذكر قبل ذلك معتقد أهل نجد وما كانوا عليه وانهم لم يخرجوا عما كان عليه السلف الصالح والصدر الأول .

.. ثم نقض ذلك في آخر تاريخه ، لما ذكر ولاية سعود بن عبد العزيز ، بعد أبيه ، وأثنى عليه ثناء جميلاً ، وأعقب ذلك بقوله :

« بيد انه منع الناس عن الحج ،

وخرج على السلطان ،

وغالى في تكفير من خالفهم ،

وشدّد في بعض الأحكام ،

وحملوا أكثر الأمور على ظواهرها ،

كما غالى الناس في قدحهم ..

والانصاف : الطريقة الوسطى ،

لا التشديد الذي ذهب اليه علماء نجد وعامتهم من تسميتهم غاراتهم على المسلمين .. بالجهاد في سبيل الله ، ومنعهم من الحج .

ولا التساهل الذي عليه عامة أهل العراق والشامات وغيرهما ، من الحلف بغير الله وبنـــاء الأبنية المزخرفة بالذهب والفضة والألوان المختلفة على قبور الصالحين والنذر لهم ، وغير ذلك من الامور التي نهى عنها الشرع » .

قال ابن سحمان : (فانظر الى هــذا الكلام ، بعد ذكره لمعتقدهم وحسن سيرتهم في الاسلام والمسلمين، حيث نقض ما أبرمه هناك ، بما حكاه ها هنا عن أهل الاسلام مما هم بريئون منه ..) .

الملحق

رسائل سعود ومواعظه

من سعود الى الكتخدا علي بك

بسم الله الرحمن الرحيم

وعليه أتوكل ولا قوة إلا بالله

﴿ الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون ، وهو الله في السموات وفي الأرض يعلم سرّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون ، وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين ، فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ، ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين، ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هـذا إلا سحر مبين ﴾ . وقـال تعالى : ﴿ تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً، الذي له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدّره تقديراً ، واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة

منه بل أن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً ﴾ . وقـــال تعالى : ﴿ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات إيتوني بكتاب من قبل هذا أو إثارة من علم إن كنتم صادقين ، ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ . وقــال تعالى : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أوليــاء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ، إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم ﴾ . وقال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿ يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بهـا من سلطان إن الحكم إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ . وقال تعالى مثلاً لمن دعا غيره : ﴿ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾. وقـــال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ . وقــال تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ، قـــالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ . وقــال تعالى : ﴿ وإذ قال الله يا عيسى أأنت قلت للناس اتخذوني وأُمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علاّم الغيوب ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ، يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾ . وقــال تعالى : ﴿ ومن

يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾. وقال تعالى: ﴿ إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ألم أعهد اليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين ، وان اعبدوني هذا صراط مستقيم . ولقد أضل منكم جبِلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ . وقال تعالى : ﴿من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾. وقال تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴾ . وقال تعالى : ﴿ والذين كفروا بربهم أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات في بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ . وقال تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وقدمنا الى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً ﴾ . وأمثال هذا في القرآن كثير كل ذلك في النهي عن الشرك وتقبيحه وبيان بطلانه ، والتبرؤ منه واجب قبل التوحيد، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ . وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ . وقال تعالى: ﴿ له دعوة الحق ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ذالكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير ، إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . وقال تعالى : ﴿ واسأل ما أرسلنا من قبلك من رسلنا

أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾. وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ . وقال تعالى : ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ . وقال تعالى: ﴿ فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون﴾. وقال تعالى: ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات ﴾. وأكثر القرآن يدل على هذا ويقرر عبادة الله وحده لا شريك له ويحذر من عبادة ما سواه .

والعبادة هي أفعال العباد وهي اعتقاد بالقلب ونطق باللسان وعمل بالأركان، فمن صرف من ذلك شيئاً لغير الله فهو مشرك سواء كان عابداً أو فاسقاً وسواء كان مقصوده صالحاً أو فاسداً ، ولا يعمى عن هذا إلا طاعة الشيطان واتباع الهوى والتكبر عن اتباع الحق والمجادلة بالباطل كما قال تعالى : ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ ، وقال تعالى لعبده داود عليه السلام : ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون ﴾ ، وقال تعالى حكاية عن المشركين : ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ﴾ ، وفي الآية الاخرى : ﴿ إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد ﴾ إلى قوله : ﴿ وجادلوا

بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب ، وكذلك حقّت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ والذين يحاجّون في الله من بعـــد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾ ، وقال تعـالى : ﴿ وإذا تُتلى عليه آياتنا ولّـى مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراً فبشّره بعـــذاب أليم ، وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين ، من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ، هـــذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴾ ، وقال تعالى في حق القرآن : ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يضلُّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلُّ به إلا الفاسقين ﴾ ، وقال تعـالى : ﴿ وإذا ذُكر الله وحده اشمأزّت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذُكر الذين من دونـــه إذا هم يستبشرون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً ، قل إنمـــا أدعو ربي ولا أشرك به أحداً ، قل إني لا أملك لكم ضرّاً ولا رشداً ﴾ ، وقال تعـالى : ﴿ فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ، ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾. والهدى الذي وعد الله به خلقه محمد ﷺ والقرآن، والآيات القرآنية والأحاديث النبوية ما تحصى ولا تعد .

فمن ذلك أنه ﷺ أخـــذ عشر سنين وبعض الحادية عشرة قبل أن تفرض الفرائض يدعو الناس إلى توحيد الله وعبادته وترك عبادة ما سواه ، يوافي الناس بالمواسم ﷺ بعكاظ وذي المجاز ومجنة يقول : « يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله كلمة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم وتكونون بها ملوكاً في الجنـة » ، فلمـا قال لعمه أبي طالب حين حضرته الوفاة : « يا عم ، قل لا إله إلا الله » ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ ولما قـــال لقومه : « قولوا لا إله إلا الله » ﴿ قالوا أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هــذا لشيء

عجاب ﴾ فعرف كفار قريش أن قول لا إله إلا الله ليس مجرد اللفظ وإنما معناها نفي الإلهية عما سوى الله وإثباتها لله تعالى وحده لا شريك له ، فلا خير في من كفار قريش أعلم منه بمعنى لا إلا إلا الله ، وفي الحديث : « أمرت أن أقــاتل النــاس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة »، وفي الحديث الثاني : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » قال أبو بكر رضي الله عنه : فإن الزكاة من حقها والله لو منعوني عقــالاً ، وفي رواية عناقاً كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها ، وفي الحديث الثالث :« أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به » ، وفي الحديث أنه قال ﷺ : « بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذل والصّغــار على من خالف أمري ومن تشبّه بقوم فهو منهم » ، وفي الحديث أيضاً حين سأله جبرائيل عليه السلام بحضرة الصحابة رضوان الله عليهم ، قال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، قال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمــداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت » ، قال : صدقت ، قــال : فأخبرني عن الإيمان ، قـــال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره » ، قال : صدقت ، قال : فأخبرني عن الإحسان ، قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » الخ الحديث ... فلمــا ولى قال لعمر : أتدري مَن السائل ؟ » قال : الله ورسوله أعلم ، قال : « هــذا جبرائيل أتاكم يعلمكم أمر دينكم » .

ومن ذلك ممــا يرد قولكم ويبطل أعمالكم قوله ﷺ : « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » ، وفي الحديث الآخر : « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » ، وفي الحديث أنه قال ﷺ : « **افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار الا واحدة** » ، قالوا : وما هي يا رسول الله ؟

قال : « من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي »، وقـال ﷺ : « إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم » ، قال الله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ﴾ ، وقال تعـالى : ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ ، وفي الحديث عنه ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسّكوا بها وعضوا عليهـا بالنواجذ وإياكم ومحدثات الامور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » ، فالناصح لنفسه الطالب نجاتهـا المتبـع للحق يأخذ دينه من أصله من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ، ﴿ ومن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ . وهـذا كتاب الله بين أيديكم وتفاسيره موجودة وأحاديث رسول الله ﷺ كذلك ، وشروح العلماء الربانيين ومـا فسروا به القرآن والأحاديث ، والقول الذي لا حقيقة له لا يجدي على قائله شيئاً فدعواك أنك على حق فمعاذ الله ووعودك باطلة ، ومن أكذب الكذب ، وكل من له عقـل صحيح يشهد ببطلان قولك وافترائك وكذبك ، فإن قلت ان الله أمر بعبادة غيره أو أمر رسوله ﷺ بهـا فهذا عين الباطل وأكذب الكذب الذي ترده الفطر وكتاب الله وسنة رسوله ، وإن قلت إنكم لم تعبدوا غير الله ولم ترضوا بذلك ولم تأمروا به الناس فأفعالكم تبطل أقوالكم ظاهراً وباطناً ، فإذا كان هـذه الحضرات الباطلة والمشاهد الملعونة والبنايا على القبور وصرف حق الله تعالى لها من دعاء وذبح ونذر وخوف ورجاء وسؤال ما لا يسأل إلا من الله تعالى والصلاة عندها والتمسح بهـا والهدايا اليها ومـا أشبه ذلك من الامور الشنيعة القبيحة كل ذلك موجود عندكم ظاهراً والذي لم يفعل ذلك فهو راض بفعله وذابّ عن أهله بالمال واللسان واليد، وكذلك الصلوات الخمس متروكة ، وكثير من الناس عندكم لم يصلوا جمعة ولا جمـاعة ولا منفردين والذي يصلي منكم الكثير منهم يصلي في بيتـه منفرداً والذي يصلي جماعة قليل النـاس فإذا صلى خرج على الناس وهم في الأسواق تاركين الصلاة

مقيمين على الفسوق واللهو والفجور والبغي ولا ينكر عليهم ، وكذلك الزكاة متروكة لا تخرج من الأموال ولا تخرص الثمار ولا يعمل فيها عمل رسول الله ﷺ ولا تجبى زكاتها ولا تصرف في مصارفها التي صرفها الله من فوق سبع سموات ، كما قال ﷺ : « إن الله لم يرض في الزكاة بقسم نبي ولا غيره بل جزأها بنفسه وتولى قسمها بقوله تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ . وجميع أعمال البر غير الفرائض لم تكن لكم شعاراً ولم تأمروا بها وجميع القبائح عندكم ظاهرة وهي سجية كثيركم الشرك بالله والزنا واللواط فعل قوم لوط أهل المؤتفكات الذين قال الله فيهم : ﴿ والمؤتفكة أهوى فغشاها ما غشى ﴾ نعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم من سخطه وعقابه ، وكذلك الربا والسحر والادعاء ـ يعني ادعاء علم المغيبات ـ وجميع الآثام كالخمر وأنواعه من المسكر كالتنباك وأشباهه والبغي والظلم والعدوان وأخذ أموال الضعفاء والفقراء وأرباب الأموال وأهل الحرث تأخذون أموالهم قهراً وظلماً وعدواناً ، وأشباه ذلك مما يطول عدُّه ويكثر ذكره كل ذلك وأمثاله عندكم لم تنكروه ، والذي يدّعي أنه لم يفعل من ذلك شيئاً فهو كما قدمنا لم ينكر ولم يفارق أهله بل هو قائم بنصرتهم بماله ولسانه ، فهو وإن لم يفعل ذلك فهو وهم سواء كما قال تعالى : ﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه ﴾ الآية . . وقال تعالى : ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون ﴾ ، وفي الحديث : « أنا بريء من مسلم بين ظهراني المشركين » ، وفي الحديث الثاني : « ولا تراءى ناراهما » ، وها أنتم تعرفون فعلكم وتعرفون ما عندكم من الشرك والقبائح وتعرفون أنفسكم كما قال تعالى : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره ﴾ .

وإن قلت أيهــا المبطل إن الذي أنتم عليه هو الذي أمر الله به ورسوله فقد كذبت وافتريت على الله ورسوله وكابرت بالكفر والضلال ونسبت إلى الله مــا لا يليق به ونسبت إلى رسوله ﷺ ما لا يليق بحقه ، ويكذبك في ذلك كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع سلف الأمة وخلفها كما قال تعــالى : ﴿ فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين ﴾ ، واعتمدت في ذلك على قول إخوانك الكفرة الذين من قبلك بمــا ذكر الله عنهم في كتابه بقوله تعالى : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مـــا لا تعلمون ؟ قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عنــد كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ﴾ ، وقوله : ﴿ ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ ، وذهبت إلى مــا ذهب اليه أخوك فرعون حيث قال لما دعاه موسى عليه السلام قال لقومه : ﴿ ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ فزعم عدو الله أنه واعظ مذكر قبّحه الله من واعظ ومذكر ، وذهبت إلى ما ذهب اليه أخوك أبو جهل حين قنت عليه رسول الله ﷺ قال : « اللهم اقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرفه فاحنه الغداة » ، قال الله تعالى : ﴿ إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ فأحانه الله الغداة ولله الحمد والمنة ، وطأ على رقبته عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في المعركة ، وقال عدو الله: لمن الدائرة اليوم ؟ فقــال : لله ورسوله ، يا عدو الله جعلك الله كذلك ، ونقول جعلك الله كذلك إن شاء الله تعالى .

وأما إنكارك علينا تحليق الرؤوس وتقول إنا نحرم إسبال الشعر ولم تلق علينا غير ذلك فنقول إنك كاذب علينا ولا نقول انــه حرام إسبال الشعر ونعلم أن رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم يسبلون الشعر وها أنتم تعلمون أن رسول الله ﷺ أمر بحلق الشوارب وإرخاء اللحى وخالفتموه حلقتم اللحى وعقدتم الشوارب وشابهتم النصارى في ذلك ، فان كنت تزعم أن كل من حلق رأسه خارجي فانظر في رعاياك وتراك ما تلقى في بغداد إلا محلوقاً رأسه وربما أنك محلوق رأسك ، فالذي نفعل ولا ننكر أنه لما رزقنا الله الإسلام وقـــام

القتال بيننا وبين أعدائنا وقع مقاتلة عظيمة ومعركة واختلط المسلمون والكفار فحاذر المسلمون على بعضهم من بعض وكثير منهم اختــار التحليق وبعض منهم ما يحبون الشعر والشعر إما يحسن أو يحلق ومن شاء التحليق حلق ، ومن شاء الإسبال أسبل ولم نمنع أحداً من ذلك ، وأما الذي يسبل الشعر ويجعله وسيلة الى الكفر والردة فنحلق رأسه غمـــاً له وإخلافاً لعقيدته الفاسدة إذا ظننا به الشر ..

وأما ما ذكرت أنا نقتل الكفار فهذا أمر ما نتعذر عنه ولم نَـسْتَـخْـفِ فيه ونزيد في ذلك إن شاء الله ونوصي به أبناءنا من بعدنا وأبناؤنا يوصون به أبناءهم من بعدهم ، كما قال الصحابي : على الجهاد ما بقينا أبداً .

ونرغم أنوف الكفار ونسفك دماءهم ونغنم أموالهم بحول الله وقوته ، ونفعل ذلك اتباعاً لا ابتداعاً طاعة لله ولرسوله وقربة نتقرب بهـا الى الله تعالى ونرجو بهـــا جزيل الثواب بقوله تعالى : ﴿ اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ﴾ الآية. وقوله : ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ﴾ الآية . ونرغب فيما عند الله من جزيل الثواب حيث قال تعالى: ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذالكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهـــار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله

وفتح قريب وبشر المؤمنين ﴾ . والآيات والأحاديث ما تحصى في الجهـــاد والترغيب فيه .

ولا لنا دأب إلا الجهاد ولا لنا مأكل إلا من أموال الكفار ، فيكون عندكم معلوماً أن الدين مبناه وقواعده على أصل العبادة لله وحده لا شريك له ومتابعة رسوله ﷺ باطناً وظاهراً كما قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ .

وأما ما ذكرت من مسكننا في أوطان مسيلمة الكذاب فالأماكن لا تقدس أحداً ولا تكفره وأحب البقاع الى الله وأشرفها عنده مكة الــــتي خرج منها رسول الله ﷺ وبقي فيهـا إخوانك أبو جهل وأبو لهب ولم يكونوا مسلمين ، والله جل ثناؤه جرت عادته بالمداولة ولو في الأرض ، بدّل دين مسيلمة بدين محمد ﷺ وبدّل تصديق مسيلمة بتكذيبه وتصديق محمد ﷺ ، ونحن نرجو الله أن يبدّل ذلك في أوطانكم سريعاً ، ونحن نزيل منها الباطل ونثبت فيها الحق إن شاء الله بحول الله وقوته .

وأما ما ذكرتم أنكم مشيتم على الاحساء فنقول الحمـد لله على ذلك المشى فإنه ولله الحمد والمنة هتك أستاركم به ونزع بـــه مهابتكم من قلوب المسلمين وأخزاكم الله به الخزي العظيم الظاهر والباطن الذي ما عليه من يد وقبله المشى الذي أخذت بـه مدافعكم وقتلت فيه عساكركم يهلكون في كل منها ولكن كما قـال تعالى : ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ . وقـال تعالى : ﴿ ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة او تحل قريباً من دارهم حتى يأتي وعد الله إن الله لا يخلف الميعاد ﴾ . فلما أتيتم الاحساء وارتدّ معكم أهلها ولم يبق إلا قصران من المسلمين في كل أحـــد منهما خمسون رجلاً فيهم أطراف الناس ما يعرفون من المسلمين وأعجزكم الله تبارك عنهم وكدتموهم بكل كيد تقدرون عليه مع وجه الأرض وباطنها ، ونحن في ذلك نجمع لكم الجموع ولا لنـا همـة غير ذلك ، فلما تهيأنا للهجوم عليكم ولم يبق بيننا وبينكم إلا مسيرة خمس مراحل قذف الله الرعب في قلوبكم ووليتم هاربين منهزمين لا يلوي أحد

على أحد وأشعلتم النار في علف حصنكم وثقل حملكم وخيامكم كما قال تعالى : ﴿يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ . فلما علمنا بانهزامكم مدبرين أخذنا لوجهكم طالبين ، ورجع من المسلمين قريب ثلثي العسكر لما عرفوا أن الله أوقع بكم بأسه ، ولحقناكم وأتيناكم من عند وجوهكم ونوخنا مناخ سوء لكم ورجونا أن الله قد أمكننا منكم وأن يمنحنا أكتافكم ويورثنا أرضكم ودياركم فلما حل بكم العطب وضاقت عليكم الأرض بما رحبت واستسلمتم لزهوق نفوسكم توسلتم بابن ثامر وأمرته يبدي لنا الرقة والوجاهة جاءنا ثم جاءنا ركبك وكتابك وتوجهك وجنحنا لقوله تعالى : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ . وأنت في تلك الساعة متحير برهانك ضائع رأيك تتأكى في وسدد الناس على المراغة وتقول أحطكم في جحر عيني ، ولحّ علينا حمود بن ثامر ومحمد بيك بالوجاهة وفي حال الحرب وأنت متق عنا بالعربان جاعلهم بيننا وبينك ولا خير فيمن جعل الاعراب ذراه.

وقولك إنا أخذنا كربلاء وذبحنا أهلها وأخذنا أموالها فالحمد لله رب العالمين ولا نتعذر من ذلك ونقول : ﴿ وللكافرين أمثالها ﴾ .

وقولك إنك طلبتنا أنت وباشتك فالكذب عيب في أمر الدين والدنيا ، ﴿ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴾ . وجميع الناس يفهمون أنا لما نزلنا الاخيضر فوق القصر على ثغبان أقمنا بها سوق الحراج على أموال الكفرة عبدة الأوثان ، وأقمنا احدى عشرة ليلة على منزل واحد وركابنا كلها عزيب ليست عندنا وربما عندك من العربان من هو معنا في ذلك المنزل اسألهم يخبرونك إن كنت لا تدري ، ونحن ننتظركم في تلك المدة انكم تظهرون علينا ونكر عليكم ونستأصل عساكركم ونتغلب على بلدانكم فلما أيسنا منكم وفرغ المسلمون من بيع ما أفاء الله عليهم رحلنا بالعز والسلامة والمغنم والأجر إن شاء الله تعالى ، ثم بعد ذلك مشينا ونزلنا على بلدك البصرة وأقمنا بها عشرة أيام وذبحنا ودمرنا ما بلغك علمه .

والممشى الثالث تحريناك في رأس الهندية فلم نجدك وقدمنا الى المشهد قواسة يقوسون حفره فلما قصر الخشب رجعنا ونزلنا الهندية وقعدت جموع المسلمين حتى وصلت قريباً من خان ذبلة وكل من لقوه وضعوا عليه السيف ومن خان ذبلة الى البصرة أقمنا بهـا قريباً من عشرين ليلة نأخذ ونقتل من رعاياك الحاضر والبادي والأثر يدل على المؤثر ، انظر ديارك الفلاحين والبوادي من بغداد الى البصرة كم دمرت من الديار ولم يبق فيها أثر ولله الحمد والمنة كل جميع هذه الجهة .

وما ذكرت من جهة الحرمين الشريفين الحمد لله على فضله وكرمه حمداً كثيراً كما ينبغي أن يحمد وعز جلاله لما كان أهل الحرمين آبين عن الاسلام وممتنعين عن الإنقياد لأمر الله ورسوله ومقيمين على مثل ما أنت عليه اليوم من الشرك والضلال والفساد وجب علينا الجهـاد بحمد الله فيما يزيل ذلك عن حرم الله وحرم رسوله ﷺ من غير استحلال لحرمتها ، ونحن ولله الحمـد أهل احترام لحرمه وتعظيمه لا أنتم كما قـال الله تعالى : ﴿ وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ . فلما ضاق بهم الحـال وقطعنا عليهم السبل ثم بعد ذلك فاؤا ورجعوا وانقادوا الى أمر الله ورسوله وأذعنوا للإسلام وأقروا به وهدمنا الأوثان وأثبتنا فيها عبادة الرحمن ، وأقمنا فيها الفرائض ونفينا عنها كل قبيح مما حرّم الله ورسوله ولم نكن ولله الحمـد نسفك فيها دماً ولا نأخـذ مالاً ولا ننفر منها صيداً ولا نعضد شجراً ، فإذا كنت تزعم أنها من ولايتك فما منعك أن تفك ولايتك أو تنفع أهلها بميرة حين ضاق بهم الحال ، بل كنت الى الآن لم تؤد فريضة حجك وأرجو أن تموت على ملتك النصرانية ، وتكون من خنازير النار إن شاء الله .

وما ذكرت من افتخارك أنك وزير بغداد فنعوذ بالله من هـذه الوزارة بل تحملت وزرك وأوزار من اتبعك كما قال تعالى : ﴿ ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون ﴾ وإنما افتخر بمثل ذلك أخوك فرعون بقوله : ﴿ أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون ﴾ الى قوله : ﴿ فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين،

فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود ، وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ﴾ ، فلما ولاك الله رعيتك فما بالك لم تتولّها بخير بل توليتها بشرّ ، فعلت بهم من الظلم وسفك الدماء والعدوان ما لا يوصف ولايفعله من يؤمن بالله واليوم الآخر ،وخنتَ في أمانتك التي استأمنك عليها سيدك سليمان باشا الذي اشتراك من حر ماله وجمعك أنت رابع أربعة حين حضرته الوفاة يوصيكم على عياله وأخذ عليكم العهد والميثاق وخنت بالعهد وذبحت الثلاثة ونفيت عيال سيدك من مملكتهم وتوليت أموالهم ، والعجب كل العجب من رعيتك الذين يزعمون أنهم أهل ذكاء وفطنة يرضون أنهم يولون عليهم رجلاً أصله نصراني على غير ملّتهم وفرعه مملوك وهذا أعظم ما دلّنا على ذهابهم إن شاء الله وتدمير أمرهم بحول الله وقوته ، فإن أردت النجاة وسلامة الملك فأنا أدعوك إلى الإسلام كما قال ﷺ لهرقل ملك الروم : « أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الاريسيين » ، ﴿ ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولايتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون ﴾ ، وقوله : ﴿ ادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ﴾، وقوله:﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون، يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمّ نوره ولو كره المشركون ﴾ .

وأما المهادنة والمسابلة على غير الإسلام فهذا أمر محال بحول الله وقوته وأنت تفهم أن هذا أمر طلبتموه منا مرة بعد مرة وأرسلتم لنا عبد العزيز القديمي ، ثم أرسلتم لنا عبد العزيز بيك وطلبتم المهادنة والمسابلة وبذلتم الجزية وفرضتم على أنفسكم كل سنة ثلاثين ألف مثقال ذهباً فلم نقبل ذلك منكم ولم نجبكم للمهادنة ، فإن قبلتم الإسلام فخيرتها لكم وهو مطلوبنا ، وإن أبيتم فنقول لكم كما قال الله تعالى : ﴿ فإن تولّوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ ،

ونقول : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ، ونقول : يا ﴿ مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ ، ونقول : ﴿ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً ﴾ ، ونقول : ﴿ جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد ﴾ ، ونقول كما قال الله لنبيه ﷺ : ﴿ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ .

ومـــا ذكرته من المواعدة فالزمط ليس للرجال ونشيم أنفسنا عن الزمط والكذب ، ومتى وصلنا الله وصلناكم عن قريب إن شاء الله تعالى ، فإذا سمعت ضرب المدافع والبارود ورأيت الحريق في بلدانك إن شاء الله فلا تذخر ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم [1] .

---

(١) انظر الدرر السنية في الأجوبة النجدية .

رسالة سعود

الى يوسف باشا والي الشام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله معز من أطاعه واتقاه ، ومذل من أضاع أمره وعصاه ، الذي وفق أهل طاعته للعمل برضاه ، وحق على أهل معصيته ما قدّره عليهم بقضاه ، وأشهد أن لا إله إلا الله لا رب لنا سواه ولا نعبد إلا إياه وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً .

من سعود بن عبد العزيز الى جناب حضرة يوسف باشا وزير الشام ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإني أدعوك الى الله وحده لا شريك له كما قال النبي أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، والله تبارك وتعالى أرسل محمداً وأكمل الدين على لسانه ، وأخبر جل جلاله في كتابه من يطع الرسول فقد أطاع الله ، وأول ما دعا اليه النبي عبادة الله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه ، قال الله تعالى : ﴿ ولقد بعثنا في كل أُمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾. وقال تعالى: ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون

له بشيء ﴾. وقال تعالى: ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله ﴾ . وقال تعالى: ﴿ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ﴾. وقال تعالى: ﴿ ومن يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار ﴾ . وقال تعالى: ﴿ لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ . وأمر جل جلاله بطاعة رسوله والدين مبني على اتباع أمر الله وأمر رسوله والاختلاف بيننا وبين الناس عند هذين الأصلين أي الاخلاص والمتابعة فالأول نفي الشرك والثاني نفي البدع ، قال الله تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ . وفصل النزاع بين المختلفين عند كتاب الله وأصل الدين الذي ندعو اليه الناس هو ما دعا اليه محمد ﷺ إخلاص العبادة لله وإقامة الفرائض الذي افترض الله عليه ونفي الشرك وتوابعه من كل قبيح وهذه تكفي عن التفصيل فإن هداك الله فخير يهيأ لك وتفوز بسعادة الدنيا والآخرة ولا نلزمكم إلا ما أوجب الله عليكم وشهدتم انه الحق ولا ننهاكم إلا عما حرّم الله عليكم وشهدتم انه الباطل فإن أشكل عليكم الأمر وطلبتم المناظرة جاءكم منا مطاوعة وناظرناكم وإلا تقبلون علينا مطاوعتكم والمناظرة عندنا فإن أبيتم إلا الكفر بالله واخترتم الضلال على الهدى نقول كما قال جل جلاله : ﴿ فإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم ﴾ . ونقول يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين فإنه نعم المولى ونعم النصير [١] .

---

(١) هذه الرسالة وجدناها في تاريخ جودت ، باللغة التركية .

رسالة عليان الضبيبي

الى يوسف باشا والي الشام

بسم الله الرحمن الرحيم

من عليان الضبيبي إلى جناب عالي جناب الدستور المهاب عين الأعيان وعمدة الكبراء الفخام ذي القدر والاحتشام الوزير المكرم والي الشام الحاج يوسف باشا سلمه الله تعالى من الآفات وهداه إلى العمل بالباقيات الصالحات .

السلام عليك ورحمة الله وبركاته ثم بعده نخبرك لا أخبرت بمكروه أننا إن شاء الله تعالي ما نعرف إلا الذي فيه الصواب ، نعلمك بأحوال المسلمين حضر وأعراب ويحكمون مطاوعتهم بموقع كتاب الله المنزل بشريعة النبي محمد ﷺ ، وينصفون الضعيف من القوي وينهون عن الشينة ويهدون الزينة ولا يسلك عندهم مثل أحوالكم هذه الافتخار في الملابس وكل الحوادث غير المرضية لله فلا يقبلونها ونحن أعراب ونبينا محمد ﷺ عربي وأصحابه عرب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين ، فسبب تسطير هذه الأحرف اليك فهو اننا لما كنا عندكم بهذا العام وأعلمناكم بالواقع ولم أمكننا نصلكم لما تعينا على الأرزاق وصارت المسلمين ووجهها لطرفكم لكي يطالعوا ما يجلب الخير وما كان توجههم لمحاربة ونحن لم (نسفك) دماء الإسلام ما بيننا والآن كتب إمامنا المكرم سعود ولد عبد العزيز كتابة وهي واصلتك ومراده ترسلون علماءكم يقابلون علماءنا وكل منهم يوجب مسألة بما أنزله

الله على رسوله فإن اشتهيتم وأردتم ترسلوا لنا أربعة علماء يكونوا ذوي فصاحة على أربعة مذاهب ويلقوا علينا في مدينة الكرك ونتسالمهم بأمان الله تعـــالى بالاحتشام والإكرام حتى نوصلهم ونردهم سالمين بحول الله وقوته ولو اننا نشوف علماءنا يغلبوا فهم مكرمين مفرزين ، وان ما اشتهيتم أرسلوا لنا الأمان حتى نجيء بعلمائنا لأننـــا نعرف أمان الله فم سالكم صادق وكل من وقف على ديانة الحق إن شاء الله تعالى نتبعه ونحن نعرض عليكم بزيادة على ما في مكتوب سعود عن الإشراك في العبادة وذبح القربان لغير الله وبناء المقامات على القبور والاعتقاد في الأولياء والأنبيـــاء والشهداء والصالحين وأصحاب النوبة والأقطاب والفقراء والدراويش كل هذا يرجوكم بالشفاعة والتوسط وهذا كله عندنا إشراك وزيادها الخطايا الظاهرة مثل شرب الخمر واللواط والنساء الخارجات وسب الدين والحلف بغير الله وشرب التتن والأرجيله ولعب النقلة والورق والمحدث بالقهاوى وضرب الطاو ولعب الفقراء والأشعار وكل ما يلهي عن عبادة الله ، فكل هذا مكروه ويبعد عن الله تعالى وظلم العباد والبلاقص وقبول الرشوة من العلمـــاء ومراعاة الوجوه في الشريعة ، هذا كله بدعة وما يقبلن المسلمين فهذا شرحنا لكم فإن كنت قاصداً على الانتفاع عند الله ثم عنـــد سعود دائرتك مملكة لك ولوازمها بحقيقة الله لك وبغير أمر منزل فاطر السبع سموات ما نعمل شيئاً وأنت فاصل في رأيك وان كان خاطر في طلوع الحاج ارسل لنـــا نتواجه انت وسعود الذي يوجب الديانة الحقيقية نحن نتبعه والذي يجنب عنا فهو ضعيف ولا دين غير دين الإسلام ونحن متوجهون عليك بفاطر السموات والأرض نمقت دم الإسلام بإقبال العلماء لبعضهم وترسلوا لنا في المعتمد [1]) .

(١) الرسالة في تاريخ جودت ، والرسالة مكتوبة بلغة عامية ..

رسالة سعود

الى يوسف باشا والي الشام

بسم الله الرحمن الرحيم

من الموهب لله الى يوسف باشا حاكم الشام وطرابلس السلام التـــام والتحية والإكرام تهدى الى سيد الأنام محمد عليه أفضل الصلوات والسلام ، وبعـد ننهي الى جناب المكرم والحبيب المحترم يوسف باشا ، بلغه الله من الخير ما شاء ، فقد وصل الينا كتابكم وفهمنا ما حواه خطابكم صحبة الركب القادمين الى بيت الله الحرام إذ وصلوا بالسلام وحصل لهم ما أرادوا من مشاهدة تلك الأماكن العظام وقضوا المناسك وبلغوا المرام ووقع لهم منا ما شاؤا من حسن الرعاية والاحترام وعاملناهم بما استحقوه من الإكرام وتأملوا ما نحن فيه من إقامة الشرائع الدينية وإحيـاء السنن النبوية والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وما كنا لنتهدي لولا أن هدانا الله .

لقد جاءت رسل ربنا بالحق وكنا قبل منة الله علينا في هـذا الدين في غاية الجهل والضلال المبين فهدانا الله الى دين الاسلام فأنقذنا بـه من الضلالة وأبصرنا من العماية وجمعنا بعد الفرقة وأزال به الشرك والفساد ومكـّن دينه وأظهره في العباد والبلاد وأعاننا على إقامة العدل في جميع رعايانا الحاضر منهم والبـاد

وأزال الظلم من بينهم والفساد ومنَّ الله علينا في إقامة العدل في الرعية حتى صاروا والحمد لله على الحق بالسوية فاطمأنت البلاد وأمنت السبل من الظلم والفساد فالحمد لله على ما أولانا والشكر لله على ما أعطانا .

وقد بلغكم ما نحن عليه وندعو الناس اليه ، ولكن ربما يقع من نقل الأخبار زيادة ونقصان ،فنذكر لكم الآن حقيقة الأمر على وجهه لتكونوا لنا من معرفة دعوتنا على يقين وعسى أن تكونوا لنا من المسعفين على إقامة هذا الدين .

فيقيننا الذي نحن عليه وندعو الناس اليه هو : الاخلاص لعبادة الله وحده ، ولا نذبح القربان إلا لله ولا نرجو إلا هو ولا نخاف إلا منه ولا نتوكل إلا عليه وإننا نتبع الرسول ﷺ ونوجب طاعته على جميع المكلفين ونتسنن بسنته ونهتدي بهداية الله ولا نعبد إلا الله وحده ولا نتقرب إلا اليه بما شرع على لسان رسوله ﷺ مما دلت عليه النصوص القرآنية والسنة النبوية وهذان الأصلان هما حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله ولا إله معبود إلا الله فمن حرّف شيئاً من العبادة لغير الله فقد اتخذ إلهاً مع الله ، والله سبحانه قد أرسل رسله بالدعوة الى التوحيد وقال الله تعالى : ﴿ أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي اليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾. وقال تعالى : ﴿ فاعبدوا الله مخلصين له الدين ألا لله الدين الخالص ﴾.فالدعوة الى التوحيد هو دين الرسل فلا يدعى إلا الله وحده كما قال تعالى: ﴿ وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ . وفي الحديث عن الصادق المصدوق ﷺ أن الدعاء مخ العبادة ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ﴾ . فمن دعا غير الله واستغاث بغيره في كشف الشدائد وجلب الفوائد فقد أشرك بالله والله لا يغفر للمشرك كما قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ . وحكى الله تعالى عن المسيح عليه السلام انه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ، وقال تعالى : ﴿ والذين يدعون من دونه لا يستجيبون له بشيء إلا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما

دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴾ . وقـــال تعالى : ﴿ ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون ﴾ . فمن دعا إلهاً غير الله أو سأل ميتاً واستغاث به في قضاء الحاجات وتفريج الكربات فقد اتخذ إلهاً مع رب الأرض والسموات ، وكذلك من ذبح القربان لغير الله أو سجد له أو خافه خوف السراء أو اتكل عليه أو عبده لأن هــذه الأمور لا تصح إلا لله وحده ، وقــال تعالى : ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له فصلّ لربك وانحر ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾. وقال :﴿ولم يخش إلا الله فاعبدوه وتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾. فالتوحيد هو أصل دين المرسلين وأول ما ندعو الناس اليه .

من استغاث بالله وحده وأخلص له العبادة وعمل مــا فرض عليه فهو أخونا المسلم له ما لنا وعليه ما علينا .

ومن لم يصغ لذلك بل أقام على شركه كفرناه وقاتلناه كما أمرنا الله بذلك بقوله : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ .

ونأمر بإقامة الصلاة في أوقاتها بأركانها وأحيانها ونلزم جميع رعايانا ومن هو تحت طاعتنا بذلك ، ونأمرهم بإيتــاء الزكاة وصرفها في مصارفها الشرعية المذكورة في سورة (براءة) ، وبصيام رمضان ، وحج بيت الله الحرام ، ونأمرهم أن يعرفوا فضل الله ومنّته ومعروفه ، وننهى عن المنكر من الزنا والسرقة وشرب الخمر والحشيشة وما يشاكلها وأكل أموال الناس بالباطل ، ونأخذ الحق من القوي للضعيف وننصف المظلوم من الظالم ، وننهى عن سائر المنكرات ، ونزيل البدع السيئات المحدثات .

ونحن في الاعتقاد على عقيدة السلف الصالح من الصحابة وتابعيهم ، نعبد الله ونقدسه بما وصف به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تحريف ولا تعطيل ، ونثبت لله مـــا أثبت لنفسه من الصفات وننفي عنه مشابهة المخلوقات ، ولا نكفر أحداً من أهــل الإسلام بذنب ولا نكفر بالله

ورسوله إلا من أشرك بالله وسأل من غير الله قضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، ولا نقاتل إلا من أمر الله بقتاله من المشركين ومن ترك شرائع الدين ، قال تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ﴾ . وثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ قال : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله » فعلق رسول الله العصمة على الشهادتين اللتين هما أصل دين الإسلام وعلى إقامة الفرائض من الصلاة والزكاة ، ومن لم يفعل ذلك لم يعصم دمه وماله ، ومن فعل ذلك فهو مسلم لله ، له ما للمسلمين .

فهذا الذي ذكرناه هو حقيقة ما نحن عليه وندعو الناس اليه ، ونحمد الذي هدانا لهذا الدين ومتعنا باقتفاء أثر سيد المرسلين ، وأنت في حفظ الله وأمانه ، آمين [١] .

---

(١) الرسالة في تاريخ جودت .

رسالة سليمان باشا

الى سعود بن عبد العزيز

بسم الله الرحمن الرحيم

ن سليمان والي أقاليم الشام من طرف الدولة العثمانية أيّدها الله إلى يوم القيامة وثبتها على عقيدة أهل السنة والجماعة ، إلى سعود بن عبد العزيز .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد خاتم النبيين والمرسلين وآله الطيبين الطاهرين ومن يتبعهم إلى يوم الدين .

أما بعد ، فقد وصل الينا كتابكم المرسل إلى سلفنا يوسف باشا المنبىء عن أحوالكم كما لا يخفى وقرأناه وفهمنا معناه وفحواه وما ذكرتم من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية فعلى غير ما أمر الله ورسوله من الخطاب إلى المسلمين بمخاطبة الكفار والمشركين وهذا حال الضالين وقسوة الجاهلين كما قال الله تعالى: ﴿ وأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ﴾ ، وأما نحن أهل الجماعة والسنة من الملة المحمدية نؤمن ونقرّ بتلك الآيات الشريفة القرآنية والأحاديث النبوية ، ولكن نقرأها على الكفرة الفجرة لا على الملة الإسلامية فإن ذلك يوجب كفراً بإجماع الأئمة الأربعة ، وبهذا إن اعتقادكم غير اعتقاد أهل السنة والجماعة وكذلك فيما أرسله عليان الضبيبي الحاوي للافتراق والشبهات ،

وإننا بحمد الله والمنة على الفطرة الإسلامية والاعتقادات الصحيحة ولم نزل بحمده تعالى وتوفيقه عليها نحيا وعليها نموت كما قال الله تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ ، فظاهرنا وباطننا بتوحيده تعالى وصفاته كما بيّن في كتابه ، قال تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » ، وكما قال : بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع اليه سبيلاً » ، فنحن بحمد الله وتوفيقه معاشر أهل السنة والجماعة متمسكون بالكتاب والسنة قائمون بالأركان الإسلامية والإيمانية ، آمنا بالله وبما أُنزل الينا ولا نشرك به شيئاً ، نحلّ ما أحلّ الله ونحرّم ما حرّم الله ، وأطعنا على ذلك إمام المسلمين سلطاننا وولاتنا ونقاتل أعداء الدين كأعدائنا ، فنحن مسلمون حقاً ، وأجمع على ذلك أئمة المذاهب الأربعة ومجتهدو الدين المحمدي من الكتاب والسنة .

وأما طلبكم منا أربعة من علمائنا او إرسال مطوعيكم لأجل المباحثة والمناظرة فقد وقع ذلك مرات من غيرنا وقد تبين الرشد من الغيّ وحصحص الحق والحق أحق أن يتبع وماذا بعد الحق إلا الضلال وهذا ما قيل وما يقال والتزلزل محال ، وأما ما اعترينا وما ابتلينا به من المعاصي والذنوب فليست أول قارورة كسرت في الإسلام ولا يخرجنا من دائرة الإسلام كما زعمت الخوارج من الفرق الضالة الذين عقيدتهم على خلاف عقيدة أهل السنة والجماعة من الملة المحمدية ، وقد بشرنا الله تعالى بآيات لا تُعد ولا تُحصى وكذلك سنن الهدي بما يكفرها ويمحوها وما يوجب حدودها وردّ مفاسدها ، قال الله تعالى : ﴿ إن الحسنات يذهبن السيئات ويدرؤن بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار ، إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً

وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ ، وقال ﷺ : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » ، وقد وقعت الحدود الشرعية في زمن خير الورى وجرت إلى زماننا هذا ، ونحن بحول الله تعالى نقيمها كذلك إلى ما شاء الله تعالى ولا عصمة لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وهـذا لسان الملة الإسلامية وعقيدة أهل السنة والجماعة ، قال تعالى : ﴿ فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله تعالى ﴾ ، وكل ميسر لما خلق له فسيره كالجهل والفتنة ، قال تعـالى : ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً، وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله) إذ أنتم أعراب سكان البادية فئة نجدية وفئة مسيلمة الكذاب اعتقاداتكم محدثة وبدعة، قوم جهلة بقواعد أئمة الدين أهل السنة والجمـاعة، أنتم طائفة باغية خوارج عن اعتقاد أهل السنة والجماعة السلطانية ، فإن كانت شهوتكم في إعانة الإسلام بالمقاتلة والمعاندة فقاتلوا أعداء الدين الكفرة الفجرة لا الملة الإسلامية ولا افتتانها قال عليه الصلاة والسلام : « المسلم مَن سلِمَ المسلمون من يده ولسانه » ، وكيف تخاطبون أهل الإسلام مخاطبة الكفار وتقاتلون قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر؟ قال عليه السلام : « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها » ، وقال تعالى : ﴿ أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ ، وقـد قال عليه السلام : « من قال إن الناس هلكوا فهو أهلكهم » كما في الحديث . فأي حالة أسوأ وأضل وأعظم ظلماً من قتال المسلمين واستباحة أموالهم وأعراضهم وعقر مواشيهم وحرق قراهم من نواحي الشام التي هي خـيرة الله في أرضه وتكفير المسلمين وأهل القبـلة والتجري على ذلك وعلى مخاطبة المسلمين بما خوطب به الكفار؟ فلم يُسمع ذلك من أئمة الدين إلا من الفرق الضالة . وكيف تدّعون العلم وأنتم جاهلون بل أنتم خوارج في قلوبكم زيغ تبغون الفتنة وتريدون الملك بالحيلة وقد خلت أمثالكم زائلة والامور بأوقاتها مرهونة وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم واحتسبنا بالله وتوكلنا على الله ، ويكفيكم عبرة قصة الشيخ النجدي ونسبتكم اليه ومسكنكم واديه

وتكفينا شامنا وعزة ربه ، فإن كان لكم فهم ورشد وهدى يكفيكم هـــذا القدر من الكلام مختصراً ، فارجعوا إلى أوطانكم كما كنتم وكفوا شركم من قريب وبعيد فلا بأس عليكم وإلا فنغمد سيوفنا فيكم واحتسبنا بالله عليكم، قال تعالى : ﴿ فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾، وجزاء الذين يسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا في شريعة الله .. والسلام على من اتبع الهدى وترك الفتنة والأذى .

حرر في شهر رجب سنة ١٢٢٥ [١]

---

(١) الرسالة في تاريخ جودت .

رسالة سعود

الى سليمان باشا

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين ، وصلى الله على محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين .

من سعود بن عبد العزيز الى سليمان باشا .

أما بعد .. فقد وصل الينا كتابكم ، وفهمنا مـا تضمنه خطابكم ، وما ذكرتم من أن كتابنا المرسل الى يوسف باشا على غير ما أمر الله بـه ورسوله من الخطاب للمسلمين بمخاطبة الكفار والمشركين ، وأن هذا حال الضالين ، وأسوة الجاهلين ، كما قـال تعالى : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ﴾ .

فنقول في الجواب عن ذلك بأننا متبعون ما أمر الله به رسوله وعباده المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ . وقوله تعالى : ﴿ قل هـذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ﴾ . وذلك أن الله أوجب علينا النصح لجميع أُمة محمد ﷺ ومن النصح لهم بيان الحق لهم بتذكير عالمهم وتعليم جاهلهم وجهـاد مبطلهم أولاً

بالحجة والبيـــان ، وثانياً بالسيف والسنان ، حتى يلتزموا دين الله القويم ، ويسلكوا صراطه المستقيم ، ويبعدوا عن مشابهة أصحاب الجحيم ، وذلك أن من « تشبه بقوم فهو منهم » كما ورد ذلك عن الصادق الأمين ، صلى الله عليـه وعلى آله وصحبه أجمعين، وقد قال تعالى في كتابه المبين: ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ . وقال تعالى لهذه الأمة: ﴿منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين، من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون ﴾ . ومن تلبيس إبليس، ومكيدته لكل جاهل خسيس، ان يظن إنما ذم الله به اليهود والنصارى والمشركين لا يتناول من شابههم من هذه الأمة ، ويقول إذا استدل عليه بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية، هذه الآيات نزلت في المشركين، نزلت في اليهود، نزلت في النصارى ، ولسنا منهم ، وهـذا من أعظم مكائده وتلبيسه ، فإنه فتن بهذه الشبهة كثيراً من الأغبياء والجاهلين ، وقد قال بعض السلف : لمن قـال له ذلك مضى القوم وما يعي به غيركم ، وقـال بعض العلماء : إن مما يحول بين المرء وفهم القرآن أن يظن إنما ذم الله بـــه اليهود والنصارى والمشركين لا يتناول غيرهم ، وإنما هو في قوم كانوا فبانوا ، وقـد قال الامام الحافظ سفيان بن عيينة وهو من أتباع التابعين ، من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى ، وقد ثبت عن النبي ﷺ في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري انه قـــال : « لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه » قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال : « فمن » ؟ وهذا لفظ البخاري ، والأحاديث والآثار في هذا المعنى كثيرة ، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ . الآية . قال: ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم ، لا أعلم إلا انه ﷺ قال: « والذي نفسي بيده لتتبعنهم حتى لو دخل الرجل منهم جحر ضب لدخلتموه » فكيف يظن من له أدنى تمسك بالعلم بعـد

هذه الأدلة الواضحة والبراهين القاطعة أن هذه الأمة لا تشابه اليهود والنصارى، ولا تفعل فعلهم ، ولا يتناولهم ما توعد الله به اليهود والنصارى اذا فعلوا مثل فعلهم ، ومن أنكر وقوع الشرك والكفر في هـذه الأمة فقد خرق الاجماع ، وسلك طريق الغي والابتداع ، ولسنا بحمد الله نتبع المتشابه من التنزيل ، ولا نخالف ما عليه أئمة السنة من التأويل ، فإن الآيات التي استدللنا بها على كفر المشرك وقتاله هي من الآيات المحكمات في بابها لا من المتشابهات ، واختلف أئمة المسلمين في تأويلها والحكم بظاهرها وتفسيرها ، بل هي من الآيات التي لا يعذر احـد من معرفة معناها ، وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ . وقوله : ﴿ ومن يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النـار ﴾ . وقوله : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ﴾ الآية . وقوله : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ .

وأما قولكم فإنا لله الحمد على الفطرة الاسلامية والاعتقادات الصحيحة ولم نزل بحمده تعالى عليها ، عليها نحيا ، وعليها نموت ، كما قال تعالى : ﴿ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت ﴾ الآية . فظاهرنا وباطننا بتوحيده تعالى في ذاته وصفاته كما بيّن في محكم كتابه ، قال تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ﴾ . وقال ﷺ : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا ألا إله إلا الله » وقال ﷺ : « بني الاسلام على خمس ... الخ . فنقول :

غاض الوفاء وفاض الجور وانفرجت
مسافة الخلف بين القول والعمل

وليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، فإذا قال الرجل أنا مؤمن أنا مسلم أنا من أهل السنة والجماعة ، وهو من أعداء الاسلام وأهله منابذ لهم بقوله وفعله لم يصر بذلك مؤمناً ولا مسلماً ولا من أهل السنة والجماعة ، ويكون كفره مثل اليهود فإنهم يعرفون الحق كما يعرفون أبناءهم ، فإن أصل الاسلام شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ،

ومضمون شهادة ألا إله إلا الله ألا يعبــد إلا الله وحده ، فلا يدعى إلا هو ولا يستغاث إلا به ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يخاف إلا منه ، ولا يرجى إلا هو ، كما قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقــاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ . وقال تعــالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً ﴾ . وقال تعالى: ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إنما يعمر مساجد الله مَن آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخشَ إلا الله فعسى اولئك أن يكونوا من المهتدين ﴾ . فكل من دعا مخلوقاً أو استغاث به أو جعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقول : يا سيدي فلان أغثني أو انصرني أو اقض دَيْني أو اشفع لي عند الله في قضاء حاجتي أو أنا متوكل على الله وعليك ، فهو مشرك في عبادة الله غيره ، وإن قال بلسانه لا إله إلا الله ، وأنا مسلم ، وقد كفَّر الصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة وقاتلوهم ، وغنموا أموالهم وسبُوا نساءهم ، مع إقرارهم بسائر شرائع الإسلام ، وذلك لأن أركان الإسلام من حقوق لا إله إلا الله ، كما استدلّ به أبو بكر الصديق رضي الله عنه على عمر حين أشكل عليه قتال مانعي الزكاة حين قال له : كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » ؟ فقال أبو بكر : الزكاة من حقها ، والله لو منعوني عقــالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه ، قال عمر : فوالله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت انه الحق . أخرجاه في الصحيحين وغيرهما من كتب الإسلام . فكيف بمن كفر بمعنى لا إله إلا الله ، وصار الشرك وعبــادة غير الله هو دينه ، وهو المشهور في بلده ، ومن أنكر ذلك عليهم كفَّروه وبدّعوه وقــاتلوه ، فكيف يكون من هذا فعله مسلماً من أهل السنة والجمــاعة مع منابذته لدين الإسلام الذي بعث الله به رسوله ﷺ من توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة إلى غير ذلك من المجاهرة بالكفر والمعاصي واستحلال محارم الله ظاهراً ؟ فشعائر الكفر بالله والشرك به هي الظاهرة عندكم ، مثل: بناء القباب على القبور

وإيقاد السرج عليها ، وتعليق الستور عليها ، وزيارتها بما لم يشرعه الله ورسوله ، واتخاذها عيداً ، وسؤال أصحابها قضاء الحاجات ، وتفريج الكربات ، وإغاثة اللهفات ، هـــذا مع تضييع فرائض الله التي أمر الله بإقامتها ، من الصلوات الخمس وغيرها ، فمن أراد الصلاة صلى وحده ، ومن تركها لم ينكر عليه ، وكذلك الزكاة ، وهـذا أمر قد شاع وذاع وملأ الأسماع في كثير من بلاد الشام والعراق ومصر وغير ذلك من البلدان ، وقد حدث ذلك في هذه البلدان كما ذكر العلمـاء في مصنفاتهم من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة ، فمن ذلك ما ذكره أبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي ، قال : لما صعبت التكاليف على الجهـال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم فسهلت عليهم إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم ، قال : وهم عندي كفار بهذه الأوضاع مثل تعظيم القبور وإكرامها بما نهى عنه الشرع من إيقاد النيران وتقبيلها وتخليقها وخطاب الموتى بالحوايج وكتب الرقاع فيها يا مولاي افعل بي كذا وكذا وأخــذ تربتها تبركاً وإفاضة الطيب على القبور وشد الرحال اليها وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبَدَ اللات والعزى ، والويل عندهم لمن لم يقبل مشهد الكف ولم يتمسح باجرة مسجد الملموسة يوم الاربعاء ، ولم يقل الحالون على جنازته أبو بكر الصديق أو محمد أو علي ، أو لم يعقد على قبر أبيه ازجاً بالجص والإجر ولم يخرق ثيـابه إلى الذيل ولم يرق ماء الورد على القبر . انتهى .

فانظر إلى هذا الإمام كيف ذكر حدوث الشرك في وقته واشتهاره عنـــد العـامة الجهال ، وتكفيره لهم بذلك ، وهو من أهل القرن الخامس من تلامذة القاضي أبي يعلى الحنبلي ، ونقل كلامه هذا غير واحد من أئمة الحنابلة كأبي الفرج ابن الجوزي في كتاب تلبيس إبليس .

وقال الإمام أبو بكر الطرطوشي المالكي لما ذكر حديث أبي واقـد الليثي ولفظه : قال خرجنـا مع رسول الله ﷺ قبل حنين ونحن حديثوا عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون حولها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي ﷺ : « الله أكبر انها السنن قلتم والذي نفسي بيده

كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ اجعل لنا الهاً كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون ﴾ لتركبن سنن من كان من قبلكم » قال الطرطوشي فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات أنواط فاقطعوها انتهى ، فإذا كان اتخاذ هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذ آلهة مع الله مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها فما ظنك بالعكوف حول القبر والدعاء به ودعائه والدعاء عنده ، فأي نسبة بالفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر لو كان أهل الشرك والبدع يعلمون .

وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبي شامة الشافعي في كتابه (الباعث في انكار البدع والحوادث) ومن هذا القسم أيضاً ما قد عم به الابتلاء ؛ من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة من كل بلد يحكي لهم حاك أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك ويحافظون عليه ،مع تضييعهم فرائض الله وسننه ، ويظنون أنهم متقربون بذلك ، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم ، فيعظمونها ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها ، وهي ما بين عيون وشجر ، وحائط وحجر ، وفي مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة ، كعونية الحمى ، خارج باب توما والعمود المخلق داخل الباب الصغير ، والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر ، في نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها ، فما أشبهها بذات أنواط التي في الحديث ، ثم ساق حديث أبي واقد الليثي المتقدم ، ثم ذكر أنه بلغه بعض أهل العلم ببلاد أفريقية أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية ، كان العامة قد افتتنوا بها ، يأتونها من الآفاق ، فمن تعذر عليه ، نكاح أو ولد ، قال امضوا بي إلى العافية فتعرف فيها الفتنة فخرج في السحر فهدمها ، وأذن الصبح عليها ، ثم قال اللهم إني هدمتها لك فلا ترفع لها رأساً قال فما رفع بها رأس إلى الآن ، قال وأدهى من ذلك وأمر اقدامهم على الطريق السابلة يجيرون في أحد الأبواب الثلاثة القديمة العادية التي

هي من أبنـــاء الجن في زمن نبي الله سليمان بن داود عليهما السلام أو من بناء ذي القرنين ، أو من بناء غيره مما يؤذن بالتقدم على ما نقلناه في كتاب تاريخ دمشق وهو الباب الشمالي ؛ ذكر لي بعضهم من لا يوثق به في شهور سنة ست وثلاثين وستمائة أنه رأى مناماً يقتضي أن ذلك المكان دفن فيه بعض أهل البيت ، وقد أخبرني عنه ثقة أنه اعترف له أنه افتعل ذلك فقطعوا طريق المارة فيه ،وجعلوا الباب بكماله مسجداً مغصوباً ، وقد كان الطريق يضيق بسالكيه ، فتضاعف الضيق والحرج ؛ على من دخل ومن خرج ، ضاعف الله نكال من تسبب في بنائه وأجزل ثواب من أعان على هدمه ، وازالة اعتدائه اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ في هدم مسجد الضرار انتهى كلامه ، فانظر إلى كلام هؤلاء الأئمة وما حدث في زمانهم من الشرك وانه قد عم الابتلاء به في وقتهم ، ومعلوم أنه لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه ، وتأمل كلامه في تخصيصه دمشق بما حدث فيها من الشرك والأوثان ، وتمنيه إزالة ذلك وهي بلده ومستوطنه .

وقال ابن القيم رحمه الله في كتابه (اغاثة اللهفان) ومن أعظم مكائده — التي كاد بها أكثر الناس وما نجا منها إلا من لم يرد الله فتنته — ما أوحاه قديماً وحديثاً إلى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور حتى آل الأمر فيها إلى أن عبـد أربابها ، ثم جعلت تلك الصور أجشاداً لها ظل ؛ ثم جعلت أصناماً وعبدت مع الله ، وكان أول هذا الداء العظيم في قوم نوح، وأطال الكلام في ذلك — إلى أن قال — وكان بدمشق كثير من هذه الأنصاب ، فيسر الله سبحانه كسرها على يد شيخ الإسلام وحزب الله الموحدين ؛ كالعمود المخلق والنصب الذي كان بمسجد النارنج عند المصلى يعبده الجهال والنصب الذي كان تحته الطاحون الذي عنده مقابر النصارى ينتابه الناس للتبرك ، وكان صورة صنم في نهر القلوط ، ينذرون له ، ويبركون به ، وقطع الله سبحانه المسجد الذي عند الرحبة يسرج عنده ؛ ويتبرك به المشركون ، وكان عموداً طويلاً على رأسه حجر كالكرة ، وعنـد مسجد درب الحجر نصب قد بني عليه مسجد صغير يعبده المشركون ، يسر الله كسره ، فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت

ويقولون إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر، أي تقبل العبادة من دون الله، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له، ويتمسحون بذلك النصب ويستلمونه ، ولهذا أنكر السيف التمسح بحجر المقام الذي أمر الله أن يتخذ مصلى ، كما ذكره الأزرقي في كتاب مكة عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ واتخذوا مقام إبراهيم مصلى ﴾ قال إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه ، ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم ، ذكر لنا من رأى أثره وأصابته ، فما زالت هذه الأمة تمسحه حتى اخلولق انتهى .

وقال ابن القيم رحمه الله في كتابه المشهور بزاد المعاد في هدى خير العباد ، لما ذكر غزوة الطائف ، وقدوم وفدهم على رسول الله ﷺ وانهم سألوه أشياء ، وكان فيما سألوه أن يدع لهم اللات ثلاث سنين لا يهدمها ، واعتذروا ان مرادهم بذلك أن لا يروعوا نساءهم وسفهاءهم ، فأبى عليهم رسول الله ﷺ فما برحوا يسألونه سنة ويأبى عليهم حتى سألوه شهراً واحداً بعد قدومهم فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى، قال : لما ذكر فوائد القصة ، ومنها انه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً ، فإنها شعائر الكفر والشرك وهي أعظم المنكرات ، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة ، وهكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تُعبد من دون الله ، والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل ، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته ، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ، وأعظم شركاً عندها وبها والله المستعان . ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد انها تخلق أو ترزق أو تحيي أو تميت ، وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعله إخوانهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم ، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم ، وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة ، وأخذوا مأخذهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، وغلب الشرك على أكثر النفوس ، لظهور الجهل وخفاء العلم ، وصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، ونشأ في ذلك الصغير وهرم عليه الكبير ، وطمست

الأعلام ، واشتدت غربة الإسلام ، وقلّت العلماء ، وغلبت السفهاء وتفاقم الأمر ، واشتد البأس ، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين ، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، ومنها جواز صرف الإمام الأموال التي تصير إلى هذه المشاهد والطواغيت في الجهاد ومصالح المسلمين، فيجوز للإمام بل يجب عليه أن يأخذ أموال هذه الطواغيت التيتساق اليها ويصرفها على الجند والمقاتلة ومصالح المسلمين ، كما أخذ النبي ﷺ أموال اللات وأعطاها لأبي سفيان يتألفه بها ، وقضى منها دَين عروة والأسود ، وكذا يجب عليه هدم هذه المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً ، وله أن يقطعها للمقاتلة أو يبيعها ويستعين بأثمانها على مصالح المسلمين ، وكذا الحكم في أوقافها ، فإن وقفها والوقف عليها باطل ، وهو مال ضائع ، فيصرف في مصالح المسلمين ، فإن الوقف لا يصحُّ إلا في قربة وطاعة الله ورسوله ، فلا يصح الوقف على مشهد ولا قبر يسرج عليه ويعظم وينذر له ويحج اليه ، ويعبد من دون الله ، ويتخذ إلهاً من دونه ، وهذا لا يخالف فيه أحد من أئمة الإسلام ، ومن اتبع سبيلهم .

وقال الشيخ قاسم في شرح درر البحار ، وهو من أئمة الحنفية : النذر الذي يقع من أكثر العوام يأتي إلى قبر بعض الصلحاء قائلاً : يا سيدي ، فلان إن رد غائبي أو عوفي مريضي أو قضيت حاجتي فلك من الذهب أو الطعام أو الشمع كذا باطل إجماعاً لوجوه : منها ان النذر للمخلوق لا يجوز ، ومنها ان ذلك كفر – إلى أن قال – وقد ابتلى الناس بذلك لا سيما في مولد أحمد البدوي . انتهى كلامه .

وقال الاذرعي في (قوت المحتاج شرح المنهاج) ، وهو من أئمة الشافعية : وأما النذر للمشاهد التي بنيت على قبر ولي أو شيخ أو على اسم من حلها من الأولياء ، أو تردد في تلك البقعة من الانبياء والصالحين ، فإن قصد الناذر بذلك – وهو الغالب أو الواقع من مقصود العامة – تعظيم البقعة والمشهد والزاوية أو

تعظيم من دفن بها ممن ذكرنا أو نسبت اليه أو بنيت على اسمه ، فهذا النذر باطل غير منعقد ، فإن معتقدهم ان لهذه الأماكن خصوصيات بأنفسها ، ويرون انها مما يدفع بها البلاء ويستجلب به النعماء ، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء حتى انهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل انه جلس اليها أو استند اليها عبد صالح ، وينذرون لبعض القبور السرج والشموع والزيت ، ويقولون : القبر الفلاني والمكان الفلاني يقبل النذر ، ويعنون بذلك انه يحصل بالنذر له الغرض المأمول من شفاء مريض وقدوم غائب أو سلامة مال وغير ذلك من أنواع نذر المجازات، فهذا النذر على هذا الوجه ، باطل لا شك فيه ، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً ، من ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة لقبر الخليل ﷺ ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء، فإن الناذر لا يقصد بذلك إلا الإيقاد على القبر تبركاً وتعظيماً ظاناً أن ذلك قربة ، وأكثر من ينذر ذلك يصرح بمقصوده فيقول : الله على كذا من الشمع مثلاً يوقد عند رأس الخليل أو على القبر الفلاني أو قبر الشيخ فلان ، فهذا مما لا ريب في بطلانه ، والإيقاد المذكور محرّم سواء انتفع به منتفع هناك أم لا ، لأن الناذر لم يقصد ذلك ولا مرّ بباله بل قصده وغرضه ما أشرنا اليه ، فهذا الفعل من البدع الفاحشة التي عمّت بها البلوى ، وفيها مضاهاة لليهود والنصارى الذين لُعنوا في الحديث الصحيح على تعاطيهم ذلك على قبور أنبيائهم عليهم السلام . انتهى .

فانظر إلى تصريح هؤلاء الأئمة بأن هذه الأعمال الشركية قد عمّت بها البلوى وشاعت في كثير من بلاد الشام وغيرها ، وان الإسلام قد اشتدت غربته حتى صار المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، وان هذه المشاهد والأبنية التي على القبور قد كثرت ، وكثر الشرك عندها وبها ، حتى صار كثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة الثالثة الاخرى ، بل أعظم شركاً عندها وبها ، وهذا مما يبطل قولكم انكم على الفطرة الإسلامية ، والاعتقادات الصحيحة ، ويبين أن أكثركم قد فارق ذلك ونبذه وراء ظهره ، وصار دينه الشرك بالله ودعاء الأموات

والاستغاثة بهم وسؤالهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات والتمسك بالبدع المحدثات .

وأما قولكم فنحن مسلمون حقاً وأجمع على ذلك أئمتنا أئمة المذاهب الأربعة ومجتهدو الدين والملة المحمدية ، فنقول :

قد بيّنا من كلام الله وكلام رسوله وكلام أتباع الأئمة الأربعة ما يدحض حجتكم الواهية ، ويبطل دعواكم الباطلة ، وليس كل من ادّعى دعوى صدقها بفعله ، فما استغنى فقير بقوله ألف دينار ، وما احترق لسان بقوله نار ، فإن اليهود أعداء رسول الله ﷺ قالوا لرسول الله لما دعاهم إلى الإسلام: نحن مسلمون إلا إن كنت تريد أن نعبدك كما عبدت النصارى المسيح . وقالت النصارى مثل ذلك . وكذلك فرعون قال لقومه : ﴿ ما أُريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ وقد كذب وافترى في قوله ذلك ، وحالكم وحال أئمتكم وسلاطينكم تشهد بكذبكم وافترائكم في ذلك . وقد رأينا لما فتحنا الحجرة الشريفة – على ساكنها أفضل الصلاة والسلام – عام اثنين وعشرين ، رسالة لسلطانكم سليم أرسلها ابن عمه إلى رسول الله ﷺ يستغيث به ويدعوه ويسأله النصر على الأعداء من النصارى وغيرهم ، وفيها من الذلّ والخضوع والعبادة والخشوع ما يشهد بكذبكم ، وأولها : من عبدك السلطان سليم وبعد ، يا رسول الله قد نالنا الضر ونزل بنا من المكروه ما لا نقدر على دفعه واستولى عبّاد الصلبان على عباد الرحمن ، نسألك النصر عليهم والعون عليهم وأن تكسرهم عنا ، وذكر كلاماً كثيراً هذا معناه وحاصله .

فانظر إلى هذا الشرك العظيم والكفر بالله الواحد العليم ، فما سأله المشركون من آلهتهم العزى واللات ، فإنهم إذا نزلت بهم الشدائد أخلصوا لخالق البريّة ، فإن كان هذا حال خاصتكم فما الظن بفعل عامتكم ! وقد رأينا من جنس كلام سلطانكم كتباً كثيرة في الحجرة للعامة والخاصة ، فيها من سؤال الحاجات وتفريج الكربات ، ما لا نقدر على ضبطه .

وقد ورد في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره ان النبي ﷺ أخبر ان أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النـــار إلا واحدة ، قيل : مَن هي يا رسول الله ؟ قال : « مَن كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي » . فأهل السنة والجماعة هم أتباع رسول الله ﷺ في كل زمان ومكان،وهم الفرقة الناجية كالصحابة والتابعين والأئمة الأربعة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيــامة ، وقد بعث الله جميع رسله بتوحيده ورفع منــاره وطمس الشرك ومحو آثاره ، ومن أعظم الشرك والضلال ما وقع في هـــذه الامة من البناء على القبور ، ومخاطبة أصحابها بقضاء الامور ، وصرف كثير لهــا من العبادات والنذور ، فهذا النبي ﷺ هل تجد في عصره بناء على قبر صالح أو ولي أو شهيد أو نبي ؟ بل نهى عن البناء على القبور كما ثبت في صحيح مسلم وغيره ، وكذلكَ أصحابه من بعـــده فتحوا الشام والعراق وغالب أقطار الأرض ، فهل تجدون أحداً منهم بنى على قبر أو دعاه أو استغاث به أو نذر له أو ذبح له أو وقف عليه وقفاً أو أسرج عليه ؟ بل ثبت عنه ﷺ النهي عن ذلك والتغليظ فيه ولعن من فعله ، كما ثبت عنه أنه بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن لا يدع تمثالاً إلا طمسه ولا قبراً مشرفاً إلا سوّاه . رواه مسلم . وكذلك لم يكن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان يقول إذا نزلت به ترة أو عرضت له حاجة لميت : يا سيدي فلان أنا في حسبك أو اقضِ حاجتي ، كمـــا يقوله بعض هؤلاء المشركين لمن يدعونهم من الموتى والغائبين ، ولا أحد من الصحابة استغاث بالنبي ﷺ بعد موته ولا بغيره من الأنبياء، لا عند قبورهم ولا إذا بعدوا عنها ، ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبور الأنبياء ولا الصلاة عندها ، بل لما قحط الناس في زمــان عمر بن الخطاب استسقى بالعباس وتوسل بدعائه وقال : اللهم إنا كنا نتوسل اليك إذا أجدبنا بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل اليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون ، فهـذا توسل بدعاء النبي ﷺ وشفاعته في حياته ، ولهذا توسلوا بعد وفاته بدعاء العباس وهذا كله تحقيق لما بعث الله به رسوله ﷺ من إخلاص العبــادة بجميــع أنواعها لله وحده الذي هو حقيقة معنى لا إله إلا الله ، فإن الله إنمــا أرسل الرسل وأنزل الكتب

ليُعبَد وحده ولا يدعى معه إله آخر ، لا دعاء عبادة ولا دعاء مسألة ، وقد قال تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أُمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ﴾ . فاتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً هو من فعل اليهود والنصارى ، وقال غير واحد من العلماء : إن من أسباب الكفر والشرك الغلوّ في الصالحين – كعبد القادر وأمثاله – بل الغلو في علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، بل الغلو في الأنبياء كالمسيح وغيره ، فمن غلا في نبي أو ولي أو جعل فيه نوعاً من الإلهية مثل أن يقول : يا سيدي فلان أغثني أو انصرني أو أنا في حسبك ، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه فإن تاب وإلا ُقتل .

قال ابن القيم رحمه الله في شرح المنازل : ومن أنواع الشرك طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه اليهم وهذا أصل شرك العالم – إلى أن قال – وما نجا من شرك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد التوحيد لله وعادى المشركين في الله وتقرَّب بمقتهم إلى الله ، قال : وما أعز من تخلص من هذا ، بل ما أعز من لا يعادي من أنكره .

وأما قولكم وأما ما اعترينا وما ابتلينا به من الذنوب فليست أول قارورة كسرت في الإسلام ولا يخرجنا من دائرة الإسلام كما زعمت الخوارج من الفرق الضالة الذين عقيدتهم على خلاف عقيدة أهل السنة والجماعة ، فنقول : نحن بحمد الله لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ، وإنما نكفر لهم بما نص الله ورسوله وأجمع عليه علماء الأمة المحمدية الذين هم لسان صدق في الأمة انه كفر ، كالشرك في عبادة الله غيره من دعاء ونذر وذبح وكبغض الدين وأهله والاستهزاء به ، وأما الذنوب كالزنا والسرقة وقتل النفس وشرب الخمر والظلم ونحو ذلك فلا نكفر من فعله إذا كان مؤمناً بالله ورسوله ؛ إلا ان فعله مستحلاً له ، فما كان من ذلك فيه حد شرعي أقمناه على من فعله وإلا عزرنا الفاعل بما يردعه وأمثاله عن ارتكاب المحرمات ، وقد جرت المعاصي والكبائر في زمن رسول الله ﷺ

وأصحابه ولم يكفروا بها ، وهذا مما رد به أهل السنة والجماعة على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب ، وعلى المعتزلة الذين يحكمون بتخليده في النار وإن لم يسموه كافراً ويقولون ننزله منزلة بين المنزلتين ، فلا نسميه كافراً ولا مؤمناً بل فاسقاً، وينكرون شفاعة رسول الله ﷺ يوم القيمة ويقولون لا يخرج من النار أحد دخلها بشفاعة ولا غيرها ، ونحن بحمد الله براء من هذين المذهبين مذهب الخوارج والمعتزلة ، ونثبت شفاعة رسول الله ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين ، ولكنها لا تكون إلا لأهل التوحيد خاصة ، ولا تكون إلا بإذن الله ، كما قال تعالى : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وقال : ﴿ من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ فذكر في الشفاعة شرطين أحدهما أنها لا تكون إلا بعد الاذن من الله للشافع لا كما يظنه المشركون الذين يسألونها من غير الله في الدنيا ، وقال تعالى : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير ، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على هذه الآية: وقد قطع الله سبحانه الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها قطعاً يعلم من تأمله وعرفه ان من اتخذ من دون الله ولياً أو شفيعاً فمثله ﴿ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت ﴾ فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له به من النفع؟ والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع : أما مالك لما يريده عابده منه ، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك فإن لم يكن شريكاً كان معيناً أو ظهيراً فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً منتقلاً من الأعلى إلى ما دونه فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك ، وهي الشفاعة بإذنه ، فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً ونجاة وتجريداً للتوحيد وقطعاً لأصول الشرك ومواده لمن عقلها ، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها ولكن أكثر الناس لا يشعر بدخول الواقع تحته ويظنه في نوع وقوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن ولعمر الله ان كان أولئك قد

خلوا فقد ورثهم من هو مثلهم وشر منهم ودونهم ، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك ولكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنما تنتقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية ، أي أنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمه وقع فيه وأقره ودعا اليه وصوبه وحسنه وهو لا يعرف أنه هو الذي كان عليه الجاهلية أو نظيره أو شر منه أو دونه فتنتقض بذلك عرى الإسلام ويعود المعروف منكراً والمنكر معروفاً والبدعة سنة والسنة بدعة ويكفر الرجل بمحض الايمان وتجريد التوحيد ويبدع بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع ومن له بصيرة وقلب حي يرى ذلك عياناً وبالله التوفيق انتهى ، وهذا الذي ذكره غير واحد عن أئمة العلم من تغير الاسلام وغربته ، قد أخبر به الصادق المصدق صلوات الله وسلامه عليه ، كما ثبت عنه في صحيح مسلم أنه قال : « بدأ الاسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ » وفي حديث ثوبان الذي في صحيح مسلم وغيره ، ولا تقوم الساعة حتى يعبد فئام من أمتي الأوثان ، وفي حديث العرباض بن سارية أنه ﷺ قال : « انه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة ضلالة » أخرجه أبو داود وغيره ، وفي صحيح البخاري عنه ﷺ أنه قال: « لا تقوم الساعة حتى تضطرب اليات نساء دوس حول ذي الخلصة » وهذا الذي تقدم ذكره من كلام أهل العلم من حدوث الشرك وغيره من البدع في هذه الأمة وكثرته وهو مصداق ما أخبر به النبي ﷺ في هذه الأحاديث وغيرها .

وأما قولكم فكيف التجري بالغفلة على إيقاض الفتنة بتفكير المسلمين وأهل القبلة ومقاتلة قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر واستباحة أموالهم وأعراضهم وعقر مواشيهم وحرق أقواتهم من نواحي الشام الخ ، فنقول : قد قدمنا اننا لا نكفر بالذنوب وإنما نقاتل ونكفر من أشرك بالله وجعل لله نداً يدعوه كما يدعو الله ، ويذبح له كما يذبح لله ، وينذر له كما ينذر لله ، ويخافه كما يخاف الله ويستغيث به عند الشدائد وجلب الفوائد ويقاتل دون الاوثان والقباب المبنية على القبور

التي اتخذت أوثاناً تعبد من دون الله ، قال كنتم صادقين في دعواكم أنكم على ملة الاسلام ومتابعة الرسول ﷺ فاهدموا تلك الاوثان كلها وسووها بالارض وتوبوا إلى الله من جميع الشرك والبدع ، وحققوا قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ومن صرف من أنواع العبادة شيئاً لغير الله من الاحياء والاموات فاتهموه عن ذلك وعرفوه أن هذا مناقض لدين الاسلام ، ومشابهة لدين عباد الاصنام ، فإن لم ينته عن ذلك إلا بالمقابلة وجب قتاله حتى يجعل الدين كله لله ، وقوموا على رعاياكم بالتزام شعائر الاسلام وأركانه من إقام الصلاة جماعة في المساجد فإن تخلف أحد فأدبوه ، وكذلك الزكاة التي فرض الله تؤخذ من الاغنياء وترد على أهلها الذين أمر الله بصرفها اليهم ،فإذا فعلتم ذلك فأنتم اخواننا لكم ما لنا وعليكم ما علينا ، يحرم علينا دماؤكم وأموالكم ، وأما ان دمتم على حالكم هذه ولم تتوبوا من الشرك الذي أنتم عليه وتلتزموا دين الله الذي بعث الله به رسوله وتتركوا الشرك والبدع والمحدثات لم نزل نقاتلكم حتى تراجعوا دين الله القويم ، وتسلكوا صراطه المستقيم ، كما أمرنا الله بذلك حيث يقول : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ وقال تعالى : ﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا فخلوا سبيلهم ﴾ ونسأل الله العظيم أن يهدينا وسائر أمة محمد ﷺ إلى دينه القويم ويجنبنا طريق المغضوب عليهم والضالين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . حرر في اليوم الرابع عشر من شهر ذي القعدة سنة خمس وعشرون .

شهادة علماء مكة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، نشهد – ونحن علماء مكة الواضعون خطوطنا وأختامنا في هذا الرقيم – إن هذا الذي قام به الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى ودعا اليه إمــام المسلمين سعود بن عبد العزيز من توحيد الله ونفي الشرك الذي ذكره في هذا الكتاب أنه هو الحق الذي لا شك فيه ولا ريب ، وأن ما وقع في مكة والمدينة سابقاً ومصر والشام وغيرهما من البلاد إلى الآن من أنواع الشرك المذكورة في هذا الكتاب أنه الكفر المبيح للدم والمال والموجب للخلود في النار، ومن لم يدخل في هذا الدين ويعمل به ويوالي أهله ويعادي أعداءه فهو عندنا كافر بالله واليوم الآخر وواجب على إمام المسلمين والمسلمين جهاده وقتاله حتى يتوب إلى الله مما هو عليه ويعمل بهذا الدين .

أشهد بذلك وكتبه الفقير إلى الله تعـــالى « عبد الملك بن عبد المنعم القلعي الحنفي مفتي مكة المكرمة » عفى عنه وغفر له. أشهد بذلك وأنا الفقير إلى الله سبحانه « محمـــد صالح بن ابراهيم مفتي الشافعية بمكة » تاب الله عليه . أشهد بذلك وأنا الفقير إلى الله تعالى « محمد بن محمد عربي البناني » مفتي المالكية بمكة المشرفة » عفا الله عنه وأصلح شأنه . أشهد بذلك وأنا الفقير إلى الله « محمـد بن أحمد المالكي » عفا الله عنه . أشهد بذلك وأنا الفقير إلى الله تعالى « محمد بن يحيى مفتي الحنابلة بمكة المكرمة » عفا الله عنهم آمين . أشهد بذلك وأنا الفقير اليه تعالى «عبد الحفيظ بن درويش العجيمي» عفا الله عنه. شهد بذلك «زين العابدين جمل الليل » . شهد بذلك « علي بن محمد البيتي » . أشهد بذلك وأنا الفقير إلى الله تعالى « عبد الرحمن جمال » عفا الله عنه . شهد بذلك الفقير إلى الله تعـــالى « بشر بن هاشم الشافعي » عفا الله عنه .

شهادة علماء المدينة

بسم الله الرحمن الرحيم

ما حرر في هذا الجواب ، من بديع النطق وفصل الخطاب ، ومـا فيه من الادلة الصحيحة الصريحة المستنبطة من الكتاب المبين وسنة سيد المرسلين، نشهد بذلك ونعتقـده ونحن علماء المدينة المنورة وندين الله به ، ونسأله تعالى الموت عليه ، ونقول الحمد لله رب العالمين نشهد بأن هـذا الذي قام به الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ودعانا اليه إمام المسلمين سعود بن عبد العزيز من توحيد الله عز وجل ونعي الشرك هو الدين الحق الذي لا شك فيه ولا ريب، وإنما وقع في مكة والمدينة سابقاً والشام ومصر وغيرهـا من البلدان إلى الآن من أنواع الشرك المذكورة في هذا الكتاب أنها الكفر المبيح للدم والمال وكل من لم يدخل لمي هذا الدين ويعمل به ويعتقده كما ذكر الامام في هذا الكتاب فهو كافر بالله واليوم الآخر والواجب على إمام المسلمين وكافة المسلمين القيام بفرض الجهـاد وقتال أهل العناد .

وكل من خالف ما في هذا الكتاب من أهل مصر والشام والعراق وكل من كان على دينهم الذي هم عليه الآن فهو كافر مشرك من موقعه ويمكنه في ذلك وإزالة ما عليه من الشرك والبدع وأن ويجعل رايته بالنصر خافقة إنه سميع مجيب ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه [1] .

أشهد بذلك وأنا الفقير بن حسين بالروضة الشريفة .

وكتبه الفقير اليه عز شأنه « محمد صالح رضوان » شهد بذلك وكتبه « محمد ابن اسماعيل » كتبه الفقير إلى الله عز شأنه حسن وعليه ختمهم. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

---

(١) لم تظهر لنا الكلمات المبيضلها من الأصل – عن كتاب الدرر السنية في الأجوبة النجدية –

شهادة الشريف غالب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، أشهد أن هـــذا الدين الذي قام به الشيخ محمد بن عبدالوهاب ودعانا اليه إمام المسلمين سعود بن عبد العزيز من توحيد الله عز وجل ونفي الشريك له هو الدين الحق الذي جاء به النبي ﷺ وان مـا وقع في مكة والمدينة سابقاً والشام ومصر وغيرهـا من البلدان من أنواع الشرك المذكورة في هذا الكتاب انه الكفر المبيح للدم والمال، وكل من لم يدخل في هذا الدين ويعمل بمقتضاه كما ذكر في هذا الكتاب فهو كافر بالله واليوم الآخر ، وكتبه « **الشريف غالب بن مساعد » غفر الله له آمين « الشريف غالب »** .

رسائل سعود الوعظية :

— ١ —

من سعود بن عبد العزيز

الى من يراه من المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

من سعود إلى من يراه من المسلمين ، سلمهم الله من الآفات ، ووفقنا وإياهم لفعل الطاعات ، وجنبنا وإياهم فعل المحظورات .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد .. موجب الخط النصيحة لكم والشفقة عليكم ، والعذر من الله مما يتعلق بنا من حقوقكم ، وعلينا الجهد والتوفيق بيد الله ، ﴿ وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أُنيب ﴾ .

.. والنصائح كثرت ، ولا أراها تثمر في كثير من الناس ، وأعظم النصائح وأبلغ النصائح نصائح الرب ومواعظه لعبيده ، وتبيينه لهم سبحانه ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم ، وتحذيره لهم ما يضرّهم في دنياهم وآخرتهم ، ومن سمع القرآن وقرأه فالذي قلبه حي كُفي بالقرآن واعظاً .

والله سبحانه وتعالى منّ علينا وعليكم بدين الاسلام ، وكل نعمة دون نعمة دين الاسلام ، وهو أعظم نعمة أنعم الله بها على العبيد وجمع الله لكم فيه بين خير الدنيا ورجاء ثواب الآخرة ، وأعطاكم بـه فوق ما تؤملون وصرف بـه عنكم جميع ما تكرهون ، وهو المحمود على جميع الأحوال فكونوا ممن يحدث عند النعمة شكراً وعند المصيبة صبراً ، وينفق ممـا أتاه الله في السراء والضراء ، والشكر أعمال كما قال : ﴿إعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور﴾.

وأكثر ما نخاف علينا وعليكم عدم العمل بما نعرف وهو المصيبة الكبرى ، فلو يحصل العمل بالشيء الذي يشهد الناس أن الله أوجبه ولا يبقى تقصير إلا في الذي يجهلونه؛ تم الأمر ، وهو مثل ما ذكر من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم والذي أوصي به نفسي وأوصيكم به تقوى الله في السر والعلانية ، وإخلاص جميع الأعمال لله وحده لا شريك له ومتابعة الرسول ﷺ وهذان الأصلان همـا جماع الدين ، ولا يستقيم دين إلا عليهما كما قال تعالى : ﴿ فمن كان يرجو لقـاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ . وأنتم تعلمون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة ، ومع كونه فريضة حقق عليكم في العهد كما قال تعالى : ﴿ ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بمـا عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً ﴾ . ولو علمت أن هذا الفتور يجري منكم ما أكدته عليكم في العهد مع أن هـذا شيء أوجبه الله ، والعهد زيادة تأكيد ، ولا لأحد عذر ليتعذر به من الله إلا والعيـاذ بالله ان كان عدم ديانة ، أو تغافلاً من الذي فيه ديانة ، والدين مثل ما قـال الله جل جلاله : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ ، لا بد من العمل به ما دام الروح في الجسد ، وهـذا ظاهر ولا أحد تغير عن حاله بقيام في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأنتم تعلمون أنه ليس وقتنا هذا بأحسن من وقت النبي ﷺ ولا بلداننا خير من مدينة رسول الله ﷺ ،وتفهمون ما يقع فيها من العدد والأدب ، فالنبي ﷺ : همّ بإحراق البيوت على المتخلفين عن الصلاة مع الجماعة وذكر رسول الله ﷺ :

ان ما منعه إلا من في البيوت من النساء والذرية ، وأنتم هؤلاء ترون ما وقع من الناس من الخلل في الصلاة من التخلف عن صلاة الجماعة، وتضييع أهل الأطراف والنخيل الصلاة ، وتركهم كلاً يصلي على هواه ، وتأخيرهم أكثرهم الصلاة عن وقتها والاساءة في الصلاة من مسابقة الامام فيها ونقر الصلاة ، وذكر: المحسن في صلاته شريك للمسيء إذا لم ينهه ، وما وقع من خلل النـــاس في زكاتهم ، ومن الناس من يخرج زكاة لا تجزي عنه، ومنهم من يمنعها، ومنهم من يبخل ببعضها.

وكذلك يذكر لنا في بعض البلدان بخس المكاييل والموازين ، وأيضاً اجتماع الرديين في مقاهي ومعاشر ولا يمنعون، وكذلك الربا في المبايعات، وأنتم تفهمون تغليظ الرب تعالى في الربا ، قال تعالى : ﴿ يمحق الله الربا وُيربي الصدقات ﴾ . وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا ُتظلمون ، وإن كان ذو ُعسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون ، واتقوا يوماً ُترجعون فيه إلى الله ثم توفـّى كل نفس ما كسبت وهم لا ُيظلمون ﴾ . وقـال تعالى : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا، وأحل البيع وحرّم الربا فمن جاءه موعظه من ربـه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ . واستحل كثير من الناس الربا بشبه ، وهو مثل ما ذكر: لا تستحلوا محارم الله بأدنى الحيل ومثل ما ذكر : من استحل محرماً فقـــد كفر ، فالمستحل لهذا مخادع لله والله أعلى وأجل ﴿ وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾ ، وصور البيع ومداخله تشرفون عليها إن شاء الله بخط آل الشيخ نحن ما نعين الناس على المبايعة بها .

وأنا ملزم كل أمير وكل مطوع وكل صاحب دين يخاف الله ويرجوه ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يقوم على النـاس في جميع ما ذكرنا من المسائل التي ذكر وغيرها من جميع المنكرات ويقومون على النـاس في تعلم دينهم وأداء ما

فرض الله عليهم، وطلب العلم وإلزام كل من يتخرج في طلب العلم وتنشئة الصغار على تعلم القرآن، وكل أهل بلد يحملون عندهم نسخة فإذا جرى مبايعة فيشرفون عليها مطوع البلاد ويكتب المطوع على المبايعة .

وأنا آمر هؤلاء الذين معهم الورقة يختارون من كل أهل بلد ثلاثة أهل دين وأنا ملزمهم بتتبع التجار والفلاح في مسألة المبايعة ، ومن فعل شيئاً مما بيننا في هذه الورقة فيبنون للأمير فإن كان الأمير ما قام وأدب أدبت الأمير وأدبت الفاعل ، وهذه امور وخيمة ، وخطرها كبير في الدنيا والآخرة ، ولا والله ما حملني على هذا إلا المشحة بكم ، والخوف من الله عليكم وعليّ والله جل جلاله قال : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾ ، ونعوذ بالله من التغيير ونسأل الله لنا ولكم العافية .

وأحاذر علينا وعليكم من هذه الآية التي ذكر الله سبحانه وحذر عنها أصحاب رسول الله ﷺ، وذكر أنها نزلت بعد الهجرة بأربع سنين قوله تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين أُوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم﴾، وقسوة القلب كفى بها من عقوبة أعاذنا الله وإياكم من ذلك ، وذكر أن أبعد القلوب عن الله القلب القاسي وأنتم ترون مثل ما قال جل جلاله : ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا اليه راجعون أُولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ . وقال تعالى : ﴿ أولا يرون أنهم يُفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ولنبلونكم بالشر والخير فتنة وإلينا تُرجعون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذُكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقُطِع دابر القوم الذين ظلموا

والحمد لله رب العـالمين ﴾ . فلا جعلنا الله وإياكم أمثالهم وأشباههم ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك ومثل مـا ذكر : « ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة » . قال الله تبارك وتعالى إخباراً عن نوح عليه السلام قال : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنـات ويجعل لكم أنهاراً ﴾ .

والتوبة لها شروط ثلاثة : الإقلاع من الذنب، والندم على ما فات ، والعزيمة على ألا يعود ... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

— ٢ —

من سعود بن عبد العزيز

الى من يراه من المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

من سعود بن عبد العزيز إلى من يصل اليه من المسلمين ، سلمهم الله تعالى من الآفات واستعملنا وإياهم بالباقيات الصالحات، وجنبنا وإياهم فعل المحظورات، ووقانا وإياهم السيئات آمين ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد ، موجب الخط النصيحة لكم والشفقة عليكم والعذر من الله حيث استرعانا عليكم ، اني أبذل لكم جهدي في كل ما أقدر عليه خفاء وبياناً فيما يصلح به أمر دينكم ودنياكم ، والله تعالى وجل ذكره وتقدس اسمه وتعالى جده ولا إله غيره منّ علينا وعليكم بالحنيفية ملة إبراهيم ودين محمد عليهما أفضل الصلاة والسلام ، وأعطاكم به من جميع المنح الربانية والنعم الإلهية ما لم تظنوا ، والله تبارك وتعالى قال ذلك بأن الله لم يكُ مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، ونعوذ بوجه الله الكريم وبكلمات الله التامات من غضبه وعذابه وأليم عقابه ونسأله أن يهدينا صراطه المستقيم ،صراط الذين أنعم عليهم ﴿من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً ، ذلك الفضل من الله

وكفى بالله عليماً ﴾. وقد جاءكم نصائح كثيرة وأمر وإلزام، وأرى العمل قليلاً، والمصالح عائدة لكم في الدنيا والآخرة ، والمضار عائدة لكم في الدنيا والآخرة .

وأعظم ما نوصيكم به ونرغبكم فيه وصية الله في الأولين والآخرين ، وهي معرفة هذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة دين الاسلام الذي ليس لله دين سواه ولا يقبل من أحد ديناً غيره كما قال تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ . وقال تعالى : ﴿ ومَن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾. وكما ذكر عن عمر رضي الله عنه حيث قال : إن للاسلام فرائض وشرائع وحدوداً فمن استكملها استكمل الإيمان . وقال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾. والدين عمل كما ذكر : ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال ، ولا بد من العمل بالدين والصبر على الأمر والنهي إلى الممات إن شاء الله .. ومواعظ القرآن كثيرة كافية .

ومن لا يتعظ بكلام الله لم يتعظ بغيره ، ولكن أخوف ما أخاف علينا وعليكم من عدم العمل بما نعلم ومن قسوة القلوب ومن طول الأمل ، ومثل ما ذكر عمر انها تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية ، وكثرت عليكم المراسلات والأمر والإلزام ، وأنا أخاف عليّ وعليكم خوفاً شديداً من عدم العمل ومن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وترك بعض الأمر خوفاً من أمر يجب عليكم فتقع به مضرّة وأنتم خابرون اني ملزم الأمير يقوم على الناس في امور دينهم من حيث الجملة من تعلم وتعليم ، ويقوم على الناس في قمع من جرى منه شيء يستوجب ان كان الأدب فيه حكم شرعي أو حد لزمه الامضاء وإن كان أدباً غير أدب يعهده على قدر ما يردع أرباب المعاصي والقومة على الناس في تفريق الرديين وفي جمع الذي يدعي الدين ، والقومة على الناس في أنواع التهم ، والقومة على أهل مواقف التهم ، والقومة عليهم في بخس المكاييل والموازين ومن مداخلة الربا في البيوع وبخس الزكاة أو إعطائها من أرذل

المال وما جرى مجرى هــذا ، والقومة في الجهاد من إتمام السلع والسلاح الطيب والرجال الطيبين ، والقومة على الخيل وتمام آلاتها .

وكذلك الجهاد الداخلي من رهن الذهبة ، والبناء على البلدان وغير ذلك ، وأنتم خابرون أني ملزم كل من يخاف الله ويرجوه القومة مع الأمير بهذا كله ، فإن تردى الأمير فالذي له دين يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وينصح أميره بالقيام ، فإذا ما قام الأمير فيرفع لنـــا الخبر وأنتم تفهمون ان ما يجيء بني آدم نقص ولا قحط ولا تسلط عدو ولا غير ذلك من أنواع العقوبات والمصائب إلا بسبب أفعالهم ، وعفو الله أكثر وأنتم في شهر مبارك تقبل فيه التوبة وُتقال فيه العثرات وُتجاب فيه الدعوات ، ومستقبله عنــد انقضائه إن شاء الله حج وجهاد في سبيل الله ، فأنتم استعينوا بالله على أنفسكم الظالمة لكم ، وقلوبكم القاسية ، فإن الله نعم المولى ونعم النصير ، وإنا كنا لبئس العبيد ، وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون .

وقوموا بما أوجب عليكم إيماناً واحتساباً واحذروا مخالفته ، فإن مخالفته دمار الدين ونزول دار البوار أعاذنا الله وإياكم من ذلك ، وهذه الامور اختيار من الله تبارك وتعالى كما قال تعـــالى : ﴿ ... ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ُترجعون ﴾ . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، ونسأله لنـــا ولكم الهداية وبه التوفيق والحمـاية عما يغضبه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وأنتم خابرون أني قد لزمت على كل أمير ناحية يخص على خمسة عشر أو أكثر أو أقل من أهل بلدانه ويلزمهم طلب العلم لأنه أمر ضروري ومثل ما ذكر ان الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بموت العلمـــاء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ النـــاس رؤساء جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلـُّوا وأضلـُّوا .

ولا أعذر كل أمير ناحية إلا عنده ناس « مخصوصين » ويلزمهم طلب العلم ويكتب لنا أسماءهم في ورقة ونوصلهم إن شاء الله ما يعاونهم على معيشتهم

ويحتسبون الثواب عند الله كما ذكر « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » ، وأيضاً للمساكين في كل بلاد معزول لهم حقهم الذي فرض الله لهم ربع الزكاة ،وألزمنا نظراءهم يشرفون على ربع الزكاة في كل بلاد ويفرق على الفقراء والمساكين ويذكر لنا أن بعض النظراء يحط الربع أو شيئاً منه وفاءاً أو رفداً لأهل الأموال وهذا أمر لا يحل ولا نرضى به ولا نأذن به لا أحد يأخذ منه شيئاً ،جديدة فيما دونها ،ولا بد منه يوحد للفقراء وللمساكين ولا يعط منه إلا الأحوج ما يكون له والسلام وصلى الله على محمد وآله وصحبه أجمعين .

ـ ٣ ـ

من سعود بن عبد العزيز

الى من يراه من المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا للاسلام وأرضانا به ديناً عن سائر الأديان ورزقنا متابعة نبيه من خلقه وخيرته من خلقه محمد بن عبدالله سيد ولد عدنان وجعلنا نجاهد في سبيله على بصيرة حتى يكون الدين كله لله ونطمس الأوثان وله الحمد على ذلك حمداً كثيراً لا يحصي عده انسان .. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وإلهيته وصفاته التي لا يشبهها شيء من صفات الإنس والجان، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وأمينه على وحيه ، وخيرته من خلقه ، الذي اصطفاه واختاره على جميع كائن من كان والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، لقـــد جاءت رسل ربنا بالحق صلوات الله وسلامه عليهم في كل وقت وزمان ، وسبحان الله وبحمده ، عدد خلقه ، وزنة عرشه ، ورضا نفسه ، ومداد كلماته ، وملء سماواته ، والله أكبر كبيراً وأعلى قدراً وشأناً ولا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره المشركون من أهل الشرك والأوثان وأستغفر الله وأتوب اليه من جميع الذنوب والخطأ والنسيان .

من سعود بن عبد العزيز الى من يراه من المسلمين سلمهم الله من الآفات ووقاهم جميع المهمات وهداهم لفعل الطاعات وجنبنا وإياهم فعل جميع المحظورات ، ووسع علينا وعليهم من جميع الطيبات وحمانا وإياهم عن الأهواء والضلالات ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد موجب الخط المحبة لكم والشفقة عليكم والنصح لكم والمعذرة من الله ، ووالله إني أحب لكم من الخير ما أحب لنفسي ، وأكره لكم من الشر ما أكره لنفسي ، وان أعظم ما أحبه لكم طاعة الله ورسوله ، وأعظم ما أكره لكم معصية الله ورسوله ، لأن طاعة الله ورسوله بها حصول خير الدنيا والآخرة ، ومعصية الله ورسوله بها زوال الدنيا والآخرة ، والله جل جلاله وتقدست أسماؤه أعظم النعم علينا وعليكم كما قال جل من قال : ﴿ وأسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة ﴾ ولا نقدر نعد ما أنعم بـه من جلب كل خير ، ودفع كل شر ﴿ وإن تعدوا نعمه الله لا تحصوها ﴾ . وكل نعمة يجب فيها شكر وكل شكر يحصل به المزيد ، وعدم الشكر يوجب ضده وكفر للنعم .. ويحصل بكفر النعمة العذاب الشديد ، أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

ولا ننصحكم وننصح أنفسنا بأعظم من نصائح رب السموات والأرض التي ذكر في كتابه حيث قال جل من قال : ﴿ وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴾ . وقال حاكياً عن عبده موسى عليه السلام : ﴿ إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حميد ﴾ وقال: ﴿ وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ وقال: ﴿ سيتذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى ﴾ . فنذكركم ما ذكر الله به خير خلقه بعد نبيهم ﷺ حيث قال : ﴿ واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم النـاس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ﴾ . وقال : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ فذكر الآيات الى قوله : ﴿ وأولئك لهم عذاب عظيم ﴾ .

واعلموا أن أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله ، كما ورد في

الحديث : « من أحب في الله وأبغض في الله وعادى في الله ووالى في الله فإنما تنال ولاية الله بذلك ولن يذوق عبد طعم الايمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك » . وقال تعالى : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ﴾ الى قوله : ﴿ حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادون من حادّ الله ورسوله ﴾ الآية . وقال تعالى: ﴿ ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ الآية .

واعلموا أن أعظم الخير أداء الفرائض وترك المحرمات ، قال الله تعالى : ﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ﴾ الآية . الى قوله : ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ وفي الحديث « ما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضه عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه ، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه » .

وأعظم الفرائض بعد التوحيد الصلوات الخمس على مواقيتها ، ولا يحصى ما في القرآن من الأمر بالصلاة والمحافظة عليها وإقامتها ، فإن إقامة الصلاة غير كيفية الصلاة قال تعالى : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ في غير موضع من القرآن وقال في الذين لم يقيموا الصلاة : ﴿ فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾ وقال تعالى : ﴿ فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً ﴾ الآية . وللصلاة شروط وأركان وواجبات وسنن لا تتم الصلاة على المشروع إلا بها ، وترون فعل كثير من الناس في الصلاة وعدم المحافظة عليها ، وتضييع الجماعة أمر عظيم ، نسأل الله لنا ولكم العافية .

ثم بعد الصلاة أختها وقرينتها في القرآن : الزكاة ، واستحوذ الشيطان على كثير من النــاس وصار أناس كثير أهل أموال لا يزكون ويدّعون أن ما عندهم شيء وهم كاذبون ، وقـــد يكون ان الله ينزعه عنهم ويقال وجبت ويحرمونه في الدنيا ويعذبون به في الآخرة كما قال تعالى : ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾ . وفي الحديث ان المال الذي لا تؤدى زكاته يصفح صفـائح من نار لصاحبه وتمثل له شجاع أقرع يأخذ بلهزمتيه ، أو كما قال ..

ومن الناس من يؤدي القليل من الكثير ومنهم من يجعل زكاته وقاية لماله في نوائب وغيرها .. وأكبر من هذا وأطم الذين يحلون ما حرم الله بالتأويل الفاسد الذي درجهم عليه الشيطان حتى يقعوا فيما ذكر : من استحل محرماً فقد كفر ، واستحلوا ما حرم الله بأدنى الحيل ، والشيطان عدو بني آدم ولا يسأم بما حصل به ورودهم النار من باب كان ، ومما أدرك الشيطان بخس المكيال والميزان ، والله جل جلاله قال في كتابه : ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على النـــاس يستوفون ﴾ الآيات : إلى قوله : ﴿ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ . وقال تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام : ﴿ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴾ الآيات . وبخس المكيال أو الميزان من فعل الأمم المعذبين .

ومن ذلك التجسس على كثير من أنواع الربا في المعـاملات وترديد الدين في الذمم على الذين ليس عندهم وفاء ، ويردد الدين بنفسه زاداً بزاد وغير ذلك من أنواع الربا ولو في المصارفة وشراء الفضة بالفضة وغير ذلك ، والله تعالى قال : ﴿ يمحق الله الربا ويربي الصدقات ﴾ ، وقال : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ﴾ يبعثون من قبورهم مثل المجانين. وقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ .

ومن ذلك طلب المعسر وعدم انظاره . والله تعالى يقول : ﴿ وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وإن تصدقوا خيراً لكم إن كنتم تعلمون ﴾. ومن ذلك

مطل الغني الحق الذي عليه لغني كان أو فقيراً أو لأجير وغير ذلك ، كما قيل : في إنظار المعسر أجر عظيم ومطل الغني ظلم عظيم .

ومن ذلك حق المرأة واليتيم : فاليتيم ، قال الله تعالى : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ . وكثير من الناس والعياذ بالله ما يتورب عن مال اليتيم ، وأكثر ما يأكل أموال اليتامى البضعاء جمعوا بين الخيانة في الأمانة وأكل أموال اليتامى ظلماً ، وحق المرأة ما كان لها من حقوق واجبة من صداق ونفقة ، وأخطر ما يكون فعل كثير من الناس إذا اقفى عن المرأة منع حقوقها وقد يتحيل عليها بما يضيق عليها لعلها تخلى له ، وهذا أمر منكر ولا يبرأ من حقوقها على هذه الحال إذا عضلها ، قال الله تعالى : ﴿ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾ وكذلك إخراجها من البيت إذا كانت مطلقة قبل انقضاء عدتها فإنه لا يحلُّ له ولا يحلُّ لها ، قال الله تعالى : ﴿ ولا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن ﴾ .

ومن أكبر البلوى وأعظم الدواهي : الإعراض عن كتاب الله وسنة رسوله، وعدم التعاون على البر والتقوى ، وعدم إنكار المنكر ، قال الله تعالى : ﴿ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ . وقال تعالى : ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة ، وهو سبب النجاة ، قال الله تعالى في الذين احتالوا على الصيد : ﴿ فلما نسوا ما ذُكّروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴾ . وأنتم تعرفون مع كونه فريضة أنه مؤكد على رقابكم بمد لا بد أن يسألكم الله عنه ، فالحذر الحذر من سخط الله وسطوته .

واعلموا أن الله تبارك وتعالى يمتحن عباده ويبلوهم بالخير والشر كما قال تعالى : ﴿ ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون ﴾ . فالنعم غربال يختبر عباده فيها بالشكر ، والمصائب غربال ويختبرنا فيها بالصبر كما قال تعالى : ﴿ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴾ ﴿ وإن كنا لمبتلين ﴾ . فمن رزق

الشكر عند الرخاء والصبر عنـــد البلاء فهو عنوان سعادته ، ومن صار بالضد يبغي ويبطر مع الرخاء والنعم ، ويسخط ويجزع مع الامتحان والنقم فهـــذا عنوان شقاوته ، أعاذنا الله وإياكم من غضبه وموجبات غضبه والله أنعم علينـا وعليكم بالنعمة والسعة والنصر والظهور والمدافعة كما قال تعـــالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمـــة الله عليكم إذ همَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عنكم ، واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ . ولا نقدر نعدّ ولا نحصي كم كفَّ الله عنا أيدي أعدائنا قديماً وحديثاً ، وكل عدو ينوبنا بسوء ركسه الله على أم رأسه ، ولا يبني له بناء كيد إلا هدمه الله من أسه .

وكل جريرة تجرّ على الإسلام وأهله تصير عاقبتها خيراً للاسلام وأهله وعزاً وظهوراً ، وكسراً وخذلاناً على من سعى فيها كما أخبر الله بذلك في قوله تعالى: ﴿ الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدُّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون ، والذين كفروا إلى جهنم يُحشرون . ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون ﴾ .

فإذا جرت هذه الامور صار الناس فيها درجات في الخير ودركات في الشر فالمؤمنون يقولون كما أخبر الله عن إخوانهم : ﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هـــذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ﴾ . والمنافقون قالوا : ﴿ ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴾ وظنوا بالله ظن السوء ، قال تعـــالى : ﴿ وتظنون بالله الظنونا ﴾ ﴿ الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساءت مصيراً ﴾ . والمصائب ما تقع إلا بالذنوب وما يعفو الله أكثر كما قـــال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ . وأعظم ما تقع المصائب والقحط ومنع الغيث وتسليط العدو إذا وقع الخلل بما في هـــذه الورقة من ترك الطاعات وارتكاب المحرمات .

ومن أكبر الكبائر بعـــد الشرك بالله عقوق الوالدين ، وصار هذا المنكر

العظيم اليوم ما ينكر ولا يعرف أنه منكر ولا يعاب فاعله ، وهذا مما عمّت به البلوى كون المعروف يصير منكراً والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، وهذا من علامة لبس الحق بالباطل كما في الدعاء : اللهم أرِنا الحق حقاً ووفقنا لاتباعه ، وأرِنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ولا تجعله ملتبساً علينا فنضلّ ، واجعلنا للمتقين إماماً . وفي الحديث عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنت عاشر عشرة رهط من المهاجرين عند رسول الله ﷺ فأقبل علينا بوجهه وقال : « يا معشر المهاجرين : خمس خصال ، وأعوذ بالله أن تدركوهن : ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواعين والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان ، ولا منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولا خفر قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذ بعض ما في أيديهم ، وما لم تعمل أئمتهم بما أنزل الله في كتابه إلا جعل الله بأسهم بينهم » .

ومن أكبر الامور أن كثيراً من الناس برعم عليه الشيطان وثقل عليه النفقة في طاعة الله وصدق الشيطان في وعده ، والله تعالى يقول : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴾ . وقال تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ . وقال تعالى في صفة المنافقين : ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ . ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون. ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا اليه وهم يجمحون ﴾.

ووصل الحد الى أن كثيراً من الناس ما يكفيه البخل بل يأمر الناس به كما قال تعالى : ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من

فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهينا ، والذين ينفقون أموالهم رئاء النـــاس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً ﴾ .
وصار كثير من الناس يقول: «البلدان أضعفتها نفقات الجهاد»،وهذا القائل يخاف عليه من الكفر فإنه رد قول الله تعالى : ﴿ وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ ولقوله: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ الآية. ولقول النبي ﷺ: « ما نقص مال من صدقة » ولا والله وبالله وتالله ما نقص أحـد بطاعة الله ولا نقص إلا بطاعة الشيطان ومخالفة أمر الله ورسوله. ومن ذلك كبار الناس أكثرهم ما يمشون في الجهاد في سبيل الله ، وفي الجهاد فضل ما يحصى ذكر الله فيه وذكر رسول الله ﷺ ، وأكثر النـاس يخاف عليه من قول الله تعالى : ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ﴾ الآية .. وأيضاً أن المصيبة اليوم ما تعد ذنباً ولا تستنكر ، قـــال تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم ﴾ الآية .

وكثير من الناس يجعل في نب من نبوب الاسلام مع غزو في نحر عدو أو ثغر من ثغور الاسلام ويلقى في البلدان ولا يلقى من ينكر عليه لا أمير ولا مأمور وهذا من أعظم الجنايات وأكبر المعاصي ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾ وهــذا من أكبر الخيانة في الوديعة وغيرها ، ومرادي بذكر هذا تبيين لكم ، وتحذيركم من عقوبة الله ، ومعذرة من الله واستجلاب للتوبة والاستغفار ، وفي الحديث : « ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة » وأيضاً تجددون شكر ما أنعم الله به عليكم من النصر والتأييد فإن الشكر يحصل به ثبوت النعم والمزيد ، ودفع النقم وتوبوا إلى الله جميعاً أيهـــا المؤمنون لعلكم تفلحون ومن الشكر التشمير عن الساعد في جهاد أعداء الاسلام في العسر واليسر والمنشط والمكره وأنتم ان شاء الله ماشون على بركة الله واسمه على هلال ربيع الأول ان شاء الله، والمشي مشي احتمال ومستنفر المسلمين ، و « ماشين » ان شاء الله .

وترى المشى يبغي من يعتد له بكل آلة وأعظمها وأهمها الزهبة وما يحتاج اليه صاحب الحرب من الاستعداد الذي أمر الله به حيث قال : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ والبواردية يحتسبون الزهبة والفتيل، واحتسبوا الصملان والركاب الطيبة وترى وعد الثويرة عندكم سريع إن شاء الله وارهوا بالعوامل الفواريع والفؤس والمساحي والمحافر ، تراني أرجو أننا نهدم بهـا الأوثان ونبني الثغور بأوطانهم بحول الله وقوته ، والخيل قوموا عليها ولا يقعد منها شيء ولا يقول أحد ما درينا أو ما لب لنا هذه العجلة أو ركابنا رديئة ويسأل الله العظيم رب العرش الكريم لنا ولكم من خير ما عنده ونعوذ به من شر ما عندنا ونسأله المعونة والتوفيق لما يحب ويرضى والسلام .

— ٤ —

من سعود بن عبد العزيز

الى أهل الدرعية

بسم الله الرحمن الرحيم

من سعود بن عبد العزيز الى الأخوان من أهل الدرعية سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد خصنا الله وإياكم بدين الاسلام فصار غيركم تبعاً لكم ويقتدي بكم في أصول الدين وفروعه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فرائض الدين ، ولا يستقيم دين ويعبد الله على مراده إلا بالجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبلادكم صارت مجمعاً للناس وامتلأت من سائر البلدان،وحدث فيها أمور يكرهها الله ورسوله ويغضب منها الذي فيه رائحة للدين ويخاف من اليوم الآخر .

وأنتم اليوم أسقطتم عن أنفسكم هذه الفريضة بسبب المداهنة وطلب رضا وجوه الخلق ، وعدم الإيمان بالجزاء ، والذي له دين ويؤمن بالله واليوم الآخر ولو هو تحت يدي حاكم ظالم يمنعه عن القول بالحق وجب عليه الانتقال من

بلاده الى بلد يقول فيها الحق ويأمر به وينكر فيها المنكر وينهى فاعله،والعاصي إذا بان لنا أمره أقمنا عليه الحق بحول الله وقوته ، ولا نناظر وجه شريف ولا وضيع ما دام الله مبقينا ان شاء الله تعالى .

والذي أحاذر عليكم اليوم معصيتكم الله في عدم إنكار المنكر،وعدم الغضب لله ، وعلى طول هـذه المدة ما بلغني من خاص أو عام قام لله أو أنكر منكراً أو رفع لي خبر بخلاف أحد ، ولا دريتم أنكم خنتم العهد الذي أخـذ منكم ، وعصيتم ربكم في عدم إنكاركم المنكر ، والعاصي عصى الله بارتكاب المعصية ، والساكت عصى الله في عدم الغضب لله وعدم الانكار عليه ، ويخطر ان العاصي يعترف بالذنب ويتوب منه ، والساكت ما يلب له ان هذا ذنب ، وتتراكم عليه الذنوب من حيث لا يشعر ،(وعلقتوناها لفريضة وأسقطتوها عن أنفسكم) .. ونحن نسأل الله أن يعيننا ويتحمل عنا .. فيكون عندكم معلوماً أن الله موجب على كل مؤمن بالله واليوم الآخر : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا يناظر وجه خاص ولا عام ، والأمر الذي تحبون رفعه إليّ وأدبه يصدر مني ارفعوه إليّ وقوموا بهـذه الفريضة ، وأدوها على الوجه المرضي ، وأنا أبغي أتتبع كل من يتهم بالدين والذي ما يتبين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في دقائق الأمور وجلائها أنا أؤدبه على الخيانة بالعهد وإسقاط هذه الفريضة .

وأنتم تعوذوا بالله من الشيطان الرجيم ، وتسببوا بالأسباب الـتي ترضي الله عنكم وتصير سبباً لدفع العقوبات عنكم في الدنيـا والآخرة ، وأنا خاص على النـاس ومعين عليهم ، وأنا ملزم على كل من له دين العمل بما ذكرت ، والذي يقول ما هو من حسبة أهل الدين ولا له نصيب من الخير نعرف ممشاه بسكوته وعدم الإنكار ولنا فيه رأي يدبرنا الله عليه إن شاء الله تعالى .

وأيضاً بلادكم يأتيها أفقية من كل مكان وجهة ويروح أكثرهم مـا نعرف ان أحداً واجههم يدعوهم للاسلام ويبين لهم التوحيـد من الشرك ويبين لهم الكفر

من الاسلام ، هـــذا والعياذ بالله من الحرمان وعدم الإيمان بقوله ﷺ : « لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » .

والدعوة إلى الله واجبة على كل مسلم ، قال تعالى : ﴿ قل هـذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾. وكل من ادعى اتباع الرسول ﷺ وجب عليه أن يدعو إلى ما دعا اليه ﷺ ، والخلل في هـذه المسألة خلل واضح ولا عليه صبر وأنا ملزم عليكم تبدلون الممشى ، والكل منكم يتوب إلى الله فيما بينكم وبينه ... والسلام .

– ٥ –

من سعود بن عبد العزيز

الى من يراه من المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

من سعود بن عبد العزيز إلى من يراه من المسلمين سلمهم الله من الآفات ، وجنّبهم فعل المحظورات، ورزقنا وإياهم فعل الطاعات، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد ، موجب الخط المشحة بكم والشفقة عليكم ، والله تعالى أنعم علينا وعليكم بدين الاسلام ، وكل نعمة تقصر دونه ، وأعطاكم في ضمنه ما لا يعدّ ولا يثمن ، وغمركم بالنعم الجسيمة كما قال تعالى : ﴿ وأسبغ عليكم نِعَمه ظاهرة وباطنة ﴾ وصرف عنكم من المحن ما تعلمون وما لا تعلمون ، فكونوا ممن يحدث عند النعمة شكراً، وعند المصيبة صبراً، وينفق مما آتاه الله في السرّاء والضرّاء، وقيد النعم الشكر ، كما قال تعالى : ﴿ وإذ تأذّن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ الآية ، وقال تعالى : ﴿ إعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور ﴾ . والشكر سبب لثبات الموجود ، وجلب للمفقود ، قال تعالى : ﴿ ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً . وإذاً لآتيناهم من لدنّا أجراً

عظيماً . ولهديناهم صراطاً مستقيماً ﴾ . وفي الحديث : « إذا رأيت الله يتابع نعمه على عبد وهو مقيم على المعاصي فإن ذلك استدراج، ونعوذ بالله من مكر الله فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » ، وقال : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ، وفي الحديث : « ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة » ، والله تبارك وتعالى يُري عبيده قدرته عليهم وعفوه عنهم لعلهم يرجعون .

والموجب لهذا : هذه الفتنة التي عمَّت الناس ليريكم الله قدرته على الناس ودفعه كما قال تعالى : ﴿ أوَلا يرون أنهم يُفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ . والتوبة إلى الله والاستغفار شعار الصالحين ، كما قال عن نوح عليه السلام : ﴿ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً ﴾ إلى قوله : ﴿ ويجعل لكم أنهاراً ﴾ . وقسوة القلب سبب العطب والهلاك في الدنيا والآخرة . قال تعالى : ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قسَت قلوبهم وزيّن لهم الشيطان – إلى قوله – : الظالمين ﴾ . فلا جعلنا الله وإياكم منهم ولا أمثالهم .

والذي أوصيكم به تقوى الله في السر والعلانية ، واستحضروا فناء الدنيا ، وبقاء الآخرة ، واللجوء إلى الله والفرار اليه ، والاستغفار والتوبة ، والإقلاع عن الذنوب التي تغضب الله باطناً وظاهراً كما قال تعالى : ﴿ ففرُّوا إلى الله ﴾ الآية ، وقدّموا بين يدي توبتكم ، والاستغفار صدقة لفقرائكم يخص بها أهل المسكنة ، واعلموا أن الله الغني وأنتم الفقراء : ﴿ وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ﴾ الآية.. وافطنوا لقوله تعالى : ﴿ الشيطان يعدكم الفقر ﴾ الآية ، وقال تعالى : وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه ﴾ الآية .. وفي الحديث عن النبي ﷺ انه قال : « انفق بلالاً ولا تخشَ من ذي العرش اقلالا » ، وفي الحديث الثاني أنه « يطلع مع الشمس كل يوم ملكان ، أحدهما يقول : اللهم أعطِ كل منفق خلفاً ، والآخر يقول : اللهم أعط ممسكاً تلفاً ، وتجزّلوا فإن الله أكرم من خلقه ، ﴿ فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يرَه ، ومن يعمل مثقال

ذرّة شراً يرَه ﴾ ، وقولوا : ﴿ ربنــا ظلمنا أنفسنا ﴾ الآية .. وقولوا كما قال ذو النون عليه السلام : ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك ﴾ الآية .

اللهم إننا نستغفرك ونتوب اليك . اللهم إنك عفوّ تحب العفو فاعف عنا .
اللهم يا سميع الدعاء ويا ذا الأيادي العلا عــالم السر والنجوى ، إنا نلتجىء اليك ونستغفرك ونتوب اليك ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنــــا ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقِنا عذاب النار ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميــد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد.
وكل إمام مسجد يقرأ الكتاب على جمـــاعته ويكتب صدقتهم وورقة المسجد يعطاها إمام المسجد ... والسلام .

من الامام سعود الى أهل نجران

بسم الله الرحمن الرحيم

من سعود إلى جناب الأشراف حسين بن ناصر وحسن دهشا وحمزة ومحمد بن حسن وحسين أحمد ومقبل بن محمد وصالح بن عبد الله وأحمد معوض وأحمد علي ابن شما وصالح حسين مسلى ، سلمهم الله من الآفات واستعملهم بالباقيات الصالحات .

وبعد .. (ألفى) علينا مقبل بن عبد الله ، وأشرف على ما نحن عليه وما ندعو اليه وما نأمر به وما ننهى عنه ، ويصف لكم من الرأس أكثر من القرطاس إن شاء الله .

ونخبركم اننا متبعون لا « مبتدعون » نعبد الله وحده لا شريك له ، ونتبع رسوله ﷺ فيما يأمر به وينهى عنه ، ونقيم الفرائض ونجبر من تحت يدنا على العمل بها وننهى عن الشرك بالله وننهى عن البدع والمحرمات ونقيم الحدود ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونأمر بالعدل والوفاء بالعهود والمكاييل والموازين وبرّ الوالدين وصلة الأرحام .

هـذا صفة ما نحن عليه وما ندعو الناس اليه ، فمن أجاب وعمل بما ذكرناه فهو أخونا المسلم حرام الدم والمال ، ومن أبى قاتلناه حتى يدين بما ذكرناه .

وأنتم أخص الناس باتباع محمد ﷺ ، والحق عليكم أكبر منه على غيركم ، والإسلام هو عزكم وشرفكم ، كما قال الله تعالى : ﴿ لقد أنزلنا اليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ .

فالمأمول فيكم القيام بالدعوة إلى الله ، لأن الدعوة سبيل من اتبعه ﷺ ، كما قال تعالى: ﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين ﴾ .

ونسأل الله أن يجعلنا وإياكم من الداعين اليه المجاهدين في سبيله ، لتكون كلمته العليا ودينه الظاهر ، وصلى الله على نبينا محمد وصحبه وسلم [1] .

---

(١) أنظر « الدرر السنية في الأجوبة النجدية » .

من أهل المدينة الى سعود

– ١ –

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الستار ،
والسلام على نبينا المختار ،
وعلى آله وصحبه الأبرار ،
نهدي أشرف السلام وأسنى التحيات الكرام على صاحب الدعوة النجدية ، أمير الدرعية ، المشمول بالفخر والعز ، الأمير الشيخ سعود بن عبد العزيز .

أما بعد ، فقد أمرتنا بتوحيد الله واتباع سنة رسول الله والقيام بفعل الطاعات والاجتناب عن فعل المحرمات ، فهذا أمر منك مقبول ، حيث أن فيه اتباع الرسول ، وأمرتنا بهدم القباب التي فوق القبور ، فهدمناها مراعاة للحديث المشهور ، وكلما صدر منك الأمر فيمضي حكمه على رغم أنف زيد وعمرو ، والمأمول منك صرف النظر عن من أتى اليك بخبر ولا تسمع لناقل عنا خبراً ولا مقالاً إلا إذا كان عن صحة واستدلال ، فإن من نمّ لك نمّ عليك وهذا جوابنا المرسول اليك ، فاعتمد عليه غاية الاعتماد ، ونسأل لك سبل الرشاد.

واعلم .. ان بداي بن مضيان استولى على مياه السيل بطريق العدوان ،

وادعى أنك قد أمرت بهذا ، وهو مأمور ، وأنت لا ترضى بهذه الأمور ، والحال قد صار علينا (موقوف) ، بداعي حجزه لأموالنا بالخيوف ، وليس بخاف على علمك الصحيح الفاخر ما هو لنا من البضائع والمتاجر ، ونحن جيران رسول الله الكريم ، المبادرون للأمر والتسليم ، وقد أرسلنا لك من هـــذا الطرف ... وحسن شاكر ومحمد شعاب ، فبعد الوصول اليك (نبغي) الإفادة ، عما به سيكون الاستغناء عن الإعادة ..

— ٢ —

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على الرسول الأعظم ،

نهدي شريف السلام ورحمـــة الله وبركاته إلى جناب الشيخ سعود ، وفقه الله لما يرضيه ، وسلك بنا وبه سبل مراضيه ، وبعد ..

لا يخفاك أنه لما وصل أمير الحاج ، إبراهيم باشا قطر آغاسي ، ورأى الشيخ بداي محاصراً المدينة وقطع عنــه السبيل ، فخاطبه في ذلك فأخبر أنه مأمور منك بذلك ! إنك ما تريد لجوار النبي ﷺ إلا خيراً ، فاستحسنا أن تعرف جنابك ، فاجتمع حكام البلدة وأعيانها واختاروا من أهل العقل والأمانة أربعة أشخاص توجهت اليكم ، وهم: محمد الطيار ، والجاوش حسن القلعي ، وعبد القادر الياس وعلي الصديـغ .

ونرجو الله أنهم لا يرجعون إلا بما يسرنا من جوابك إن شاء الله)[1] .

---

(١) هذه النصوص وجدناها في كتاب (تاريخ وهابيان) الذي وضعه ، في اللغة التركية ، أيوب صبري .

من سعود الى أهالي المدينة المنورة

بسم الله الرحمن الرحيم

الى جناب أهل المدينة كافة، الكواخي والعلماء والأغوات والتجار والعامة، سلام على من اتبع الهدى .

أما بعد ، فإني أدعوكم بدعوة الاسلام ، كما قال تعالى : ﴿ إن الدين عند الله الاسلام ﴾ ، ﴿ ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ .

وأنتم خابرون من أحوالكم عندنا أننا نودكم لأجل مجاورتكم الرسول ﷺ ، ولا نريدكم بأمر يضركم ويضيق عليكم، وهؤلاء أهالي بيت الله وحرمه يوم انقادوا الينا ما (شافوا) منا إلا الاكرام ، ونحن قادمون عليكم لزيارة حرم الرسول، فإن أجبتم الى الاسلام فإنكم بأمان الله ووجهي وذمتي على جميع التعدي لا على دم ومال .

(ورد لنا الجواب، ورجالي صالح بن صالح، والجواب على لسانه والسلام).

حوليات المعارك والحوادث

في عهد سعود بن عبد العزيز [1]

السنة	المعارك والحوادث
١٢١٨	غزا سعود البصرة والزبير وهدم قصر « الدريهمية » .
١٢١٩	غزا سعود قبائل الظفير .
	أمر سعود ببناء قلعة في وادي فاطمة ، قرب مكة ، ليضيق على شريف مكة ..
	سار أبو نقطة ، بأمر سعود ، إلى جدة غازياً ، فجرت معركة بينه وبين جنود الشريف غالب ، وعاد كلٌّ إلى وطنه .
١٢٢٠	اشتد القحط والغلاء في نجد ، ولجأ كثيرون إلى الدرعية لرخائها ..
	بايع أهل (المدينة) لسعود .
	سار أبو نقطة والمضايفي إلى مكة ، بأمر سعود ، لينزلا مع جموعهما قرب مكة ويضيقوا على أهلهـــا ويمنعوا الحاج الشامي من دخول

(١) ملخصة عن ابن بشر .

السنة	المعارك والحوادث
	مكة .. فاشتد الأمر على الشريف غالب ، وطلب منهم الصلح على مواجهـة سعود ومبايعته ، فقبلوا منه .. وحجوا .. **وأرسل الشريف غالب الهدايا الى (سعود)، طالباً الصلح، فأجابه سعود.. وتمّ الصلح والمبايعة .**
	غزا سعود بلد المشهد في العراق ، ثم السماوة ، فالزبير ..
	سار أبو نقطة وغيره ، بأمر سعود ، إلى نجران ..
	بايع رئيس الحديدة وبيت الفقيه الإمام سعود ..
١٢٢١	أمر سعود رجاله بمنع الحاج الشامي والتركي من دخول مكة .
	حج سعود ونزل قصر البياضية وركب اليه الشريف غالب وبايعه .
	أخرج سعود من كان في مكة من الأتراك .
١٢٢٢	حج سعود حجته الرابعة .
١٢٢٣	غزا سعود بلد الحسين في العراق وعجز عنها ثم استولى على (عثاثا) وتركها بعد أخذه خيلها ، وغزا البصرة والزبير .
	حج سعود .
	بايع قيس ، رئيس سحار وباطنة عمان .
	عم القحط والغلاء جميع نجـد والحجاز والأحساء واليمن ومات بسببه خلق كثير .
١٢٢٤	اشتد الوباء ، خصوصاً في الدرعية .
	أمر سعود عبد الوهاب أبا نقطة بالمسير لقتـال الشريف حمود أبو مسمار .
	حج سعود .

السنـة	المعارك والحوادث
	قاتل المطيري ، بأمر سعود ، صاحب مسقط .
	أمر سعود آل خليفة بالوفود عليه في الدرعية .
١٢٢٥	أمر سعود ابن عفيصان بالسير الى البحرين والاستيلاء عليها وضبط أموالها ، فحاربه أبناء آل خليفة وأخرجوا رجاله .. وأمسكوا به مع نفر قليل من رجاله رهائن .
	سار سعود الى المزيريب وبصرى في الشام غازياً .
	سار المضايفي الى أرض تهامة واليمن وحارب حمود أبو مسمار وهزمه .
	سار طامي بن شعيب الى بندر «اللحية» وأخذه عنوة.. ثم استولى على بندر « الحديدة » .
	حج سعود .
	خرج أبناء سعود الى عمان واستولوا على بعض بلدانها وأخذوا منها أموالاً . فأمر سعود (المطيري) بإخراجهم .
	تقاتل صاحب مسقط والمطيري وانهزم صاحب مسقط .
١٢٢٦	وصلت الحملة المصرية الى أرض الحجاز واستولت على ينبع البحر وينبع البر ، ثم انهزم المصريون هزيمة منكرة وتراجعوا .
	حج سعود .
١٢٢٧	جاءت من مصر حملة جديدة ، واستولى المصريون على ينبع البر ثم على وادي الصفراء ثم على (المدينة) المنورة .
	حج سعود حجته التاسعة ، وبقي في مكة إلى آخر ذي الحجة ، وبايعه الشريف غالب مرة أخرى وأهدى اليه هدايا كثيرة ..

السنة	المعارك والحوادث
١٢٢٨	استولى المصريون على مكة بغير قتال ، ثم استولوا على الطائف ..
	سار سعود إلى (الحناكية) وفيها عساكر من الترك ، وأخرجهم منها بالأمان ..
	حاصر المصريون (تربة) وانهزموا عنها ..
	أسر رجال الشريف غالب المضايفي ، وأرسل إلى استانبول .
	وصل محمد علي إلى مكة ، ثم أمسك بالشريف غالب ونفاه .
	حاصر المصريون (تربة) مرة ثانية وعجزوا عنها .
١٢٢٩	هاجم المصريون (القنفذة) ثم وقعت عليهم هزيمة منكرة وهربوا منها ..
	توفي الإمام سعود بن عبد العزيز .

الملحق

الوثـــائق

الوثيقة ١٩٥٤٠ التركية

الوثيقة ١٩٥٤٠

من والي بغـــداد الى السلطان

هذا تحرير عبدكم والي بغداد . والأمر والفرمان لمن له الأمر .

يا ذا العناية ،

غب مرور ثلاثة أيام على ورود الأوامر العليـة واجبة الامتثال التي كانت صدرت والتي تشرفت بتلقيها ، أخذتُ على التعاقب والتوالي من متسلم البصرة ومن شيخ المنتفك ومن أماكن ومحلات ومراجع كثيرة مختلفة معلومات وأخباراً مفادها ان حركات ابن سعود وسوء قصده تجاه هذه الأطراف قد تفاقم أمرها ولـكي تكون تلك المعروضات موضع أنظار ذاتـكم العالية وعنايتها وقرينة علم حضرة ذي المراحم والمروؤة فقد جرى رفعها مطوية ضمن هذه العريضة إلى مقام ولي النعم الرفيـع ذي المعالي لأمرار النظر الكريم عليها بعطف التأمل والعناية البهية على محتوياتها فيتضح عقب ذلك ما لقينا في بحر هذه السنوات العديدة التي مضت والتي كنا خلالهـــا فريسة للأتعاب والمشاق ، وتتقاذفنا أمواج الحيرة والارتباك من جراء حركات ابن سعود ... والذي بدت أفعـــاله تتكاثر حيال بقعة المصطفى ﷺ وتكررت تجاوزاته دون انقطاع ابان فصول السنة دون هوادة ليلاً نهاراً وكان هـــذا سالباً للراحة إذا وجب دوام انشغالنا برد الأذى ودفع هذه الاعتداءات المستمرة إلى درجة لم يكن في مقدورنا

السفر إلى مهام طارئة إلا مرة كل سنتين أو ثلاث لنحصل على قسط من الراحة ، وإن هذا العبد العاجز ليحلف بالله العظيم وبالله الكريم أنه لم يذق طعم الراحة في وقت من الأوقات أو ساعة من الساعات إذ كان مصير الأمن معرّضاً دائماً للخطر وكانت الحرب بيننا لا تتوقف صيفاً وشتاء سجالاً يوم علينا ويوم لنا ، وكانت عساكرنا التي دفع بها إلى أماكن عسيرة وصعبة تلاقي العدو في شتى الأماكن فتعمل جاهدة على إنزال الخسائر والتهلكة به ، وتسخير وضبط أماكنه والاستيلاء عليها ، وهو ما أرسلت لأجله . زد على ذلك أحوال الشقاق والنفاق المعلومة في العراق وبين أهله ، ووظيفتنا إنما تتناول تنظيم أحوال تلك البقاع المتعبة . والذي زاد في سلب أمننا وهدوئنا وسكينتنا فضلاً عن ازعاجنا هو اشغال أذهاننا بشتى الأمور الصعبة ، والمتعددة المسالك التي زادت في مشاكلنا .

وإن إزالة هذه المحاذير التي تسببها ... هؤلاء ... « النجديون » وقطع دابر وجودهم من أولى الواجبات الإسلامية ومن موجبات الذمة والدين والصداقة والغيرة والإيمان بالإضافة الى أن ذلك هو مبعث عز وافتخار للدولة العلية الأبدية الوجود ، ومحط أنظار العالم أجمع ، ولذلك لزم بذل منتهى الجهد والإستطاعة والهمة على قدر الإمكان ، وإني دون أدنى شك وعلى كل حال واضع نفسي وقدرتي في سبيل التمكن من إزالة هذه المحاذير وكبح جماحهم .. كما أني كما سبق أن عرضت في رقيمة سابقة بادرت حال استلامي الأوامر العلية بالإمتثال لما ورد بها بالنفس ولبذل ما أملك من وسائل وللقيام (بالتداركات) اللازمة وهذا ما نرجو تحقيقه وفاقاً لما سبق إيضاحه وتبيانه بقلم هذا العاجز وإننا سنبذل كل محاولة للوصول الى مقر ... المذكورين والإحاطة بهم من كافة الأطراف وتنفيذ المقتضيات والأوامر التي ورد ذكرها بفرمان حضرة السلطان الأعظم عالي الشأن الأبدي الطاعة والإحترام كما وإنفاذ تعليمات مقام الصدارة العظمى البهية وهذا ما سوف لا نغفل عنه أو نتراخى بتأمينه على وجه التحقيق بإذن الله إذ أن التغافل والإهمال حيال هذا المبتدع — كذا ... — لا يجوز ، وإن ... محو هذا المذهب الباطل من الوجود ومنع أسباب هذا الضلال واجب ومحتم من

وجهة العقيدة والذمة الاسلامية وهو بمثابـة فرض العين ! وتبعاً لذلك فإنه من المستلزم توجيه وصرف العنـــاية والهمة السنية السلطانية التي تمس الحاجة اليها لتأمين عدم الإهمال والتساهل في إعداد وسوق ما تم تخصيصه من الأعداد الكافية من العساكر لا من جهة الحرمين الشريفين وحدهما فقط لكي لا نقع فريسة لخداع واحتيال ومكر المبتدع المرقوم ، بل أن نبادر بتطويقه ... من كافة الجهـات وأن نظل نعمل بالسيف مظهرين السطوة والشدة حتى نتمكن من استئصال شأفته .. ودون أن نمكنه من استعمال حيله ووسائل مكره وعدم نفض اليد أو التوقف أبداً عن منازلته وأعوانه وقتالهم جميعاً الواحد بعد الآخر حتى تتم إبادتهم عن آخرهم أو استسلامهم وخضوعهم قهراً وقسراً ، ولكي يتم لنا ذلك على وجه السرعة والسهولة الممكنة يرجى توجيه العناية العاليـة السلطانية الى دعم موجوداتنا بمقدار كاف من العساكر والمهام واللوازم والذخائر بمـــا يرى إرساله إضافة وعلاوة لما هو مجهز ومرتب ، وهـــذا ما نترقبه ونتطلع اليه من الألطاف العليـة السنية تأييداً وتأكيداً لنصر وظفر وإعلاء شأن وإظهار مجال قدرة الدولة العلية الذي نؤمل الحصول عليه من جناب واهب العطايا . وعلى أن الاعتماد على مـا هو مرتب وموجود بهذا الطرف فحسب للتوصل إلى النجاح في كلا الشقين آنفي الذكر وهو المقصود في الأصل غير ممكن ومتعـــذر الحصول وليس من شأنه تيسير النجاح وذلك بالنظر لأن ... المذكور عمد إلى اتخاذ كافة التـدابير ووسّع دائرته ... بتأليب وجمع القوى الكبيرة حوله واستيلائه على أملاك الأمة والناس وإمكانياتهم وتسخيره القبائل والعشائر التي امتثلت لأمره واتبعت مذهبه .. متأثرة بصولته وإقدامه ، حتى ان العشائر والقبائل المحيطة بمكة المكرمة ، شرّفها الله ، قد انضمّت اليه عاملة تحت لوائه . ولهذا فإن حركاته لا تشبه بوجه من الوجوه غيرها من التي سبق معالجتها بحيث لا يمكن أن تُقاس بها .

وقد وضع في نفس المدينة المنورة أيضاً شباكاً وحبائل من المكر والدسائس وتمكن من استمالة وجلب أكثرية الأهلين ترغيباً او إرهـــاباً متخذاً من العشائر

والقبـــائل المحيطة كذلك واسطة لتكثير سواد جموعه بفرض إرادته عليهم مستعيناً بقوة بأسه وجسارته ، فأصبحت بيده كالآلة الطيّعة وتوسعت سيطرته في هذه الأماكن ... وهو كالطائر الخاطف سريع الاختطاف طويل اليد شديد البأس، ولكنه بفضل عناية السلطان الأعظم وبالغ قدرته سيعود فاشلاً وستكون عاقبته الخسران ولن يستطيع الصمود فيرجع آخر الأمر إلى مساكنه الأصلية مذموماً مدحوراً .

وقـد كان المبتدع المرقوم إبان رحلتنا السابقة حاول أيضاً أن يجوس خلال الديار حول الحرمين المحترمين ليعيث فساداً ويشيع الأضرار في تلك الأطراف ، لكن الغيرة والحميـة الدينية والعنصرية دفعت أهل تلك البقاع بتحريض وإثارة حضرة المرحوم شريف مكة الذي كان دائم المراسلة معنا ويرسل رجاله لإخطارنا بما يقع وإيضاح ما أصبح عليه الناس من ضيق وخشية ، وكان ذلك مثيراً لرغبتنا العارمة ولحرصنا لوضع حد لتلك الحال التي أوجدها المذكور ، فعملنا على تدارك المقتضي وشرعنا بالسير صوب مكة لتطهير تلك الأماكن الشريفة من رجس أهل البدعة . وكان شريف مكة أيضاً يراسل (ابن سعود) ناصحاً إياه بالكفّ عن تلك الحركات وأن مصلحته أن يسلك طريق الصلح والمسالمة ، وكان من نتيجة ذلك أن تحوّل ... المذكورون عن أطراف الحرمين بأمان وخلو بال متجهين صوب هذا العاجز بقوتهم وإمكانياتهم. ولما رأى ... المذكور الشدة والمتانة منا وأدرك ضعفه تجاه ذلك جنح إلى السلم وتعهّد بأن لا يقترب فيما بعد من حدود الحرمين المحترمين أو من حدود كافة الممتلكات الخاقانية وأن لا يحدث أي تجاوز عليها . وحين أبدى وأكّد رغبته في ذلك وحلف الأيْمان وأعطى المواثيق على ما قال وتعهد ، أُخذ منه سند محرر أُلصق عليه طابع رسمي ويفيد مـا تقدم . إلا أن هذا ... وأتباعه يلجأون... كلما خانهم الحظ وشعروا بالضعف والعجز ، إلى الحيلة والخداع فيسارعون إلى المسالمة ، وحين يروْن في أنفسهم الكفاءة والقدرة ينبذون الطاعة ويدوسون تعهداتهم ويبادرون للتعدي والتجاوز على الممتلكات الإسلامية وتسخير الأموال والأهلين لصالحهم ...ولذلك فإن ما سبق

عقده من معاهدات ومواثيق تنتهي آخر الأمر إلى لا شيء ...

وإن مـا أعرضه أنا عبدكم الآن هو من قبيل إنفاذ أمر مولانا الإمام العظيم ذي الأمر المطاع الشريف . وأتشرف – بالإضافـة إلى ذلك – فأعرض انني سأذهب بالنفس للتلاقي مع متسلم البصرة ومع شيخ المنتفك وغيرهما والبحث معهم في سائر الوجوه ، وقد أشعت ذلك وبادرت لتدارك ما يلزم لهذا الأمر ، وإنني منتظر لمراسلات وأخبار المشار اليهم . وبما أن الأماكن المقصودة خالية من الماء والكلأ ، فإن تسيير العساكر من هذا الطرف في سائر الفصول متعذر ، ولكنه ممكن نحو أواخر الصيف أو الخريف ، ولذلك فإننـا سنتجه أيضاً لتوفيق حركاتنا على ضوء مـا يرى المومأ اليهم من الإمكانيات للعمل لتكون تحركاتنا منسجمة مع تلك المرئيات والآراء تنفيذاً للأوامر العلية وللتعليمات الصادرة عن عتبة اقدام مراحم ولي النعم . وسنسارع لعرض وإعلام مـا يصح ويقرّ عليه الرأي . ولكي يكون ذلك قرين علم الذات العليـة تفصيلاً اقتضى رفع الكيفية إلى حضرة صاحب الإحسان والدولة والمعزة والعنـاية والمرحمة والعطوفة موئل الجود والكرم ولي النعم الأكرم . وعلى كل حال ، فإن الأمر والفرمان لحضرة من له الأمر سلطاننا المعظم .

(غير مؤرخ) خاتم مراد علي

٥

مصر والیسی محمد علی پاشا [illegible]

١٢٤٠

علالهما کرم [illegible] افندم حضرتلری

سوشیل سرکه‌سنه اثنا والیوم اتمامه مشتغل اولدیغم سفینه‌لره مقتضی طوب وچنکال متوقف اولدیغی [illegible] المغله

دیرک مقدارلری مقدما تماماً آغامزک حامل اولدیغی عرضحالده مندرج ایدی بو دفعه مجموع مقتضیات سفاینمزک

برقطعه دفتری تنظیم وتمهیر ایله تقدیم قلنمشدر افندی مولاکه بنم [illegible] یدیمه ویریشلمغله [illegible] کوبانه

[illegible] عنایت دولت علیه اولور [illegible] یوق [illegible] دولت علیه اولدیغنده عنایت بیوریله‌جق

کیفیتی [illegible] بهالری ویرلمک اوزره [illegible] بنم [illegible] مبایعه [illegible] همت ومرحمت [illegible]

سفاین مذکوره‌یه مشوره لازم بوده لزوم [illegible] تحریراتیمه [illegible] مختامنده آلات وستون وادوات

سائره [illegible] وترتیب [illegible] وعساکر [illegible] ومهمات [illegible]

[illegible] اشتباه بیوریله [illegible] طوب [illegible] وسائر آلات سفاینمز

عنایةً یاخود مبایعةً [illegible] همت بیورلری منتظر [illegible]

[illegible]

الوثيقة ١٩٥٤١ التركية

الوثيقة ١٩٥٤١

من محمد علي باشا الى السلطان

حضرة عالي الهمم كريم الشيم أفندينا

ان السفن التي أنا عامل على إنشائهـا وإتمامها في ميناء السويس وإن تكن في طريق الإنجاز إلا أن هنالك الكثير ممـا يلزم تأمينه كالمدافع وكلاليب الحديد (سنارات) التي يقتضي استحضارها وإيجادها بالاضافة الى مهام ولوازم اخرى كالأخشاب التي لا يمكن استمرار العمل بدونها . ان كافة هـذه الأشياء وإن تكن مندرجة بالعريضة ، التي حملها مقدماً تاتا آغا خاصتنا ، فانه قد نظم الآن دفتر مصدق بالخاتم يشتمل على مجموع مقتضيات ولوازم سفننا وسلم إليّ أنا خادمكم باليد من قبل حاجبنا المومأ اليه . ولمـا تقع عليه الأنظار الكريمة بمنه تعالى اذا مكن العناية بارسالها من قبل الدولة العلية فنعم الاحسان وإلا إذا كانت ظروف الدولة العلية لا تساعد فلا يمكن والحالة هـذه إرسالها فانني على استعداد لدفع قيمتها من جيب هـذا الفقير الخاص . ولكي أفعل ذلك ألتمس أن يتم شراؤها بمعرفـة حاجب خادمكم وأسترحم التفضل بالمروءة والاهتمام بسرعة إرسالها وبعـد ذلك لا يبقى أشياء كثيرة يجب إحضارها من أجل السفن فنعود لترديد القول والتحرير ذلك لازم وهذا ألزم بل فور ختام العمل بهذه السفن تجهز حالاً

بالآلات والأدوات المختلفة وبعد تزيينها وإعدادها الإعداد التام تنزل الى البحر وغب وضع الجنود والذخائر والمهات ترسل الى ميناء جـــدة أو ينبع وعقب تسييرها ليس هنالك مجال للشك والشبهة بأني سأسارع أنا خادمكم باللحاق بهـا عن طريق البر وإني أعود فألتمس العناية بارسال ما طلبته من مدافع وعربات وسائر آلات السفن عن طريق المبايعة أو مباشرة وخادمكم بانتظار ذلك .

١ شعبان ٢٥ ؟ خاتم محمد علي

الوثيقة ١٩٥٤٤ التركية

الوثيقة ١٩٥٤٤

من محمد علي الى السلطان

حضرة صاحب الدولة والسعادة والعطوفة والرأفة عـالي الهمم كريم الشيَم سلطاننا أفندينا .

إن فصيلتيْ جنود جيشنا الموفدتين للغزو في جبهة الحجاز وصلتا في حينه إلى ينبع البر ، وبعـد استئجار الجمال وترك الأثقال والحمولة الزائدة في ينبع البحر وأخذ ما هو ضروري من مهمات وذخيرة حربية وزاد وماء اتجهوا بمعية قائدهم الأعلى السر عسكر مخدومكم ولدنا الحاج طوسون أحمد باشا صوب المدينة المنورة ووصلوا جميعاً بحول الله تعالى في اليوم الخامس عشر من هذا الشهر (ذي القعدة) إلى مرحلة بدر حنين الشريفة ، وفور وصولهم إلى الموقع المذكور نظّم البـاشا الموما اليه دوريات الحراسة المخصصة لاقتفـاء الأثر والتجسس والتعقيب وأُبلغ شيخ العرب (نصر شديد) بأن يبعث بمجموعة مؤلفـة من نحو خمسين هجاناً ليسيروا ليلاً يمنة ًويسرة لمعرفة ما يجري في تلك الأرجاء ، وقد قام شيخ العرب بذلك على رأس فرقة الاستكشاف المذكورة ولدى اقترابه من القرية المعروفـة باسم (سويقة) أخذ علماً بوجود جماعة من « الوهابيين » ولكنه لم يتمكن من معرفة ما اذا كانوا قلة أو كثرة وما اذا كانوا ينوون شراً بمهاجمة الجيش الاسلامي

على حين غرة أم أن وجودهم هنالك حدث مصادفة لمناسبة عبورهم من ذلك المكان أم غير ذلك ؟ وقد صعب عليه وعلى الفرقة تبين هـــذا الأمر في جنح الظلام ، ولكنهم عرفوا أن جمهرة من الوهابيين موجودون في القرية الفلانية ، وأفـاد الشيخ بأنه لم يتأكد من عددهم ومما يقصدون عمله ، ولمـــا عرض ذلك على الباشا الموما اليه بادر حالاً بتهيئة عـدد من الأدلاء ونحو مائتي خيال وأرسلها ليلاً الى شيخ العرب وأوصوا بأن يظلوا تلك الليلة في محلهم يترقبون ويترصدون ويتبصرون بالأمر وقد علموا بعد التحقيق أن على رأس الجيوش الوهابية عبدالله ابن سعود بالذات ، يصحبه أعاظم رؤساء الوهابية ، وبينهم محمد بن شكبان وأبو نقطة ومسعود بن مضيان وعثمان المضايفي وابن جبارة ، ويبلغ عدد المقاتلة أربعة آلاف من الهجانة وخمسمائة من راكبي الخيول المختلفة وألفاً من المشاة ، وهم يستعدون لمهاجمة الجيش الاسلامي .

لقد أدرك رجالنا بأن التراجع الى الوراء تحاشياً للإصطدام بهـــذه القوة الكبيرة التي شاهدوهـا عياناً غير ممكن ، وقـد يؤدي الى كارثة ، ولذلك قرروا بعد التوكل على الله سبحانه وتعالى أولاً ، وهو خير الحـــافظين والناصرين وثانياً على امداد روحانية حضرة سيد الكونين والمرسلين وثالثاً على قوة حظ وكرامة حضرة ظل الله على الأرض ومتفائلين بنصر عزيز من عند الله وهجموا بغتة مردّدين اسم الله على اولئك الرفضة الحشرات بحزم وعزم وشجاعة وسُلّ سيف سيدنا علي وأخذ يعمل بالرقاب ولما دخلوا وصاروا بينهم وشرعوا بالحرب والكفاح ولّـى الحشرات الأدبار منذ أول ساعة منهزمين حتى بلغوا الجبال والقفار البعيدة ليأمنوا على أرواحهم . ولمــــا كان جنودنا قلة لم يتعقبوا المنهزمين الخوارج بل عادوا الى منازل الجيش وأثناء عودتهم شاهدوا نحو مائتي جثة من الخوارج الجرحى والأموات ملقاة على أرض المعركة فقطعوا رؤوسهم المنحوسة بالسيوف وغنموا نحو مائة هجين وخمسة وعشرين رأساً من الخيل وأخذوها الى الباشا وعرضوا عليه تقريراً عن كافة ما جرى بهذه المعركة وبمـا

أنه لم يسبق للموما اليه أن صادف مثل هـــذه الأوضاع وفور وقوفه على واقع الحـــال سجد شكراً للرحمن داعياً الباري سبحانه وتعالى أن يحفظ ذات مولانا السنية متمنياً من حضرة محقق الآمال دوام بقاء وعز وإقبال مولانا الاعظم ظل الله على الارض .

في الواقع ان مهاجمة فصيلة من الجنود لا يزيد عدد أفرادها عن المائة والمائتين لحشود كبيرة وفيرة العدد تتجاوز الخمسة آلاف من الهجانة والخيـــالة والمشاة وانتصارها وتغلبها عليهم هو في الحقيقة ودون ما شك أو شبهة من آثار عناية الحق سبحانه وتعالى ، ومن فيض كرامات حضرة روح العالم ولي النعم صاحب الشوكة والمهابة والمقدرة سلطاننا وأفندينا . وقد كررنا الدعاء بزيادة عمر وعز وإقبـــال الذات الشهنشاهية آمين استجب يا معين . بقي أن نعرض أنه بمناسبة غزارة الأمطار وشدة موسم الشتاء واختلاف الرياح لم تتمكن السفن التي تحمل الذخيرة من بلوغ ميناء ينبع وهذا أوجد اضطراباً لعدم وجود مقادير كافية من العلف للحيوانات وبوصول بعض القوارب المحملة من الفول والشعير خلال بضعة أيام سيبادرون بالرحيل من هذه المرحلة والاتجاه صوب المدينة المنورة وقـــد أعلمني الباشا الموما اليه ذلك بتحرير أرسله بصحبة رئيس حجاب القهوة خاصته الذي أتى أيضاً بالرؤوس المقطوعة لكي أراها فأرسلتها حالاً الى مقر ديوان السياسة المصرية لتعليقها وتشهيرها وجرى تنفيذ ذلك فعلاً . ان هذا ما حصل حتى الآن من نتائج . على أنـــه وإن يكن ما هو ملحوظ وقوعه من الأحداث وفتوحات المصلحة بعد الآن لم يكن من متعلقات هذا العبد الفقير فقط باعتبارها تتعلق أيضاً بتنظيم وحصول اتفاق في الخطط ووجهات النظر من جانب الشام وبغداد إلا أننا إن شاء الله بعون الباري وبفضل إخلاص وكرامات حضرة الذات السنية سنوفق بعناية الله بجعل البلدتين الطيبتين في قبضة التسخير ، كما أن أنبـــاء فتح المدينة المنورة والبشرى بذلك هي بلا شك في الطريق قريبة

الوصول اليوم أو غـداً وبمشيئة الله وحال وصولها سيصير رفعها وتقديمها بعرض تحريري خاص لأعتاب الذات العلية السامية وقد قدّمت الآن مع عبيدكم التاتار هذه العريضة المحتوية على ما ورد إليّ من الباشا الموما اليه في كتابه المرسل الى كبير حجابنا لكي يصبح بمنه تعالى كل ما ذكر وورد فيها محاط علم حضرة ولي النعم ، وعلى كل حال فان الأمر والارادة لحضرة من له الأمر .

خاتم محمد علي ١٢٢٦ ١٩

حـــاشية :

رفع رئيس الديوان رسالة محمد علي، والي مصر، إلى السلطان بهذه الكلمات :

(هذه تحريرات عبدكم والي مصر تبشر بالانتصارات والفتوحات الجليلة التي جرت في مواقع بدر حنين جرى رفعها إلى المقـــام السامي لتقع عليها الأنظار السنية ، وسيجري منح الهـــدايا والخلع إلى رجال التاتار القادمين وتلطيفهم ومكافأتهم ، وليحاط علم الذات العليـة بذلك جرى العرض ، والأمر والفرمان لحضرة من له الأمر .)

خط السلطان :

وكتب السلطان ، في أعلى رسالة محمد علي ، هذه الكلمات :

(لقد اطلعت على هـــذا . أدعوه تعالى أن يمنّ بالنصر والظفر — آمين — وسيوفقون، إن شاء الله تعالى . اكتبوا إلى محمد علي باشا أن يتدارك أمر رفاهية العساكر وأن يبـــذل مزيد الغيرة لتأمين الذخيرة والتموينات اللازمة لهم ، وسيجري ذلك إن شاء الله . وليكرّم الرجال القادمون) ..

الوثيقة ١٩٥٤٤ ـ ١

الوثيقة ١٩٥٤٤ ـ ١

من أحمد طوسون الى محمد علي

العريضة الواردة الينا من طوسون أحمد باشا .

حضرة صاحب الدولة والعناية والعاطفة والمراحم الزائدة الوالد الأفخم ولي النعم أفندم .

كنا أعلمنا مقام الأبوة العالي بعريضة قدّمناها فيما سبق ما يتعلق بفتح ينبع البر وينبع البحر وكيفية ذلك تفصيلاً والآن حسب توجيهات ولي النعم وبمقتضى أوامره الكريمة تركنا تلك البقاع متجهين نحو المدينة المنورة ومستصحبين فصائل الجنود والجيش بما فيه المشاة والخيّالة وقد تيسر لنا ذلك بعون الله ووصلنا الآن وهو اليوم الخامس عشر من شهر ذي القعدة الشريف إلى المرحلة المباركة المعروفة باسم (بدر حنين) ونصبنا خيامنا فيها وبمقتضى الضرورة الراهنة بادرنا بتمين فرق ومجموعات مناوبة للعسس والدورية والحراسة والترصد وأنطنا أمرها بالمدعو شيخ العرب عبدكم (نصر شديد) الذي كان قد عيّن فيما سبق وألحق بقدمة الجيش والذي اصطحب معه نحو خمسين من الهجانة للتفقد والتفحص يمنة ويسرة والتجسس والترصد ليلاً . وفيما هو يسير في هذه المهمة وإذا به يتلقى أخباراً عن

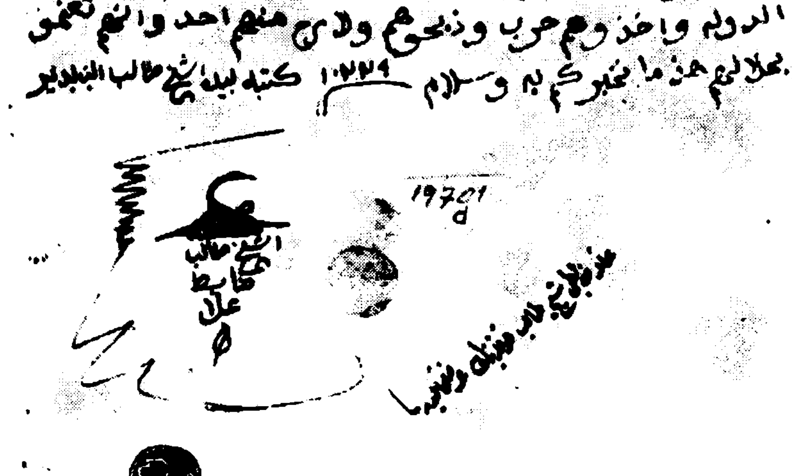
وجود عبد الله بن سعود ومعه من رؤساء الوهابيين المشهورين : محمد بن شكبان وأبو نقطة ومسعود بن مضيان وعثمان المضايفي وابن جبارة...ومعهم نحو أربعة آلاف من الهجانة وخمسمائة من راكبي الخيول وألف من المشاة وأنهم موجودون حالياً في قرية (السويقة) ، على أن شيخ العرب المذكور نصر شديد وإن يكن حصل على مثل هذه الأخبار التقريبية ، إلا أنه لم يتمكن أن يعلم ما إذا كان عددهم الحقيقي كبيراً أم صغيراً ، وما إذا كان العدد الذي ذكره منطبقاً على الواقع أم أن هنالك عدد أكثر أو أقل ، وما هي مقاصدهم وهل ينوون مهاجمة جيشنا على حين غرة ويستعدون لذلك أم هم مارّون عَرَضاً من ذلك الطريق ، دون أن يكون لهم غرض حربي ، ولم يكن بإمكانه أن يستزيد من استخباراته زيادة عما ذكر وهو شيء تخميني لا يستند على أساس مضبوط ، بل اكتفى بما تقدّم قائلاً إن هنالك من الوهابيين عدد كبير وإن قصدهم قد يكون هذا ، وقد يكون ذاك ، وبناءً على ذلك عيَّنت عبدكم حسين آغا السر جشمه (لقب) ومعه مئتان من الجنود وأرسلتهم إلى شيخ العرب ، وبوصولهم إلى هنالك وبناء على الأخبار التي ترددت عن كثرة عدد الوهابين الذين شوهدوا رأي العين ، تشاوروا ملياً بما يختص بهجومهم عليهم وهم قلة ، وبعد أن تأكد لديهم بأن رجوعهم إلى الوراء لتجنب لقائهم لا بد وأن يلاحظ ، ولذلك هبوا مرددين : بسم الله الرحمن الرحيم ، ومستمدين العون من خير الناصرين ، ومستغيثين بسيد الكونين ، دفعة واحدة خيالة وهجانة فاخترقوا صفوف الوهابيين وصاروا في وسطهم بغتة وشرعوا بالكفاح ومحاربتهم كالأسود ، ولم يلبث ... الوهابيون وقد شاهدوا العساكر الذين استلوا سيوفهم هاجمين بشجاعة واقدام يضربون يميناً ويساراً بضراوة أن ولوا الأدبار مغلوبين منهزمين راغبين في الحفاظ على أرواحهم وألقوا بأنفسهم في الجبال والقفار النائية وتخلف جنودنا القليلون في أماكنهم ولم يلحقوا بهم بعد أن أذاقوهم طعم السيف ، وبرجوعهم جمعوا ما يزيد عن مائتين

من الرؤوس ... قطعوها عن الجثث الملقـــاة على الصعيد وغنموا مقدار مائة هجين وخمسة وعشرين من الخيول أحضروها كلها إليّ ، وقدموا إلى هذا العاجز تقريراً مفصلا عن صورة وقوع المعركة وعن كيفية تحركهم والنصر الذي أحرزوه وإن تغلب هـــذه الدورية القليلة العدد من عساكرنا على آلاف الوهابيين ... وتشريدهم وتدميرهم هو بحق من آثار احسان الله وكرمه وعنايته وأتى مصداقاً للآية الكريمة : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ﴾ . ومثبتاً لقدرة مولانا السلطان الأعظم ذي القوة والمهابة والشوكة ، موجه العـالم وكراماته ومويداً توجهات حضرة صاحب الفتوحات المشهودة الوالد الأكرم ، وبادرنا بعد أن علمنا بهذا النصر برفع أكف الدعاء إلى المولى العلي القدير بأن يطيل عمر الذات العلية الشاهانية وإقبالها وأن يمد في حياة الوالد الكريم وأكثرنا من الحمد والثناء لهـــذه التوفيقات الصمدانية . وبمناسبة قرب حلول موسم الشتاء فإن السفن والصنادل المحتوية الذخيرة، والمشحونة من ميناء السويس، قد تأخر وصولها إلى ميناء ينبع ولم تتمكن حتى الآن من دخولها ولذلك حصل نقص كبير ملحوظ في أغذية وعلف الحيوانات ، ومع ذلك فإن لدينا والحمـد لله مقادير كافية من القمح والدقيق بقدر يمكن معه إطعام الخيول من الحنطة وتأمين علف الحيوانات الباقية من الدقيق المعجون ، وبعد وصول بعض المراكب المحملة بالشعير والفول سنشرع متكلين على الله ومستمدين العون منه بالتحرك متجهين نحو المدينة المنورة وإن شاء الله بفضل كرامات وطالع حضرة ظل الله على الأرض أعتقد وأجزم بأنه سوف لا يجرؤ بعد اليوم أحد من الوهابيين.. على مقابلتنا وسيكون الجميع من الجبل إلى الجبل راغبين بعرض فروض الطاعة والولاء ، وان شاء الله ثم إن شاء الله سيتم خلال هذه السنة المباركة بعناية الباري وتوفيقاته وتوجهات حضرة صاحب التاج الرفيـع ، الإعتزاز والإفتخار بفتح المدينة المنورة ودخول مكة المكرمة وسيسير موسم الحج الشريف والطواف على أحسن ما يراد فتقرأ الأدعية

وتتلى المواعظ على المنابر وفي المحافل والمساجد باسم حضرة الظل الإلهي صاحب خير الصفات الجليلة خادم الحرمين الشريفين سلطاننا المعظم وهذا مما لا شك به قطعاً . وطمعاً بالحصول على دعواتكم الخيرية بادرنا بتحرير هذه العريضة ، وقد أرسلنا الرؤوس المقطوعة مع رئيس حجاب القهوة خاصتنا عبدكم إلى أعتاب فخامة الوالد بالفخر والإعتزاز ، متخذاً ذلك وسيلة لتأكيد عبوديتي واخلاصي لسيدي ولي النعم .

١٧ ٢٢٦ **خاتم طوسون أحمد**

نهدي اليك تحيات نوفحها مسكيه وتسليمات نوفحها مسكيه وعرف انفها
قدسيه وابتهالات قلوب العاريفين بذكر معفوفة بل قبول جاه محمد الرسول
الا تكا لحضرة العليه على الوزير المحترم اسيدي سليمان باشه سلطان مطلقه
الله بقا وابقاه وحرسه من كل عين وتولاه المكرم المشير المفخم مدبر جمهور
جمهوريا بفكر الثاقب والعلم النافع وبعد ان سلتم عنا فنحن اعافيه ولاننا
ل الاعنا جودكم التي هي غايتنا المراد من رب العباد وبعد نعلمكم بعلوم اهل
القبله فانه جاني كتاب من حاكم المدينه حسن اغا انه يخبر عن محمد
علي انه دفع ابنه طوسن باشه ايده الله بالنصر على عدوه وانه توجه ط
ديار الوهابي وانه وصل الا الرس وبين الرس والدرعيه ستت ايا
م وانه جو ناس من الوهبيه من ناحيت ابن علي احجيلان انهم غازيين
الدوله واخذوهم حرب وذبحوهم ولا نجا منهم احد وانهم تغنمو
بحلالهم هذا ما نخبركم به والسلام ١٢٢٦ كتبه بيده الشيخ طالب النبادير



الوثيقة ١٩٧٠١ العربية ــ أنظر ما كتبناه عنها في المقدمة

الوثيقة ١٩٥٤٣

الوثيقة ١٩٥٤٣

من محمـــد علي الى السلطان

حضرة صاحب السعادة والمروة والمطوفة والرأفة الأعز والأكرم سلطاني أفندينا .

لقد كان سبق العرض والأعلام بفتح قلعة ينبع البحر بخطاب رفع في حينه إلى الجانب العالي . والآن بعد أن نـَصَبَ عبيدكم عساكر البحرية خيامهم خارج القلعة واستقروا للاقامة فيها بانتظار وصول فرقة الخيالة ، وفي هذه الأثناء بادر اثنان من أصدقاء وأكبر قـــادة سعود ، وهما « الملعونان » .. المعروفان باسمي ابن جبـــارة ومسعود مضيان بالهجوم على جنودنا فاغتصبوا واستولوا على عدد من الحيوانات يتراوح بين عشرين وثلاثين كان تداركه واشتراه الباشبوغا (لقب قائد)مقدم أولئك الجنود إلى الخيالة فاضطر بقية الجنود إلى مقابلة هذين الملعونين المهاجمين واتباعها مشياً ، واستمرت المناوشة حتى أجبروهم على الهرب متجهين صوب ينبع البر حيث شرعوا بإقامة قلعـة جديدة من التراب ودعمها بالاستحكامات . وقد سارع جنودنا وقادتهم بشراء الجمال من قبائل العرب التي كانت جاءت الينا طالبة الأمان وتنشد الصداقة والسلام وبعد أن حمّلوا الذخيرة واللوازم والماء « والبقسماط »(أي العيش الخبز)عليها تحركوا جميعاً مستصحبين تلك القبائل العربية للهجوم على ينبع البر . ولدى وصولهم إلى موقع قريب من

ينبع البر يبعد ثلاث ساعات عنها ويعرف باسم « مبارك » استراحوا مدة ثلاث أو أربع ساعات في تلك المرحلة ثم نظموا العساكر ووزعوها على خمسة طوابير جهز كل منهـــا بمدفعي دولاب ، ورتبت الجيوش على أجنحة من اليمين والشمال والوسط،وبعد توحيد الصفوف هجموا دفعة واحدة ودخلوا ينبع البر. ولما رأى الملعونان المذكوران (يقصد ابن جبارة وابن مضيان) هذه الجسارة والجرأة من عساكرنا المظفرة وشاهدوا هذه الغيرة والحماس منهم باقتحام خيامهم وحشودهم استغربوا وغلبت عليهم الدهشة والحيرة وقالوا لبعضهم بعضاً : « إذا كان الجنود المشاة على هذا النظام والاندفاع فما بالك بالخيالة ؟ » ، وقبل أن يتمكنوا من ترتيب صفوفهم دبت الفوضى بين أفرادهم من مشاة وخيالة وسارعوا خلال ساعة بالانهزام ، وحدث اثناء انهزامهم غوغاء واختلال فيما بينهم وجعلوا يضربون ويدفعون وينهبون بعضهم بعضاً حتى ابتعدوا هاربين . لقد استشهد وجرح في هذه المعركة من عساكرنا مائتان ووقع من الملحدين ما يزيد عن ألف ، وقد جمع أيضاً ما يزيد عن ستمائة من رؤوس أفرادهم المقطوعة ، بغية الاحتفاظ بها وإرسالها ولكنها تعفنت وانبعثت منها روائح كريهة فرميت . أما أهالي ينبع البر فإنهم حين شاهدوا قبل بضعة أيام من حدوث المعركة طلائع جيشنا قادمة برئاسة السرعسكر باشا(القائد العام) وأخذوا علماً بإحاطة الجيوش بالملحدين بادروا لجمع أموالهم وأولادهم وعائلاتهم ونقلهم إلى الجبال ودفن ما لديهم من أشياء ، وهكذا وفيما عدا ذلك لم يحدث ولله الحمد أي تجاوز على الأهالي المقيمين في تلك الأماكن ولم تتعرض ممتلكاتهم وأموالهم إلى السلب والنهب ، بل جرى الفتح والاستيلاء دون عارض وذلك بفضل العناية الربانية. وشرع بذكر وتلاوة اسم حضرة الإله على الأرض أفندينا على المنابر وفي المحافل والدعاء له بالنصر . ووصلت بقية السرعسكر إلى ينبع البر ثالث يوم الفتح واتصل الجيشان أحدهما بالآخر . وقد جرى شراء واستئجار ما يلزم من الحيوانات لتحميل لوازم المشاة بعد أن تركت المواد والمعدات والأثقال الزائدة وغير الضرورية في ينبع البحر واكتفي بنقل الذخيرة الحربية والبقسماط (أي العيش ــ الخبز) والمياه. وتقرر

أن يتحرك المشاة والخيالة جميعاً صوب المدينة المنورة . وقد وردت الأخبار بعد ذلك بأنه بوشر بالاستعداد لفتح المدينة المنورة ، وبما أن ذلك مأمول الحدوث بعونه تعالى في غضون بضعة أيام كما يفهم من مضمون تلك التحريرات فإننا لدى وصول أخبار الفتح بعد أيام قليلة إن شاء الله سنبادر بعرض ذلك على رؤية المقام السامي . وقد سارعت الآن ورفعت إلى الذات العلية الشاهانية هـذه البشرى بالفتح والاستيلاء على ينبع البر ، وما بقي من التحركات والأحداث صار معلوماً بمنه تعالى لدي الذات الملوكانية من عريضتي المقدمة آنفاً إلى ولي النعم . هـذا وإني لآمل مخلصاً أن يحظى ذلك بالتصويب السامي ، وأن يظل عبدكم موضع الرضا والقبول الشهنشاهي ، وأن أتلقى الأوامر السنية المطاعة سلطاني المعظم .

٥ ٢٢٦ خاتم (محمد علي)

١

الوثيقة ١٩٥٤٧

الوثيقة ١٩٥٤٧

من محمد علي الى السلطان

حضرة صاحب الدولة والعنـــاية والعطوفة والرأفة عالي الهمم كريم الشيم سلطاننا أفندينا .

لقـــد كنا عرضنا سابقاً ولاحقاً على الحضرة الشاهانية بأن عساكر المشاة الموفدين إلى جانب الحجاز براً وبحراً قد أوقفوا الآن ومكثوا في ينبع البحر ، وانه من أجل تجديد خيول ومعدات الخيـــالة الذين أرسلوا براً وتبديلهم من الضروري استقدامهم إلى مصر ، وإننا كذلك بحاجة إلى اتخاذ ترتيبات جديدة براً وبحراً وانه أولاً سيجري إرسال ما يلزم من ذخائر عسكرية كاملة وإيفـاد بقية عساكر المشاة بحراً ، وانه بعـد ذلك ترسل المهمات واللوازم الجديدة أيضاً براً . وقد تلقيت الآن كتاباً من رئيس حجاب المقام العالي أمين خزانة عبدكم أحمد آغا الذي كان أفرز من معيتي وأوفد مع مقدمة الجيش المؤلفة من العساكر الجدد حسب الترتيب الأخير يقول فيه بأنهم جميعـاً وصلوا بسلامة الله إلى ينبع البحر ودخلوها. ويضيف الآغا الموما اليه انه بمناسبة عدم هطول الأمطار وعدم نزول الغيث هـــذه السنة المباركة وحتى اليوم في جهات الحجاز ، ولأن الماء الموجود والحالة هذه في الصهاريج الكائنة في ينبع البحر غير كافٍ سواء لهم أو لعساكر المشاة الكثيري العدد الذين سيصلون قريباً ، فإنه قد استُصْوِب بعـد

التشاور فيما بين الآغا المومأ اليه والقادة ومقدّمي الجيش والعارفين بأن يُكتفى باستبقاء العدد الضروري من الجنود في ينبع البحر للمحافظة عليها ونقل الباقي إلى ينبع البر وأن لا يُرسل جنود آخرون مجدداً الآن بل أن يُبادَر بإرسال ذخائر كثيرة ، وانه من أجل نقل الذخيرة من ينبع البحر إلى ينبع البر ونقل الماء من ينبع البر إلى ينبع البحر قد استحضر ألف بعير ، وانه لكي تُسيَّر هذه الجمال على مرحلتين وتجري المحافظة عليها وعلى حمولتها ذهاباً وإياباً يرى أنه من الضروري إرفاقها بعدد من الخيالة يصير إيفادهم حالاً براً ، وبمناسبة اقتراب موسم الصيف شديد الحرارة فإنه إذا اقتضى إرسال قوى الجيش المرتَّبة والجهزة فإنه سيتلف الجانب الكبير من هذه القوات بفعل حرارة الشمس من جهة ، وخاصة لقلة المياه التي سوف لا تكفي لإرواء الجنود والحيوانات فيتلاشى ويتلف أكثرها دون أن تحصل أية فائدة من وجودهم ، ولذلك فإنه من الأنسب أن يكتفى بهذا الترتيب الجزئي وأن يُعجَّل بإرسال الذخائر الوافية . وعند دنو أوائل موسم الشتاء تُعطى الإشارة بعونه تعالى لتحرك القوات البرية والبحرية .

إن ما أورده الآغا المومأ اليه هو في الواقع صحيح ومنطبق على الحقيقة ، وهذا يستدل عليه مما حدث فيما سبق حين وصل بعض الخيّالة لأول مرة ، فإن الحيوانات التي كانوا يمتطونها والتي اشتُرِيَ كل منها بمبلغ يتراوح بين ألف غرش وخمسمائة غرش لم يمكن بيعها لدى عودتها بأكثر من خمسة عشر أو عشرين غرشاً لأصحاب الطواحين وأعطي عدد منها بلا ثمن . وتأييداً لما تقدم نورد الحديث النبوي الشريف الآتي عن إقليم الحجاز ، وهو : « مَن صبر على حَرّ مكة وبرد المدينة فُتحت له الجنة » .

إن الإقليم المذكور هو – كما يتضح – مُهلك للنفوس ، لأنه مشهور بشدة الحر المؤذي والسموم ، وهكذا وجد من المناسب اتباع ما أشار به الآغا المشار اليه وتأجيل التعبئة الجديدة إلى أوائل الشتاء ، وأن يُكتفى الآن بإرسال ما هو مطلوب مستعجلاً من الجمال والخيالة بمعية نسيبنا عبدكم أحمد آغا على أن يتحرك يوم الخميس الخامس من هذا الشهر ليجري التسويق براً .

بالإضافة إلى ما تقـــدم ، فإن من كان مُلحقاً بمعية عبدكم « السر عسكر » (قائد الجيش العام) من القادة والأفراد قد استُشهد البعض منهم وأصبح البعض الآخر ضعيفاً معدماً نتيجة الحروب . وبناءً على ذلك فقد جرى تجهيز وإعداد مائة من الآغوات المنتخبين الملحقين بدائرة هذا العاجز وتسييرهم في نفس اليوم والتاريخ المذكورين على أن يوضعوا هم وخيولهم في السفن فيبحروا من ميناء السويس ، ونفذ ذلك فعلاً .

بقي أن نعرض أن من بقي في ينبع البحر من رؤساء الآغوات قـــد تلقى أوراقاً تهديدية مقدماً ، وهذا ما أوجب جزَعَهم ، وقد أوصوا بالثبات والحزم وبأن يحتفظوا بعقولهم في رؤوسهم ويتذرّعوا بالإدراك وأن يُعلمونا العدد الذي يجب إرساله من الجيوش والمعـــدّات (مئات أو آلاف) فنرسله حالاً حتى لا يتشبثوا بالقول في المستقبل بأن جنود العدو وتجهيزاته كثيرة بينما نحن لا نملك إلا القليل ، وأن ما لدى العدو من ذخيرة وأدوات يفوق ما لدينا منها ، فيتخذون ذلك حجة للإهمال والتقاعس ! وأفهموا وُذكّروا جميعاً بأن عليهم أن يكونوا حزمة واحدة مرتبطين روحاً وقلباً بالاجتهاد والجهاد بكل حيطة وحسن تدبير ، وأنذرناهم بأنه سوف لا يكون لهم على يدنا نجـــاة أو خلاص من المسؤولية والعقاب إذا هم قصّروا أو تهاونوا بأداء ما هو مفروض محتم عليهم من واجبات. وبعد الاستعلام منهم عن المقـدار اللازم من القوات أفادوا بأنهم يحتاجون إلى خمسة عشر ألف نفر من جنود المشاة . وبناءً على ذلك ، وبعد أن نظرنا بالأمر ملياً ، وجدنا بأنه عدا مـــا هو موجود بمعيتنا من القوات المرتبة والمخصصة للإرسال ، فإن هنالك مفرزات كبيرة وكثيرة العدد من الجنود تستقدم تدريجياً من روم. ولذلك فإنه، بالإضافة إلى الخمسة عشر ألف جندي من المشاة المطلوب إيفادهم ،بالإمكان أن نُرسل أيضاً أعداد كافية من الخيالة، كما أن الاستعدادات جارية من أجل مجابهة حر الصحراء وسمومها وقـلة مياهها لكي يتحمل الجنود تلك المشاق وتهون الامور عليهم .

ودعماً لكل ما تقـــدم ، فإننا آخذون بإعداد وتجهيز ثلاثة آلاف نفر من

الجنود المغاربة وإضافتهم إلى الجنود والجيوش التي مرّ ذكر تعدادها آنفاً ، على أن تتحرك بمنّه الكريم في أوائل الشتاء براً وبحراً ، إذ يكون قد تمّ ترتيبها فتساق بعون وعناية الباري تعالى وتوجيهات وبركات حضرة صاحب الشوكة السلطانية في الوقت المحدّد .

وما دام في قدرة كيان هذا العاجز عبدكم جسماً وروحاً أن يسير في هذه المصلحة بلا عجز أو فتور ، ومع شدة تصميمنا وحرصنا على ذلك ، ورغم انه لم يحدث أي تقصير من جهتنا بهذا الصدد ، فإننا نقول : ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ . وإننا إن شاء الله ، بفضل كرامات حضرة صاحب الشوكة أفندينا وأنظار كافة أولياء أمورنا الكرام الذين نرجو لهم جميعاً طول البقاء ، سنقوم بمنّه تعالى بما تعهدنا به من شؤون وجهاد ، وإننا سنوفّق لتأمين ذلك على الوجه الأكمل بإذن الله ورعايته وألطافه ، وهو سبحانه وتعالى الذي نستمد منه العون والنجاح .

هذا وانثا لنعرض لأفدينا عالي الهمة والشيم انه بالنظر إلى المسافات والمراحل العديدة التي يجب أن تمر بها تلك الترتيبات الكلية الجديدة والطرق والمحلات التي يجب أن تسلكها إلى أن تصل مع تلك الكميات من الذخيرة المتنوعة التي لا تنفذ ، سواء إلى ينبع البحر أو إلى سائر الجهات متحركة من مصر ؛ ولما كان يقتضي اتخاذ التدابير التي تستلزمها المصلحة ، وأن هذا يعني أنه بعد أن تتحرك الجيوش من مصر ، ولكي لا يطول الانتظار فإنه وجد أن من دواعي الاستعجال أن يجري تسيير كافة ما أعد من اللوازم من مصر لكي تصل خلال مدة لا تتجاوز ثمانية أو تسعة أشهر إلى محالها المعينة عن طريق ميناء السويس ، كما وتسيير بقية الأرزاق واللوازم والذخيرة والمهمات عن طريق ميناء القصير إذ أن ذلك يكون أسهل ، وأن يكتب بذلك إلى ضابط الميناء المذكور . على أنني بالنظر لحرصي الشديد والتزامي شؤون هذه الحملة ولرغبتي التأكد من انفاذ الارساليات بالسرعة وعلى الصورة المطلوبة واحتياطاً لذلك رأيت أن أذهب بنفسي حالاً مستصحباً عشرين نفراً من الأتباع إلى جهة الصعيد وأن أطلع بالذات على كل الاجراءات .

والحاصل إنني عازم بحول الله وقوته أن أكرس كافة أوقاتي ، الأيام والليالي ، لإنجاز هـذه المصلحة الحجازية على الوجه الأكمل باتخاذ كافة الوسائل وتدارك جميع الاحتياجات ، وإن كل اهتمامي ومساعي منحصران في توطيد ذلك . ولكي يكون كل ما سلف بيانه محاطاً بعلم حضرة الذات الشاهانية العلية فنكون هكذا مشمولين بأكبر التوجيهات والبركات والامدادات الروحانية والنفحات السامية البهية ، جرى تقديم هذه العريضة ، وعلى كل فإن الأمر والإرادة لحضرة أفندينا وسلطاننا ذي الشوكة والمهابة والإحسان .

٣٠ ٢٢٧ خاتم محمد علي

حـــاشية :

كتب السلطان ، في أعلى رسالة محمد علي ، هذه الحاشية :

لقد اطّلعت على هذا :

إن مطلبي المنحصر بالمصلحة الحجازية أحيله أولاً إلى الله سبحانه وتعالى ومن ثم إلى صاحب الغيرة علي باشا المشار اليه . كما إني أحيل قضية إبداء الرأي واتخاذ التدابير المقتضية إلى المشار اليه العليم بشؤون الأراضي الحجازية وكيفيتها وأنيطها برأيه . وسيعمل ما يقتضي لذلك ويسير وفق اللزوم . ليوفقه الله سبحانه وتعالى وسيوفّق إن شاء الله تعـــالى . وحتى ذلك الوقت فإن والي الشام أيضاً الذي سيصل إلى محله سيعلم بالمراسلة ما إذا كان بالإمكان التحرك من الشام أو مـا إذا كان يمتنع ذلك وسيتشبثون بإنجاز المقتضى في حينه وبحسن تدبير .

(خط همايون)

الوثيقة ١٩٥٧٨

الوثيقة ١٩٥٧٨

من أحمد طوسون الى والده محمد علي

حضرة صاحب الدولة ولي النعم أفندم

إن هذه السوانح التي وقعت والاعراض التي انتابت هذا العاجز والتي كانت غير مأمولة او متوقـّعة لم تكن ناتجة عن شجاعة او غلبة ... سعود ، إلا أنه لما كانت محاربة ... سعود أضف اليها متانة وأحكام مضيق جديدة ، ذلك الموقع العسير الشديد الذي لم يحسب له حساب،من العوامل المؤثرة ، وبما أننـا لم نحزم أمرنا كما يجب وبحسن تدبير لمواجهة تلك المصاعب، وتوجـّهنا ارتجالاً دون إمعان النظر في وجوه العمل فقد حدث ما ظهر من التخلف والتأخر ، وعدا ذلك فإن توجيه وإيحـاء حضرة واجب الوجود كان الغرض منه تنبيهنا للابقاء علينا وتحذيرنا من التورط وهذا كان واضحاً جلياً . وقد جاءت هـذه السوانح غير المأمولة أو المرتقبة مصداقاً إلى قوله تعالى الشريف : ﴿ وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ﴾، وكان ذلك بدون شك أو ريب حافظاً لنا وبادرة خير بحقنا.

بعـد عرض هذه الشؤون نفيد بأننا لدى وصولنا إلى ينبع البحر أخذنا نستعرض مواقع القلعة والأبراج ونظرنا في طريقـة وصورة تعزيزها وتقويتها وتحصينها وتنظيم أمور العساكر وتوزيعها ، ثم بالنظر لقـلة الماء الزلال أرسلنا الرجال والحيوانات والوسائط النقلية إلى (مويلح) وبادرت بالإفـادة وبشرح

هذه القضايا وما يتعلق بشؤون العساكر بعريضتين مفصّلتين حررتها أنا عبدكم وقدّمتها في حينه.. وكان قد ورد من حضرة الشريف تحرير يفيد ما قرّر سعود أن يقدم عليه من تحركات، كما أعلمناه باتجاه العساكر، ومقدارها عشرون ألفاً براً، وخمسة آلاف بحراً بالقوارب، وأنها ستصل إلى طرفنا، وقد بعثنا بهذه التحريرات إلى مقام ولي النعم العالي مع (قدري) وفيها عرض لكافة ما تقدّم.

سيدي صاحب الدولة ولي النعم. لقد استشهد وتعطل من العساكر الإسلامية بنتيجة المحاربة التي جرت في مضيق جديدة أكثر من مائتين، ولكنني أقسم بالله العظيم أن هذا العدد لم يبلغ الثلاثمائة. وقد علمنا من جواسيسنا الستة الذين وصلوا من مكة المكرمة والذين كانوا يتابعون مراقبة حركات الأعداء وفهمنا من تحرير حضرة الشريف الذي أتى به أحد رجاله، وبه وصف المحاربة الجارية بيننا وبين الأعداء، بأن جنود الأعداء لم يتمكنوا من الصمود بل عمدوا إلى الهزيمة والفرار مرتين، وأن عبد الله بن سعود وحده هو الذي ثبت في المعركة مع فريق من الرجال بعث فيهم الحماس، فلم يفروا بل ظلوا يحاربون، وأنه مات من جماعة «سعود» ستمائة وسبعون، كما مات من جماعة «عثمان مضايفي» ثلاثمائة وخمسة وثلاثون، وقتل من جماعة «أبو نقطة» «وابن شكبان» مائتان وسبعة وثمانون، ومات من جماعة «قحطان» اليمانيين نحو أربعمائة بالاضافة إلى سبعة وعشرين أميراً، فيكون مجموع الذين قتلوا وأبيدوا وجرحوا يتجاوز الأربعة الآلاف. وعدا عما ذكر يستفاد من تقرير الجواسيس أن الأعداء شهدوا بأعينهم ما لم يكونوا يتوقعونه من شدة وقوة جهاد عساكرنا، وكانوا مندهشين للغاية من ذلك ويتحدثون فيما بينهم قائلين: «نحن لم نرَ أبداً عساكر مثل هؤلاء فهل هم من الجن أو العفاريت؟»وكان الخوف واضح المعالم ظاهراً على وجوههم وملامحهم وفي حركاتهم، وهذا ما أفاده بحق وعلى وجه الصحة جواسيسنا. وأنه من جهة اخرى ولو حدث مثل ذلك من بؤس في جموعنا وبين صفوفنا، فضلاً عن الحلات الأخرى فإنه بمنه تعالى وبفضل كرامة وشوكة حضرة ولي النعم العالم أفندينا السلطان المعظم الذي ندعو له ولصاحب الدولة ولي نعمتنا أفندينا بطول العمر

والإحسان من لدن العلي القدير إن شاء الله تعالى ، وبسطوة حضرة أفندينا وهمة حضرة ولي النعمة سيتم سحق الخارجي سعود وأتباعه ، والإنتقام منهم والأخذ بالثأر قريباً مما سنُسر له جميعاً إن شاء الله ، وهذا ما نؤمله ونرجوه من الحق سبحانه وتعالى ونتمناه من قدرة القادر الكبير .

لقــد قبض سعود ... خلال هذه السنة المباركة في مكة المكرمة من حجاج المغرب ثلاثين ألف ريال إفرنسي ، وأنذر أولئك الحجاج عـدا عن ذلك بأنهم إذا لم يتعهدوا بدفع خمسة وعشرين ألف ريال السنة القادمة ، وهو الذي حدده كمبلغ واجب الدفع ، فإنهم سوف لا يتمكنون من أداء فريضة الحج وسلم سعود ... المذكور إلى نقيب حجاج المغرب فضلاً عن ذلك رسالة إلى نجل سلطان المغرب يقول فيها إن القباب المغربية يجب أن تكون على شكل متناسب مع النموذج المعين وأن لا يظهر عليهـــا أي شيء من المنهيّات .. وختم رسالته بنصائح من هذا النوع وأنهى حديثه بأخذه تعهداً بذلك ، ولما حضر أهل مكة نعتهم بالمشركين ولم يمكّنهم من القيـام بأية حركة معاكسة له وشتمهم مهدداً بهجوم أتباعه الكُثُر المرابطين في جدة على زعمه ، واتهمهم بالزندقة قـائلاً إنه يجب عليهم أن يجدّدوا إيمانهم وإسلامهم فانكفأوا مرتدين . أما بمـــا يتعلق بالمدينة المنورة التي احتلّها الوهابيون فإن سعوداً كان عيّن (حسن قلعي) بوظيفة « آغة القلعة » وأميراً فيها ولكنه عاد فعزله ونصب بدلاً عنه رجلاً .... يدعى (عفيصان) أميراً على المديـنة وآغا للقلعـة فيها (أي حاكم القلعة) ، كما انه عيّن بدلاً عن أحمـد الياسر أفندي : واحـــداً ... يدعى (أحمـد الحنبلي) وهو الذي كان قبلاً يقيم بالدرعية ، وقال انه سيطلب أحمد الياسر أفندي إلى الدرعية . وكان سعود يردّد القول : (عساكر مصر ! عساكر مصر كانوا يتبجّحون بذكرهم ، ويطرون شجاعتهم ، وقد رأينـــا عساكر مصر وجبنهم ...!) ، وكان سعود ... يكرر هـــذا المقال بحيث سمعه أهل مكة المكرمة ، كما أن أحد عساكر مصر الذي كان عند سعود ردّد هذا الكلام الذي إنما يدل على غرور وغلو والذي اعتبره أهل مكة موجباً

للتفاؤل بالخير . ولما لم يكن لهذا العاجز قدرة على إرسال فرق الخيالة مباشرة إلى ينبع البر (ينبع النخيل) على أي وجه ، فقد سُيِّرت إلى مويلح !. وكتب عقب ذلك ابن مضيان وابن جبارة تحريراً إلى سعود يقولان فيه إن فرق الخيالة المذكورة ذهبت إلى مصر وإن مجموعة كبيرة من عساكرنا أبحرت أيضاً إلى مصر وإنه لم يبق لدينا سوى ثلاثمائة أو أربعمائة نفر في ينبع البحر . وتبعاً لذلك فقد جمع سعود « غير المسعود » الجموع متأهباً لمهاجمتنا وأمر (أبا نقطة) وقحطان وجماعته وابن شكبان أن يلازموا حضرة الشريف وأن يرودوا حوله، واحتياطاً للأمر واستعداداً لدخول معركة كبيرة تمّ الاتفاق مع حضرة الشريف على تهيئة حملة تبحر براً قوامها جماعة من قادة عشائر عسير وغيرهم وخمسة آلاف من الجنود على أن ترسل براً وبحراً من جدة . وأننا ولو كنا على هذه الصورة وتبعاً لهذه الخطة أخلينا وسلّمنا ينبع ، إلا أننا حوّلنا وجهتنا إلى الجهة التي علمنا ان سعوداً قرّر أن يلاقينا فيها ، ولكي يكون موقفنا متصفاً بالمتانة تهيّأنا لملاقاتهم .. . وفي اليوم الحادي والعشرين من شهر ذي الحجة تحرّكنا من مكة المكرمة جادّين بالسير ولكننا لم نصادف أحداً ، ويظهر أن سعوداً لم يأتِ إلى الجديدة مارّاً بالطريق العامة السلطانية ، بل يغلب على الظن أنه قرر الاتجاه إلى الدرعية من الطريق الشرقية كما أن ابنه عبد الله ومعه رفيقه وعثمان مضايفي ساروا من جهة الطائف متجهين أيضاً وجهة سعود إلى وطنهم الأصلي. أما جماعة وعساكر عسير الذين أُمروا بالالتحاق بحضرة شريف مكة المكرمة للتوجه إلى طرفنا فقد أُرسلوا إلى جدة لإركابهم بالقوارب. وكان قبودان محمد (من لمنى) لاحظ أن سعوداً قد يتجه صوبهم فأخذ مدفعَيْن من مدافعنا مجهّزَيْن بالقذائف الكافية بالإضافة إلى إحدى سفن أفندينا التي وضع فيها مدفعان أيضاً علاوة على مدفعيْ محمد قبودان ومدفعان آخران أُخرجا من القلعة ، وأُعدت كل تلك المهات والمعدات والذخائر لملاقاة سعود وجماعته . ولكي يكون الاستعداد لمهاجمتهم كاملاً اتخذت الترتيبات براً وبحراً وأصبح لدينا خمس سفن مجهزة وبتنا جميعاً بمعية حضرة صاحب السيادة الهاشمية بانتظار

المعركة . وقد بقي لدينا من قوات الخيالة التي أرسلت إلى مويلح نحو ستين . واتجه ابن مضيان وابن جبارة نحو ينبع البر لتحريض عربان جهينة وحثهم على أن يكونوا معهم وأن يتبعوا الوهابيين ، وقد أساؤوا إلى كثير من العربان وعملوا على تكديرهم ، واتجه ابن مضيان بعد ذلك إلى موطنه (الصفراء والجديدة) ، وحضر ابن جبارة نهاراً إلى السويقة للإقامة فيها وظلّ نحو نصف ساعة من الليل ثم عاد إلى قريته وبقي فيها . هذا ما بلغني من الأخبار ، وهي مؤكّدة وصحيحة .

إن ما بقي والحالة هذه في خدمة عبدكم من الذين سبق تعيينهم هم : شيخ جزامي وهو شيخ حرب سابقاً وشيخ محمود من جهينة ومن ينبع الشريف منصور ووكيل حمدان ومع هؤلاء ثلاثون من الخيّالة وثلاثون من الهجّانة وستون تقريباً من المشاة ، وأُضيف إلى هذه المجموعة ستون خيالاً بمعية جوقدار آغا وحسين خزندار أُرسلوا جميعاً على دفعتين إلى ينبع البر وعادوا منها بعد أن تجوّلوا حولها متفقدين ومستطلعين . وقبل أن أقدّم عريضتي إلى مقامكم العالي بيوم واحد أرسلتهم جملةً فوصلوا نحو الصباح إلى السويقة ولما شرعوا فور وصولهم بالحرب تبيّن أن ابن جبارة كان فرّ قبل عشر ساعات ولم تتحمّل جماعته القتال فاستسلموا وهرب قسم منهم تاركين خمساً وعشرين من الهجن والجمال والسيوف والبواريد وعدداً من الأواني النحاسية وفرسيْن . وجُرح من أفرادنا سائس وواحد من الخيول ، وغنم جماعتنا أشياء اخرى كثيرة عادوا بها ، وفور وصولهم بعثوا إلى الخيالة الموجودين في (مويلح) بعدد من الأكياس الجديدة والقرَب المليئة بالخبز والفول والشعير وغير ذلك أرسلت كلها براً كما أُركب ذووهم وحُمّلت أمتعتهم الثقيلة على الجمال وأُوصلت إلى البحر ووُضعت في القوارب لإرسالها بحراً . وأُوصي أولئك الخيالة بأن يظلوا مقيمين في مويلح إلى أن يصلهم أمركم العالي وحُذّروا تكراراً من العمل خلاف ذلك ، وألحقنا بهم ستمائة وخمسين قنطاراً من الخبز (البقسماط) وتسعمائة وستين اردباً من الشعير . وقد مضى على ذلك ثلاثون يوماً ولم يرد الينا أي خبر عن وصولهم وهذا ما جعلنا

في قلق وألم وبتنا غارقين في تفكير عميق وهواجس وأسف شديد . على أنه كان قد أعطي على الحساب إلى رهط الكشافة مائة وأربعة وخمسون كيساً من النقود.

إنني سأعرض على حضرة سيدي ولي النعم سريعاً بتحرير مفصّل أسلمه إلى عبدكم الباشجلويش (الرقيب الأول) أمين آغا مـا يرد إليّ من أخبار عن سفر حضرة الشريف المشار اليه خلال خمسة أيام براً وبحراً وتوجهه وعزيمته إلى هنـا أو عدمها وعن سائر تحركاته كيفما حصلت. وخاصة لإظهار عبوديتي واحترامي الفائقين جرى تحرير هذه العريضة ورفعها إلى ذاتكم البهية واجبة التعظيم ، وإن شاء الله ستحظى بشرف الوصول إلى ساحة صاحب الدولة ولي النعم . وعلى كلٍّ الأمر والإرادة لحضرة ذي المرحمة سيدي أفندم .

١٠ م سنة ٢٢٧ خاتم طوسون أحمد

حـــاشية :

ساعة الانتهاء من تحرير هـذه العريضة قدم رجل من المدينـة المنورة وأفاد بأن سعود ... لم يلتفت قط صوب المدينـــة وأنه مع كافة جماعته متوجّه شرقاً إلى الدرعية ، كما أنه فيما عدا مـا تقدّم بيانه لم يتعرض لحجاج المغرب وأن هؤلاء متوجهون إلى المدينة المنورة، ولكي يكون ذلك معلوماً لديكم اقتضى العرض والإشعار أفندم .

الوثيقة ١٩٥٤٢

الوثيقة ١٩٥٤٢

من محمـــد علي الى السلطان

حضرة صاحب السعادة والعطوفة والمروّة والرأفـــة الأخ الأعز الأكرم سلطاني أفندينا عالي الشيم .

لقد اختلف العساكر الذين أُوفدوا السنة الماضية فيما بينهم ولم يحاولوا أن يتشبّثوا لأن يتوصلوا بالمراسم اللازمة إلى اتفـاق على التقدم والتسمية وكل فرقة كانت ترغب أن تكون هي المتقــدمة بالاسم ، فكانت إحداهما تقول : لكن الاسم واللقب لي ، والاخرى كانت تريد ذلك لها .. وهكذا وبمثل هذا الخلاف ساروا بعزيمة إلى أداء مهمتهم . ومع انهم اقتحموا تلك التلال والجبــال الصعبة المسالك والوعرة المداخل بغية بلوغ مضيق « جديدة » المسير ، ولكنهم بالنظر لعدم توافقهم بالسير وعـدم تعرف الفرقة الواحدة على مواقع الاخرى ومنازلها وعلى كيفية انتقالها وظروفها وأحوالها وعدم تبادل أية أخبار أو معلومات عن خطط السير لانتشار الفوضى والغوغائية وعدم وقوع اتفـــاق وانسجام بينها ، ولذلك فإن هذه الحركات غير المستوفية شروط التعاون والتنظيم بقيت مستمرة دون نتيجة حاسمة وظلّت هكذا المصلحة الأساسية معلّقة طيلة هـذه السنة ، ولا يمكننا إلا أن نقول أن هذا كان تقدير العزيز العليم ! وأن نجعل من هذا القول الحكيم وسيلة للتمويه وتسلية النفس . أما الآن وفي هـــذه السنة المباركة فإن

فصائل خيالة العرب والكشافة التي كانت أوفدت مسبقاً براً بمعية ابن أخينا أحمد آغا إلى تلك الجهة وصلت الحجاز بمنّه تعـالى ، وبوصولها اتفقت واتحدت بودّ وتحابٍّ مع الفرق التي كانت أرسلت سابقاً والمستقرة الآن في الينبعين (يقصد ينبع البحر وينبع البر النخيل) وشرعوا بالحركات العسكرية التفقدية والتطهيرية تارة متوجهين صوب مواقع بدر حنين وقرى المدينـــة المنورة ، وأخرى نحو المضايق المذكورة وغزو ومهاجمة العربان الوهابيين الموزّعين يمنة ويسرة وأولئك الذين أرسلوا من قبل الوهابيين للمحافظة على جماعاتهم وحمـايتها ، والسطو على أموالهم وحيواناتهم وأخذها واغتنامها والتضييق عليهم وإضعافهم. وكان العدو بالنظر إلى قلة ذخيرته ومؤونته ووقوع الضغط عليه من قبل جنودنا ، غادر تلك المضايق والمحال واتجهوا هم أيضاً صوب المدينـــة المنورة منسحبين من مواقعهم مارّة الذكر ، ولذلك تمكن جيشنا بحمد الله تعـالى وعنايته من دخول المضايق نهار أمس دون ما عائق وهم على أهبة الاستقرار التام في تلك الأماكن ، وقـــد وردت البشائر بذلك بتحرير من ولدنا الباشا (السر عسكر) أرسله الينا ، وبه يشير كذلك أن ما كان لديه ولدى أتباعه من الوسائط النقلية الحيوانية وغيرها من المهات والذخائر والعتـاد أصابها التلف تقريباً خلال الحروب المستمرة السنة الماضية ، ولذلك فإنه لم يتمكن من استصحاب الوسائل النقلية والعتاد والذخيرة الكافية والذهـاب إلى المضايق المذكورة مع الجيش ، وانه بقي في ينبع البحر وهو يطلب الآن سرعة إرسال ألف من الخيـالة الجسورين الشجعان وستمائة من الخيول له ولأتباعه ونحو أربعة آلاف من الجمال وألف هجين وإيصالها اليه حالاً وفور وصولها سيتحرك إلى جهات المضايق ومنها صوب المدينة المنورة . وبناءً على ذلك فقد أحضرنا وسيّرنا اليه حالاً ما طلبه من خيول وجمال وهجن بصحبة ألف من الخيالة الشجعان تحرّكوا جميعاً خارج مصر بعد التنظيم والترتيب بدلالة مصطفى بك رئيس حجّابنا بتاريخ هـــذا اليوم وسيشرعون بالسير إلى المحل المقصود خامس أيام هذا العيد الشريف متوجهين براً صوب الباشا الموما اليه .

هذا وإنني قبل أن أتحرك بنفسي سأعمل على تهيئة وإحضار كافة ما يلزم من

العساكر والذخائر التي يقتضي وجودها في ينبع وأجمعها خلال هــــذا الموسم ، وبعد أن يتم إرسالها جمـلة سألتحق أنا أيضاً بجيش هـذا العاجز الموجود خارج مصر وسأقصد متوكلاً على الله النصير صوب تلك الحال الشريفة للاهتمام بمصلحة وبخدمة الحرمين الشريفين بعون وعناية الباري سبحانه وتعـــالى أولاً ، وثانياً مستمداً من مورد روحانية حضرة رسول الله ، وثالثاً من يُمن وهمم حضرة ظل الله ، ورابعاً من انضمام دعوات كل من عباد الله الخيرية التي أنا بحاجة اليها . وإن قيامي بمشيئة الله بهذا الأمر من المسلـّمات البديهية بإذن الله .

وقد بادرت بتحرير ورفع هذه العريضة لبيان وإيضاح ما تقدم ، وإنني بمنّ الله تعالى سأسارع بعرض بشائر فتح المضايق وشرح كيفية حصول ذلك فور بلوغها إليّ مصحوبة بالدعوات الخالصة والتعظيات اللائقة لحضرة سلطاننا المعظم الذي أنا على استعداد لتنفيذ إرادته العليا منتظراً تلقّي الأمر السامي .

٢٧ سنة ٢٢٧ خاتم محمد علي

الكرم الذي
العبد يقبل الارض الذي هي ملجأ العفاه ومحل الكرم الذي
لا يخيب من اقتفاه المولى الاعظم والمشير الافخم مالك الديار القاصيه ونائل الاقطار
الحجازيه وفخر الدولت العثمانيه خلد الله جلاله على البريه ومكنه وحفظه من العيوب
البشريه امين اللهم امين وبعد ان سعادت افندينا اسليمان باشا عند هذا الداعي مقيمين
لكم على وظيفت الداعي ثم المحول من المبدي لتكميل سعادت اياديكم الكرام وعمر جنابكم السعيد
من خصوص ابن على عجلان وانهم ذكروا افندينا محمد على جقى بينه وبين الدرعيه يوم من رجبنا
اوكان خبرنا من جهتهم حاضرين الكون من خدامك الشيوخ المواني وبعثنا خبر افندينا عن ملهار
ومبشريه ومن خصوص بركت للدارين الفاخره وان شاء الله ان افندينا سعي لها بكليته وعلي
دمتم والسلام

الداعي
جيكم الاحمد
اوضباشي المواني

وصل صحبة ... ...

الوثيقة العربية رقم (١)

قيمة الوثائق التاريخية

كنا أشرنا ، في الجزء الأول من كتابنا ، إلى الوثائق المطوية ، العربية والتركية ، التي وجدناها في دار المحفوظات التركية باستانبول – وكان بعضها غير « مفهرَس » ، ثم امتدت اليه يد العنـاية فلخصت محتوياته و « بوّبت » موضوعاته – وهناك وثائق كبيرة الخطر في القاهرة وفي بلدان أخرى عربية وأجنبية تلقي أضواء على نواح ما تزال مجهولة من التاريخ العربي عموماً والتاريخ السعودي خصوصاً ، ونحن لا ندّعي أننا وقفنا على كل تلك الوثائق وأحطنا بها علماً وأفدنا منها في تحقيق الوقائع المذكورة في كتابنا ... ولكننا نرجو أن تقوم الحكومة السعودية ، في عهد فيصلها العظيم ، بجمع هـذه الوثائق وترجمتها وترتيبها وتكليف عـدد من الباحثين دراستها و « تقييمها » [1] ثم وضعها في متناول المراجعين .

أما هـذه الوثائق المعدودة التي تخيرناها من بين عدد كبير من مثيلاتها ، ونشرناها في هذا الملحق ابتداءً من الصفحة ٢٧٥ حتى الصفحة ٣١٧ ، فكان السبب في اختيارها صلتها بالحملة المصرية الاولى التي بدأت في عهد الإمام سعود ،

(١) كان الأمثل أن يقال « تقويم » .. ولكننا أخذنا بهذه الصيغة ، حتى تعرف النسبة الى القيمة .. وهي الصيغة المشهورة.

والتي لخصنا وقائعها في هـذا الجزء من كتابنا ، وقد قارنـّا بين مضامينها وبين أقوال ابن بشر وغيره من المؤرخين وكونـّا على هدى هذه المقارنة رأينا وقناعتنا.

ونحب أن نشكر هنا للأخ الكريم الاستاذ فوزي هنانو ، الذي ترجم لنـا النصوص التركية ترجمة تكاد تكون « حرفية » ، مؤازرته لنـــا ، وقد أثبتنا ترجمته بعد تعديل يسير جداً، وبعد حذف شيء من الكلمات النابية التي استعملها محمد علي وابنه وغيرهما في كلامهم عن أهل نجد وحكام الدرعية ، وهي موجودة في الأصول التركية ، ولا يضرّ حذفهـا شيئاً في وصف الأحداث التاريخية .. وأما ما أبقيناه من تلك السباب ، فإنمـا استبقيناه للدلالة على سوء أدب كاتبيه وافترائهم وبهتانهم .

هل تعهّد سعود بالابتعاد .. عن الحرمين ؟

وممـا يحسن التنبيه عليه ، في أمر الوثيقة (١٩٥٤٠) المنشورة في الصفحة (٢٧٦)، أنها كتبت في عهد الإمام عبد العزيز ، وكان من حقها ، تاريخياً ، أن تثبتَ في الجزء الثاني من كتابنا ، ولكننا اخترنا لهـا هذا المكان ، لأنها تتعلق بسعود ، ولأن كاتبها، والي العراق علي باشا، يزعم أن سعوداً (تعهّد بألا يقترب فيما بعد من حدود الحرمين ، أو من حدود الممتلكات الخاقانية .. وحين أبدى وأكد رغبته في ذلك وحلف الأيمان وأعطى المواثيق على ما قال وتعهد ، أخذ منه سند محرر ألصق عليه طابع رسمي ..)

ولا نشك في أن هذه الدعوى باطلة تماماً ، ولم يُشِرْ اليها أحد من مؤرخي الترك الموثوقين ، وربما ذكرها الوالي ليبرر تخلفه عن القيام بمحاربة الدرعية !..

مساعدات الترك للمصريين في إعداد الحملة :

أما الوثيقة (١٩٥٤١) فقد اخترناها لأنها واحـــدة من الوثائق الكثيرة التي تدلنا على أن الأتراك كانوا يساعدون المصريين في بنـاء السفن الحربية وتجهيزها بالمدافع ، كما ساعدوهم بإرسال القذائف والصواريخ ومختلف الأسلحة والضباط والمدربين والعساكر .

وصف المعارك :

أما الوثائق الاخرى فتتصل بوصف المعارك التي وقعت في ينبع وبدر والجديدة ، وقد أشرنا اليها في وصفنا لتلك الحوادث ، والأمر المستهجن الفظيع الذي نجده في بعض رسائل طوسون وأبيه محمد علي هو اعتزازهما بتهاوي الرؤوس المقطوعة ، وهــذه الحالة هي أسوأ حالات « النفسية » المرضية اللاأخلاقية التي يسمونها في الغرب : (الكلبية) !

رسائل العربان :

وقد أثبتنا الوثيقة ١٩٧٠١ العربية وهي رسالة صادرة عن الشيخ طالب بن بدير ، ضابط (العلا) ، وفيها يخبر والي العراق ، رواية عن حاكم المدينة ، أن طوسون وصل الرس ، وأن بدو حرب ذبحوا (ابن حجيلان) ورجاله.. وهذه الحماسة المصطنعة في رواية الاخبـــار والمبالغة فيها كانت نتيجة شراء الضمائر ليس غير .

الاحاديث المصنوعة :

وقد أثبتنا أيضاً الوثيقة ١٩٥٤٧ ، وهي رسالة من محمــد علي الى السلطان ، يعترف فيهـــا بخسائره الجسيمة في الأنفس والمعدات ، وبضعف (معنويات) جنوده ، وأنهم « أوصوا بالثبات والحزم ، وأن يحتفظوا بعقولهم في رؤوسهم » ، ومن أعجب الامور أن محمــد علي يقول للسلطان ، مبرراً فشل الحملة ، أن إقليم الحجاز (مهلك للنفوس) ، ويورد هذا الحديث المصنوع :

« من صبر على حرّ مكة وبرد المدينة فتحت له الجنة » !

قيمة الوثائق :

ومهما تكن المآخذ التي نأخذها على بعض الوثائق ، ففيها كثير من الحقائق ، بما تتناول من وصف للوقائع ، وتحديد للتواريخ والأماكن ، ولا بد لكل مؤرخ من الإطلاع عليها والإفــادة منها ليكون عمله مساهمة مرضية في خدمة الحقيقة والتاريخ .

الخاتمة

نظرة عامة على حكم سعود

وكلمات عن السلطان العثماني ومحمد علي وابنه أحمد طوسون الذين حاربوه وانتزعوا منه الحرمين

كان عهد سعود استمراراً لعهد أبيه الامام عبد العزيز بن محمد بن سعود ، مع زيادة في الحروب وفي التوسع،بل كان عهده سلسلة موصولة من الفتوح والمكاسب والانتصارات قطعها ، في آخر أيامه ، الغزو المصري – التركي ، الذي اجتاح بلاده ، مبتدئاً بشطرها الغربي : الحجاز .

أفيعني هذا أن الامام سعود أضاع بعض التركة التي خلـّفها له أبوه العظيم ؟

أضاع سعود الحرمين، مكة والمدينة ، والطائف ، وأضاع قبل ذلك ، شيئاً من ساحل الحجاز ، ولكن هذه الأراضي لم تكن خاضعة لعبد العزيز ، باستثناء الطائف ، التي يقول ابن بشر : إن الاستيلاء عليها تمّ في شهر شوال ، قبل وفاة عبد العزيز ، بينما يؤكد المؤرخ التركي جودت باشا أن الامام سعود هو الذي استولى على الطائف بعد وفاة أبيه !

وهكذا .. نستطيع القول إن الامام سعود لم يُضع شيئاً من تركة أبيه ، وإنما فقدَ شيئاً مما أضافه اليها خلال ولايته وبحدّ سيفه ، وقد مات عن تركة

تزيد عما ورثه بلداناً كثيرة في اليمن وتهامة، كاللحية وبيت الفقيه وزبيدة وبلاد أبي عريش .. إلى بلدان أخرى في عمان ومسقط لم تخضع للدرعية إلا في عهده!

ذلك هو الواقع، ولكن المؤرخ لا يقف عند هذا الحد من البحث، فموت سعود عن ملك كبير لا يعني أن الكارثة، التي انتهت بانهيار الدولة السعودية الأولى، لم تبدأ في زمانه .. ولذلك يحمّله بعض المؤرخين شيئاً من تبعة هذه الكارثة الهائلة، لما ينسبون اليه، في آخر أيامه، من حرص على المال، أبعد عنه كثيراً من رجال العشائر وزعماء الحجاز، ومن إصرار على تحدي السلطان التركي، في وقت أصبح فيه هذا السلطان أكثر مقدرة على الحركة، لتناقص الأخطار الخارجية التي كانت تتهدد ملكه، ولتخلص واليه على مصر، محمد علي، من خطر المماليك وسيطرته الكاملة على مصر!

وإلى جانب هؤلاء المؤرخين، الذين يحملون سعود الكبير بعض التبعات، نجد عدداً من المؤرخين الافرنسيين الذين كتبوا عن حملة محمد علي، يقولون – مع معرفتهم بجوانب الضعف القليلة في شخصية سعود الكبيرة – إن الامام سعود لو عاش فوق عمره، عدة سنوات أخرى .. لما انهارت الدولة، لأنه كان قادراً على مواجهة محمد علي بقوة ودهاء، وربما كان يستغني عن الحجاز، لفترة من الزمن، ولكنه كان يحتفظ بكل ممتلكاته الأخرى، بعد أن ينزل بجيوش محمد علي خسائر فادحة، وهؤلاء المؤرخون إنما ذهبوا الى هذا الرأي لأن عبد الله ابن سعود (ارتكب) أخطاء حربية كثيرة، ولم يستفد من الأزمات التي مرّ بها أعداؤه، وهذه الأخطاء التي تعدّ سبب الهزيمة التي نزلت به، ما كان أبوه سعود ليرتكبها، لأنه كان عظيم الهيبة، واسع الحيلة، لا يدع الفرص السانحة « تفلت » من بين يديه ولا يهمل تتبع خصمه المنهزم في الميدان ..

رأيان في كل منهما جانب من الحق. ولكن..هنالك عناصر أخرى خارجية زادت الموقف في الجزيرة العربية حرجاً، منها: تولي السلطان محمود الثاني السلطنة في استانبول، وتولي محمد علي الولاية في مصر، فكلاهما من أمكر الناس وأدهاهم ولديهما موارد كثيرة من الرجال والأموال والأسلحة ..

الادارة في عهد سعود

لم تكن الادارة معقّدة في زمن سعود ، وقد استطاعت هذه الادارة على بساطتها، كما يقول بروكلمان ، (أن توطد دعائم السلامة العامة، وكانت مفقودة في بلاد العرب منذ قرون) .

وقد توهم الريحاني أنه لم تكن ، في زمن سعود ، إدارة .. ولذلك قال ، بعد أن أثنى على عدل سعود في حكمه :

(.. بيد أنه لم يكن على شيء من الادارة ، ولا كان النظام — ما عدا بعض قواعد أساسية تتعلق بالجيش — معلوماً ! فلم يكن يربط النواحي القصية بعضها ببعض غير كلمة الامير، ولم يكن ليحفظها وثيقة العرى غير صولته، فاذا ذهبت الصولة ذهب الملك) .

ويبدو لنا أن (بركارت) و (مانجان) الغربيين كانا أكثر معرفة بحقائق الامور في عهد سعود من الريحاني ، فقد ذكروا أولاً : ان الادارة السعودية خاضعة لأحكام الشرع ، وثانياً : أن سعود قسم البلاد الى أقاليم ، وجعل عليها أمراء ، وكان يختارهم من أفراد العائلات التي كانت تتولى الإمارة في الاقليم أو البلدة، إلا إذا اتجه الرأي العام الى غيرهم أو فرضت تغييرهم مصلحة عامة، وثالثاً : أن للأمراء سلطات حددها لهم الإمام،في اطار الشرع والأعراف الحسنة ، ومن أعظم مهامهم الاشراف على جمع المقاتلين كلما طلب منهم ذلك ومساعدة عمال الزكاة، والسهر على حفظ الأمن، وتنفيذ أحكام القضاة ، والسهر على تطبيق أحكام الشرع ، ورابعاً : ان الامراء يتمتعون بحرية كبيرة في حدود إمارتهم ، ولكن أي واحد من مواطنيهم يستطيع أن يشكوهم الى الإمام إذا ارتكبوا ظلماً أو أخلوا بواجباتهم . وقد كان سعود يبين للأمراء واجباتهم ، في رسائل يكتبها اليهم .

واجبات الامير وسلطاته :

ومما ورد في إحدى رسائله — المنشورة في الصفحة ٢٤٧ من كتابنا — هذه الفقرات ، التي تبرز كثيراً من واجبات الأمير وسلطاته ، قال الإمام سعود :

١ — وإني .. ملزمٌ الأميرَ يقوم على الناس في أمور دينهم من حيث الجملة من تعلم وتعليم .

٢ — ويقوم على الناس في قمع ما جرى منه شيء يستوجب الأدب : فإن كان الأدب فيه حكم شرعي أوحد لزمه الإمضاء ، وإن كان أدباً غير ذلك .. أدّب على قدر ما يردع أرباب المعاصي .

٣ — ويقوم على الناس في تفريق الرديين .. والقومة على النـــاس في أنواع التهم ، والقومة على أهل مواقف التهم .

٤ — والقومة عليهم في بخس المكاييل والموازين .

٥ — وبخس الزكاة أو اعطائها من أرذل المال ، وما جرى مجرى هذا .

٦ — ومن مداخلة الربا في البيوع .

٧ — والقومة في الجهاد من إتمـام التسليح بالسلاح الطيب والرجال الطيبين ، والقومة على الخيل وتمام آلاتها .

وإني ملزم كل من يخاف الله ويرجوه : القومة مع الأمير بكل هذا) .

الزامية التعليم .. ومساعدات لطلاب العلم :

وإني قـد لزمت على كل أمير ناحية يخص على خمسة عشر أو أكثر أو أقل من أهل بلدانه ويلزمهم طلب العلم لأنه أمر ضروري .

إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من النـاس ولكن يقبض العـــلم بموت العلماء ... الخ .

ولا أعذر كل أمير ناحية إلا عنده ناس مخصوصون ويلزمهم طلب العلم ويكتب لنا أسماءهم في ورقة ، ويوصلهم إن شاء الله ما يعاونهم على معيشتهم .

تتبع المرابين :

وكان سعود يكره الربا كثيراً ، في أشكالها الظاهرة والخفية ، وقد جاء في بعض رسائله ما يوضح لنا شدة عنايته بمكافحة الربا، فقد أقام رجالاً مخصوصين في كل بلد لمراقبة المبايعات الربوية وتأديب أصحابها ، قال :

(وأنا آمر هؤلاء الذين معهم الورقة يختارون من كل أهل بلد ثلاثة أهل دين،

وأنا ملزمهم بتتبع التجار والفلاح في مسألة المبايعة ، ومن فعل شيئاً مما بينا في هذه الورقة فيبينون للأمير ، فإن كان الأمير ما قـــام وأدّب ، أدّبت الأمير وأدّبت الفاعل) !

ما يقوله الدليل عن ادارة سعود :

ونقتطف ، ممـا كتبه « دليل الخليج الفارسي » عن إدارة سعود ، هـــذه الفقرات ، بتصرف يسير :

(كانت إدارة سعود مثالاً نموذجياً للأساليب السلفية الوهابية ، وما كان يشرك أحداً من أولاده في الأعمال العامة ، باستثناء ابنه البكر عبد الله .

لم يكن « ديكتاتوراً » مستبداً ، فقـــد كان يحيط نفسه بأصحاب الرأي ويستشيرهم ، وفي مقـدمتهم آل الشيخ ، ويمكننا القول إنه كان زعيماً عربياً كبيراً ، يفرض نفسه على الآخرين بمزاياه وهيبته ، أكثر ممـــا يسودهم بمركزه ولقبه ..

وكان يحرص على استبقاء أبناء الأسَر في مناصب أسَرهم التقليدية، ما اطمأن إلى إخلاصهم ، فإذا ظهرت له منهم بوادر عـدم الولاء عاقبهم ، وربما أكرههم على الإقامة في الدرعية تحت مراقبته ..

كان يُكرِه النـــاس على الصلاة في أوقاتها بالقوة ، فيخرج المطوعون إلى الشوارع بالهراوات ويسوقون المتخلفين إلى المساجد، ولكنه كان يلتزم بالنصوص الدينية تماماً فلا يخلّ بحرمة الدور ، وقـــد جاءه مرة رجل وقال له إن فلاناً يشرب الخمرة أو يدخن في داره ، فسأله سعود :

– كيف عرفت ذلك ؟

قال : أطللت عليه من نافذة بيتي !

قال سعود : ألم تعلم أن الله سبحانه نهى عن التجسس !

وعاقبه سعود على تجسسه ، ولم يكترث لأقواله ، حتى لا يشجع الآخرين على التجسس !)

أمراء سعود :

ويذكر ابن بشر أسماء أمراء سعود كما يأتي :

على الأحساء	:	ابراهيم بن سليمان بن عفيصان
على القطيف	:	أحمد بن غانم
على البحرين	:	سلمان بن خليفة
على عمان	:	سلطان بن صقر بن راشد (ثم عزله وجعل مكانه ابن أخيه حسن بن رحمه)
على الجيوش في عمان	:	مطلق المطيري
على ناحية القصيم	:	حجيلان بن حمد
على ناحية الوشم	:	محمد بن ابراهيم بن غيهب المعروف بالجميح
على المحمل	:	ساري بن يحيى بن سويلم
على ناحية الخرج	:	عبد الله بن سليمان بن عفيصان
على ناحية سدير	:	حمد بن سالم (ثم عزله وجعل مكانه عبد الكريم ابن معيقل)
على الطور وتهامة	:	عبد الوهاب ، المعروف بأبي نقطة (ولما قتل جعل مكانه طامي بن شعيب من عشيرة عبد الوهاب)
على وادي الدواسر	:	ربيع بن زيد الدوسري
على بيشة ونواحيها	:	سليمان بن شكبان (ثم بعده ابنه فهاد)
على رينة وضواحيها	:	مصلط بن قطنان
على جبل شمر والجوف	:	محمد بن عبد المحسن بن فايز بن علي
على الطائف والحجاز	:	عثمان بن عبد الرحمن المضايفي
على مكة	:	الشريف غالب بن مساعد
على المدينة	:	حسن القلعي
على ينبع	:	جابر بن جبارة

القضـــاء

يقول بركارت: إن البلاد العربية التي لم تخضع للحركة السلفية الوهابية كانت تعيش في شبه فوضى ، من حيث القضاء والنظام ، وأما البلاد الوهابية فكانت تنعم بنظام قضائي صالح وتطبق أحكام الشرع .

علم الامام عبد العزيز العرب الخضوع للنظام ، والمحافظة على الأمن العـام ، والاحتكام في خصوماتهم إلى القضاء بدلاً من الخصام وتحكيم الحسام ..

وجاء سعود فأتمّ عمل أبيه وتوسع فيـه ، فاستكثر من القضاة ، وأرسلهم إلى مختلف المدن والقرى ومنازل العشائر ، القريبة والبعيدة ، وكان يختارهم من أعظم الناس وأنزههم ، ويجري عليهم أموالاً وأرزاقاً من بيت المال ، بينما كانت العادة أن يعطي المتخاصمون قضاتهم أجوراً عن قضائهم تختلط أحياناً بالرشوات!

كان القضاء عادلاً ، و « مجانياً » ، وكان القضاة على مقربة من المتقاضين ،فلا نفقة ، ولا مشقة ، ولا مظلمة : وتلك نعمة من نعم الله الكبرى تنعم بها شعب الدولة السعودية .

ومما يحسن التنبيه اليه ان القضاة كانوا مستقلين وأحراراً في قضائهم ، لا سلطان للأمير ولا للإمام نفسه عليهم !

وقد ذكر ابن بشر ، في تاريخه ، طائفة من أسماء القضاة في عهد سعود، فقال إن قضاة سعود كانوا :

على الدرعية : عبد الله بن الشيخ
سليمان بن عبد الله بن الشيخ
علي بن حسين بن الشيخ
عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ
حمد بن ناصر بن عثمان بن معمر
عبد الرحمن بن خميس (إمام القصر وقاضيه)

على الأحساء : محمد بن سلطان العوسجي
ثم عبد الرحمن بن نامي

على القطيف	محمود الفارسي (مهاجر من أهل فارس)
على تهامة	أحمد الحفظي
على اليمن	الشريف حسن بن خالد
على الطائف والحجاز	عبد الرحمن بن عبد الله أبا بطين
على جبل شمر	عبد الله بن سليمان بن عبيد
على بريدة	عبد العزيز بن سويلم
على عنيزة	غنيم بن سيف (ثم أخوه عبد الله)
على الوشم	عبد العزيز بن عبد الله الحصين
على سدير	علي بن ساعد
على منيخ	عثمان بن عبد الجبار بن شبانة
على حريملا والمحمل	عبد الرحمن أبا حسين
على الخرج	علي بن حمد بن راشد العريني
على المدينة النبوية	أحمد الياس الاصطنبولي الحنفي وأحمد بن رشيد الحنبلي
على مكة	أقرّ فيها قضاتها . (ثم أرسل اليها سليمان بن عبدالله ابن الشيخ ، فأقام فيها مدة قاضياً ورجع) .

قال ابن بشر : (وأما غير ذلك من النواحي فكان يبعث اليها القاضي نحو سنة ثم يرجع ويبعث غيره) .

الموارد المالية

لم يذكر ابن بشر إلا بعض الموارد المالية في عهد سعود، فقال إنه كان يأتيه:

من بندر اللحية	١٥٠ ألف ريال
ومن الفدعان (من عنزة)	٤٠ ألف ريال
ومن الأحساء	٨٠ ألف ريال (تظهر الى الدرعية..والباقي للثغور والخيالة والحوالات الخ ..)

وقدر ابن بشر ما تأتي به العاملة (أي كل مجموعة من العمال الذين يذهبون لجمع موارد الزكاة) بثلاثة آلاف كحد أدنى (وقـــد يبلغ أربعين ألفاً) .. وكانت هناك سبعون عاملة أو أكثر ، « فمتوسط » الموارد تقريباً حوالي مليون ريال ، إذا حصلت كل عاملة عشرة آلاف ريال أو أكثر قليلاً ..

وقدر بركارت تلك الموارد في احدى السنوات بمليونين من الليرات،وقدرها بروكلمان (بمليون ونصف مليون طالير ، من عهد ماري تريز) وقال مثنياً على سعود إن ادارته لم تعرف (أي نوع من الابتزاز التعسفي ، فهي تكتفي بجمع الزكاة من المكلفين ، وفقاً للمبادىء التي نصّ عليها القرآن) . ولم تعرف البلاد السعودية أي نوع من تلك الضرائب الظالمة التي كان يفرضها الولاة في بعض البلاد العثمانية ، وعرف بعضها باسم « العوانية » !..

حكم تحضير وكفاح للأساليب البدوية :

يصف بعض المؤرخين والكتاب الغربيين الحكم السعودي بأنه حكم (بدوي)، ويصفون دولة نجد بأنها دولة بداوة .. لاعتقادهم بأن الجزيرة العربية ، باستثناء مدن معدودة فيها ، هي أرض القبائل الرحل .. وحكامها على مستوى حالتها الاجتماعية .. وكل هذا زعم باطل ومجرد هراء !

والحقيقة التي لا سبيل الى الشك فيها هي أن الحكم السعودي كان حكم تحضير وتمدين ، وهو ، في ذلك ، إنمـــا يطبق مبادىء الحركة السلفية الإصلاحية التي أسسها ودعا اليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، فسعود ، وجده وأبوه من قبله ، لم يطبقوا على المدنيين أساليب البدو ، ولكنهم طبقوا على البدو أساليب الحضر ، وقد حاربوا البدو حروباً كثيرة عنيفة حتى أخضعوهم لحكم الشرع ، المطبق في المدن ، وإلى ذلك أشار ابن بشر في وصفه لحالة الأمن والنظام بين العربان ، في عهد سعود،فقال عنه إنه أذلّ صناديد العربان (وأخضع رؤوسهم لأحكام القرآن ولأهل القرى والبلدان، وأذعنوا لأوامره وحكمه فلم يقدر أحد منهم على مخالفة أمره ، فـــلا يلقى صاحب الدم غريمه إلا بالسلام عليك يا فلان ! وصار البادي والحاضر تحت هذا الحكم القاهر ، كالأقارب والإخوان) .

كافح سعود كثيراً من عادات البدو وأساليبهم وخصوصاً ما كان يدعى (الدخايل) ، وهو أن يلجأ قاتل أو سالب الى عشيرة فتحميه وتمنعه من كل طالب متتبع له ، ولو كان أميراً أو قاضياً .. كما فرض الدية بدلاً من الثأر .. وحال كذلك ما استطاع دون اقتتال العشائر فيما بينها بسبب ثأر قديم أو خلاف على مرعى أو نحو ذلك ..

وقد ذهب سعود ، في سبيل إقرار الأمن ، الى اعتبار العشيرة كلها مسؤولة عن أي واحـــد من أفرادها يرتكب جريمة ، ولذلك كانت العشيرة تتبرأ من المجرم وتسلمه الى السلطة .. مما أدى الى تناقص عدد المجرمين وشيوع الأمن .

الجيـــش

لم يكن في زمن سعود جيش دائم ، محترف ، كما هي الحال في الوقت الحاضر ، عند أكثر الأمم ، وإنما مضى سعود على سنة آبائه ، فكان يجمع المقـــاتلة من الحواضر والبوادي قبل أيام من الغزو الذي يريده ، فإذا انتهى الغزو عاد المقاتلة إلى أوطانهم ..

عنصر المفاجأة :

وقد وصف ابن بشر شيئاً من أساليب سعود في غزواته ، فقـال إنه كان (إذا أراد أن يغزو إلى جهـــة الشمال أظهر أنه يريد الجنوب أو الشرق أو الغرب ..)

وهذه الطريقة إنما يراد منها مفاجأة العدو بالغارة قبل أن يستعد لهـــا .. (فإذا قرب من العدو نحو ثلاثة أيام ، بعث عيونه أمامه ، ثم عدا ، فلا يلبث حتى يبغتهم وينزل قريباً منهم ،فلا يوقد عند جميع المسلمين ـ يعني مقاتلة سعود ـ نار ، ولا كأنهم نزلوا بتلك الديار) [١] .

---

(١) ابن بشر .

ويذكر بركارت ان مقـاتلة سعود قضوا في سيرهم من نجد إلى الشام خمسة وثلاثين يوماً ، ومع هـذا لم يعرف والي الشام بأمرهم إلا عنـد اقترابهم من ضواحي دمشق .

عنصر « الرعب » :

وربمـا أضاف سعود إلى عنصر المفاجأة : عنصر الرعب ، وكان يفعل ذلك بطرائق مختلفة ، من أشهرها دعوته المقاتلين إلى إطلاق نيرانهم دفعـة واحدة ، مما يضعف مقاومة الخصوم ويحملهم على الاستسلام من شدة خوفهم مما سمعوه!..

تقى المقاتلين :

وكان سعود لا يعفي المقاتلين من تأدية الصلوات في أوقاتها ، إلا لضرورة ملحة ،وكان لا يباشر القتال الا بعد أن يعظ المقاتلين ويثير فيهم الحماسة والنخوة يساعده في ذلك عدد من العلماء الأفاضل ، من آل الشيخ وغيرهم ، الذين كان يصطحبهم في غزواته ، وكان أكره ما يكرهه من المقاتلين الجبن والغلول .

جمع الجيوش :

كان المقاتلون يجمعون جمعاً من بلدانهم وعشائرهم قبيل كل غزوة ، ومعنى ذلك أن كل جيش يتألف من سكان المنطقة التي جُمع منها ، ويشترك في القتال بقيـادة أمير المنطقة أو رئيس العشيرة ، الا اذا رأى الامام سعود غير ذلك ، وأما القيادة العامة فتكون لسعود أو لمن يختاره .

ويقال ان كل منطقة كانت تتكفل بنفقات جيشها ، وبذلك لا يدفع سعود من ماله شيئاً ، وكأن الغنائم هي أجر المقاتلين الموعود .

المنجية :

ويزعم بركارت أنه كانت عند سعود فرقة صغيرة من المقاتلين الشجعان ، كان يتخير لها كل رجل شجاع اشتهر في قومه ، وقد بلغ عددها ثلاثمائة أو أكثر

وكان يصطحبها في غزواتها ، وتدعى : « المنجية » .

ولم نجد لهذه الفرقة ذكراً في التواريخ النجدية التي بين يدينا ، ولكن ابن بشر ذكر في تاريخه ، في معرض كلامه عن خيل سعود ، أنـه ملك من الخيل العتاق ألفاً وأربعمائة فرس (يغزو معه منها ستمائة فرس ، يركبها رجال انتقام من شجعان البوادي وشجعان مماليكه وغيرهم) ..

وهكذا كان سعود يملك حرساً خاصاً ، أو جيشاً خاصاً دائماً ، من الرجال الشجعان ، يؤلف طليعة مختارة أو مـا يشبه في هذا العصر « فرقة المغاوير » — كوماندوس — .

الجيش .. والمساحي والفؤوس :

ومن الأمور التي تلفت النظر في بعض رسائل الإمام سعود ، أنه كان يدعو المقاتلين الى استحضار المساحي والفؤوس ، مع الأسلحة .. لماذا ؟

لأنه كان يريد من الجيش ، فوق القتال ، أن يهدم الأوثان ويبني الثغور !

قال في احدى رسائله :

(أعدّوا الفواريع والفؤوس والمساحي والمحافر ، تراني أرجو أننا نهدم بها الأوثان ، ونبني الثغور بأوطانهم ، بحول الله وقوته) .

أمراء الجيش والمقاتلين من البدو :

يمكننا القول إجمـالاً أن قواد الجيوش هم أمراء البلدان ، إلا في حالات نادرة ، وكذلك يمكن القول إن قواد المقاتلين من البدو هم شيوخهم .

وقد أثبت المؤرخ الافرنسي (مانجان) في كتابه المسمى (تاريخ مصر) ، والذي أفرد فيه ملحقاً خاصاً أسماه (تاريخ الوهابيين) جدولاً بأسماء رؤساء المقاتلين من البدو ، وذكر اسم كل عشيرة وعدد مشاتها وفرسانها ، وربمـا كان هذا الجدول يحتاج الى تكملة ومزيد من التحقيق ، وهذا هو الجدول كمـا أورده مانجان :

اسم القبيلة	اسم الشيخ	عدد المشاة	عدد الفرسان
بنو خالد	ابن عريعر	٢٥٠٠	٢٠٠٠
مطير	فيصل الدويش	٣٠٠٠	١٦٠٠
عتيبة	محمد بن ربيعان	٤٠٠٠	٣٠٠
حرب	غانم بن مضيان	١٥٠٠	٢٠٠
السهول	خزّين بن لحيان	٢٠٠٠	٢٥٠
قحطان	محمد بن عامله	٧٠٠٠	٨٠٠
العجمان	محمد بن شكبان	٣٥٠٠	٢٠٠
آل مرة	صالح بن زويله	١٥٠٠	١٢٠
الدواسر	قائد بن ربيعان	٥٠٠٠	٢٠٠
الظفير	ماضي بن سويط	٢٤٠٠	٨٠٠
عنزة	الحميدي بن هزال	٢٥٠٠	١٢٠٠
شمر	فارس الجربا	٣٠٠٠	٦٠٠
سبيع العارض	فراج أبو تنين	١٢٠٠	١٠٠
سبيع القبلة	مصلط بن قطنان	٢٠٠٠	٢٥٠
		٤١٠٠٠	٨٦٢٠

سلاطين آل عثمان في عهد سعود

ثلاثة سلاطين تعاقبوا على الحكم في استانبول ، خلال عهد سعود ، وهم :

أولاً : السلطان سليم الثالث ، وكان يدعو الى الاصلاح ، تشبهاً بالغرب ، وكان يريد التخلص من العساكر « الانكشارية » ، ولكن هؤلاء العساكر – وكان مشايخ « البكتاشية » يؤيدونهم ، لخوفهم من قضاء السلطان على طرقهم وتكاياهم ومواردهم – استطاعوا أن يكرهوا السلطان على التخلي عن العرش سنة ١٨٠٧ م .

ثانياً : السلطان مصطفى الرابع ، وكان أكثر أنصاره من دعاة الإصلاح ، فقتلهم الانكشارية ، ثم خلعوا السلطان ولم يمض عام واحـد على توليه السلطنة أو الخلافة !. وكان فقيراً بالموارد،فكتب إلى سلطان مراكش يطلب منه قرضاً..

ثالثاً : السلطان محمود الثاني ، وهو أخو السلطان سليم الثالث وقـد تولى السلطة سنة ١٨٠٨ . وكان عاقلاً ، داهية ، من أعظم سلاطين آل عثمان، وكانت بلاده في خضم الأخطار : خطر الانكليز ، وخطر الافرنسيين ، وخطر المماليك، والألبان والصرب ، واليونان ، والمصريين ، والسوريين ، والأكراد ، ودسائس الباشاوات ومؤامرات الانكشارية .. الخ .. ولكنه استطاع التغلب على كل هذه الأخطار !

ومن أشهر أعماله الناجحة، قضاؤه على العساكر « الانكشارية »، فقد ذبحهم غدراً ، كما ذبح محمد علي المماليك في مصر ، وأنشأ في تركيا جيشاً جديداً باسم النظام الجديد ، وأصدر قوانين عصرية ، ونظم الإدارات على أسلوب حديث ، وكان يظهر التمسك بالدين .

وهو الذي دفع محمد علي إلى محاربة السعوديين .

من هو محمد علي ؟

من هو محمد علي ، الذي أوكل اليه السلطان محمود الثاني ، محاربة الدولة السعودية الاولى ؟

محمد علي ألباني الأصل – أرناؤوطي – ولد سنة ١٧٦٩ م. – ١١٨٢ هـ. في قواله (كافالا) ، قرب سالونيك، في مقاطعة الروملّي، التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية ، وهي اليوم يونانية وتدعى (مكدونيا) ، وقد كان والده ابراهيم آغا رئيساً للحرس ، وكان محمد علي طفلاً صغيراً عند وفاة والده ، فتكفله عمه الذي كان يشغل منصب (متسلم) – أي نائب الحاكم – في قواله ، وكان محمـد علي أمياً ، ولكنه كان ذكياً ، وقد رأت أمه ، فيما يرى النائم ، أن ابنها أصبح ذا ثراء عريض وسلطان وجاه،فقصّت حلمها على ولدها فزاده ذلك طموحاً و كبرياء.

كان أول عمل ناجح قام به محمد علي (عملية) غدر ومكر .. فقد كلفه عمه تحصيل الضرائب من قرية ممتنعة ، فذهب اليها محمد علي وطلب من عدد من سكانها أن يذهبوا معه للصلاة في المسجد – وكان يتظاهر بالتقى – فذهب معه عـــدد منهم وصلوا فلما انتهوا من الصلاة قيدهم بسلاسل واصطحبهم معه الى قواله ، ومن هناك أرسل الى أهل القرية أنـــه سيقتل أولئك الرجال ، الذين اعتبرهم رهائن وأسرى ، اذا لم تسرع القرية الى تسديد الضرائب كاملة ، فأذعنت القرية وسرّ المتسلم كثيراً بذلك .. وزوّج محمد علي احدى قريباته ، وكانت أرملة مات عنها زوجها ، فأنجبت لمحمد علي ابراهيم وأحمد طوسون واسماعيل .

ويقال ان ابراهيم ليس ولد محمد علي ، وإنما هو ابن امرأته من زوجها الأول.

ولما غزا الافرنسيون مصر ، طلب السلطان العثماني من متسلم قواله أن يرسل عدداً من المقاتلة الى مصر للمشاركة في قتــال الافرنسيين ، فأرسل اليها ثلاثمائة جندي بزعامة ابنه ، ولكن محمد علي تولى بمكره قيادة هذه الفرقة إذ جعل ابن المتسلم ، وكان من الشبان المترفين ، يتخلى له عن القيادة ويرجع الى وطنه .

ويقول المؤرخ الافرنسي مانجان إن الحظ خدم محمد علي كثيراً ، لأن القائد العثماني أوكل اليه مهاجمـــة حصن إفرنسي منيع فهاجمه واقتحمه واستولى عليه وأصاب بذلك شهرة كبيرة ، والحقيقة هي أن الافرنسيين كانوا قد أخلوا الحصن من تلقاء أنفسهم قبل وصوله بقليل !..

بعــد ذلك قدمه القائد التركي الى والي مصر خسرو باشا وأوصاه به خيراً ، فولاه خسرو فرقة من العسكر لمحاربة المماليك ، ولكنه اتفق سراً مع المماليك، وضايق خسرو حتى عزل من ولاية مصر ، ثم أرسل السلطان خورشيد باشا والياً على مصر فعاكسه محمد علي وأراد خورشيد عزله ، ولكن محمد علي جمع العساكر حوله وحملهم على أن يقسموا له يمين الولاء حتى النفس الأخير .. وأرسل الى استانبول الهدايا والرشوات..وبذلك سماه السلطان والياً على مصر عام ١٨٠٥م. ثم انقلب محمد علي ضد حلفائه المماليك وذبحهم .

وكانت سياسته تتسم بالمكر والغدر ، بل هي أسوأ تطبيق للسياسة

(الماكيافيلية) .. ولكنه ، بعد استقرار الأمور له ، أخـذ بالأساليب الغربية للنهوض بمصر ، ويقال انه بدأ يتعلم القراءة والكتابة وهو في الخامسة والأربعين ، وكان يتكلم التركية ، ولم يحسن قط النطق باللغة العربية ..

وهو يزعم إنه حارب السعوديين انتصاراً للدين ، ولكنه كان يعلم أن دعواه هذه كاذبة ، لأن السعوديين هم المتمسكون بالاسلام الصحيح ، وقد أحب أن يخدع الجماهير ويظهر لهم أن السعوديين يخالفون ما عليه أهل السنة ، فاستدعى عدداً من علمـــاء نجد ، وقال لهم أن يناظروا علماء الأزهر – وكان يظن أن الأزهريين يريدون إظهار تفوقهم عليهم فيتهمونهم بالخروج عن الدين .. ولكن العلماء النجديين ، كما يقول بركارت – لم يذكروا شيئاً ممـا هم عليه من المعتقدات والأفكار ، إلا احتجوا له بآيات من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة ، ثم جاؤوا بكتاب التوحيد للشيخ محمـــد بن عبد الوهاب وبأقوال أخرى له وقرأوها ، فقال علماء مصر لمحمد علي :

ما دام النجديين يقولون بما يقول به الشيخ محمد بن عبد الوهاب فنحن معهم ، وكيف لا نكون مع الذين يتمسكون بالقرآن والسنة ؟

وهكذا طوى محمد علي صفحة المناظرات الدينية العلمية لأنه لم يجـــد فيها ضالته ، ولجأ إلى الافتراء والسباب والدعاوات الباطلة لخداع الجماهير .

لقد ذكرنا ، في بحثنا عن الحمـــلة المصرية ، الأسباب التي دعت محمد علي إلى تلبية أوامر السلطان ومحاربة السعوديين ، ونكتفي هنـا الآن بإضافة ما قاله أمين الريحاني ، إلى ما قلناه من قبل :

قال الريحاني :

(تردد محمد علي في بادىء الأمر ، لا لأنه لم يكن ليرغب فيه أو يستطيعه ، بل لأن المماليك كانوا يومئـــذ مسيطرين ، وكان يخشى أن يترك البلاد وشؤونها في أيديهم .

أعاد الباب العالي الطلب مراراً ، وقد هدد الباشا إذا كان لا يذعن للأمر ..

والواقع إن الباشا كان راغباً في الإذعان للأمر ولكنه كان يتحين الفرص ، وقد رأى في الإذعان ثلاث فوائد كبرى لنفسه :

الاولى – أن يبعد جيشه الألباني غير المنظم ، الكثير التمرد ، فيتمكن في أثناء غيابه من تنظيم جيش مدرب على الطريقة الغربية .

والثانية – أنه يأخذ من الدولة الأموال التي كان في حاجة اليها بحجة لزومها لنفقات الحرب المقدسة .

والثالثة – ان هـذه الحرب تجمع عواطف المسلمين في العالم على حبه وولائه بصفته منقذ الحرمين ومعيد مناسك الحج .)

(٢٢)

كيف كانت نهاية رجلين حاربا الامام سعود ؟

— ١ —

نهـــاية الشريف غالب

قال الجبرتي :

في صفر من سنة ١٢٢٩ وصل إلى القاهرة (حريم الشريف غالب ، فميّنوا له داراً يسكنها مع حريمه جهة سويقة العزى ، فسكنها، ومعه أولاده ، وعليهم المحافظون .

واستولى محمـــد علي باشا على موجودات الشريف غالب من نقود وأمتعة وودائع ومخبآت وشرك وتجارات وبن وبهار ونقود بمكة وجدة والهند واليمن ، شيء لا يعلم قدره إلا الله تعالى .

وأخرجوا حريمه وجواريه من سرايته بما عليهن من الثياب، بعدما فتشوهن تفتيشاً فاحشاً ، وهتك حرمته !

قل اللهم مالك الملك ! هذا الشريف غالب انتزع من مملكته ، وخرج من دولته وسيادته وأمواله وذخائره ، وانسلّ من ذلك كله كالشعرة من العجين ، حتى أنه لما ركب وخرج مع العسكر وهم متوجهون إلى جدة أخذوا ما في جيوبه ! فليعتبر من يعتبر !

وكل الذي وقع له وما سيقع له بعد من التغريب وغيره ، فيما جناه من الظلم ومخالفة الشريعة والطمع في الدنيـــا وتحصيلها بأي طريقة ، نسأل الله السلامة وحسن العافية .

وقال الجبرتي ، في أخبار أواخر سنة ١٢٣١ .

(ومات الأجل المكرم الشريف غالب بسلانيك . وهو المنفصل عن إمارة مكة وجدة والمدينة وما انضاف إلى ذلك من بلاد الحجاز ، فكانت إمارته نحواً من سبع وعشرين سنة ، فإنه تولى بعد موت الشريف سرور في سنة ١٢٠٣ هـ .

وكان من دهاة العالم ، وأخباره ومناقبه تحتاج إلى مجلدين ، ولم يزل حتى سلط الله عليه بأفاعيله هذا الباشا ، فلم يزل يخادعه حتى تمكن منه وقبض عليه وأرسله إلى بلدة سلانيك ، وخرج من سلطنته وسيادته إلى بلاد الغربة ، ونهبت أمواله وماتت أولاده وجواريه ، ثم مات هو في هذه السنة) .

— ٢ —

نهاية أحمد طوسون

وقال الجبرتي في أخبار أواخر سنة ١٢٣١ م :

(ومات المقر الكريم المخدوم أحمد باشا الشهير بطوسون ، ابن حضرة الوزير محمد علي باشا ، مالك الأقاليم المصرية والحجازية والثغور وما أضيف اليها ، وقد تقدم ذكر رجوعه من البلاد الحجازية وتوجهه الى الاسكندرية ورجوعه الى مصر ثم عوده الى ناحية رشيد ، وعرضي خيامه جهة الحماد .. وهو ينتقل من العرضي الى رشيد ثم الى برنبال وأبي منصور والعزب .

ولما رجع هذه المرة ، أخذ صحبته من مصر المغنين وأرباب الآلات المطربة بالعود والقانون والناي والكمنجات ، وهم ابراهيم الورّاق والحبابي وقشوة ومن يصحبهم من باقي رفقائهم ، فذهب ببعض خواصه الى رشيد ومعه الجماعة المذكورون فأقام أياماً ، وحضر اليه من جهة الروم جوار وغلمان أيضاً رقاصون ، فانتقل بهم الى قصر برنبال ، ففي ليلة حلوله بها نزل به ما نزل من المقدور ، فتمرّض بالطاعون ، وتلل نحو عشر ساعات وانقضى نحبه ، وذلك ليلة الأحد ٧ شهر ذي القعدة ، وحضر خليل أفندي قوللي حاكم رشيد ، وعندما خرجت روحه

انتفخ جسمه وتغير لونه الى الزرقة ، فغسلوه وكفنوه ووضعوه في صندوق من الخشب ، ووصلوا بـه في السفينة منتصف ليلة الأربعاء عاشره ، وكان والده بالجيزة فلم يتجاسروا على إخباره ، فذهب اليه أحمد آغا أخو كتخدا بك ، فلما علم بوصوله ليلاً استنكر حضوره في ذلك الوقت ، فأخبره عنه – أي عن أحمد طوسون – أنه ورد الى شبرا متوعكاً، فركب في الحين القنجة وانحدر الى شبرا وطلع الى القصر وصار يمر بالمخادع ويقول : أين هو ؟

فلم يتجاسر أحد أن يصرح بموته، وكانوا ذهبوا به وهو في السفينة الى بولاق ورسوا به عند الترسخانة ، وأقبل كتخدا بك على الباشا فرآه يبكي فانزعج انزعاجاً شديداً وكاد أن يقع على الأرض، ونزل السفينة فأتى بولاق آخر الليل، وانطلقت الرسل لإخبار الأعيان ، فركبوا بأجمعهم الى بولاق ، وحضر القاضي والأشياخ والسيد المحروقي ، ثم نصبوا (تظلك) ساتراً على السفينة ، وأخرجوا الناووس والدم والصديد يقطر منه ، وطلبوا القلافطة لسد خروقه ومنافسه ونصبوا عوداً عند رأسه ووضعوا عليه تاج الوزارة المسمى بالطلخان ، وانجروا بالجنازة من غير ترتيب ، والجمع ماش أمامه وخلفه (وليس فيها من جوقات الجنائز المعتادة كالفقهاء وأولاد الكتاتيب والأحزاب شيء) من ساحل بولاق. الى الرميلة ، فصلوا عليه بمصلى المؤمنين وذهبوا به الى المدفن الذي أعده الباشا لنفسه ولموتاه ، كل هذه المسافة ووالده خلف نعشه ينظر اليه ويبكي ...

.. ولما وصلوا إلى المدفن هدموا التربة وأنزلوه فيها بتابوته الخشب ، لتعسر إخراجه منه بسبب انتفـــاخه وتهرّيه ، حتى انهم كانوا يطلقون حول تابوته البخورات في المجامر الذهب ، والرائحة غالبة على ذلك ، وليس ثمّ من يتعظ أو يعتبر !

.. ومات وهو في مقتبل الشبيبة لم يبلغ العشرين ، وكان أبيض جسيماً ، كما قد دارت لحيته ..)

ويقول الجبرتي ، مع ذلك ، ان أحمد طوسون كان يميل الى أولاد العرب ، وكان ينكر على أبيه أفعاله ، والله أعلم !

الفهرس

الموضوع	الصفحة



ملاحظة :

سنفرد في القسم الرابع – الأخير – من الجزء الأول ، إن شاء الله ، مكاناً عريضاً للمراجع وللفهارس المفصلة ، متضمنة أسماء الأعلام والأماكن والمواضيع الواردة في أقسام الجزء الأول كلها . وربما ألحقنا بالقسم الأخير أيضاً فصلاً عن العلم والعلماء في الدولة السعودية الاولى وبعض الرسائل والوثائق التي تتصل بعهد سعود الكبير وغيره . والله الموفق .

كتب المؤلف

الدستور السوري، باللغة الفرنسية
عبقرية الإسلام في أصول الحكم
الحقوق الدستورية
الحقوق الرومانية
الحقوق المدنية الفرنسية
الحقوق الجزائية الخاصة
أوراق
تاريخ البلاد العربية السعودية:
١ ـ عهد التأسيس
٢ ـ عهد الإمام عبدالعزيز بن محمد
٣ ـ عهد الإمام سعود
٤ ـ عهد الإمام عبدالله بن سعود
ـ فيصل، تاريخ مملكة في سيرة زعيم
ـ الإمام تركي بن عبدالله
ـ رجل في جلد آخر، وقصص صغيرة

كتب معدة للطبع أو قيد الإعداد
ـ أوراق الذهب
ـ معاوية
ـ الأسطول الإسلامي
ـ ابن خلدون
ـ خالد بن صفوان
ديوان شعر
الصلات الدولية في الإسلام
أيوب
الخ . .
مسرحيات:
ـ زنوبيا
ـ كليوباترة
ـ بلقيس ـ ملكة سبأ
ـ المطلقات

المؤلف

- ولد في دمشق، ونــال الشهادة الثانوية في سن مبكرة جداً، وتكاد لا تصدق.
- نال شهادة الحقوق في دمشق، وشهادة الحقوق من كلية الحقوق في باريس، ودكتوراة الدولة في الحقوق العامة والخاصة من جامعة باريس، وشهادة في فقه اللغة، وشهادة في الأخلاق وعلم الاجتماع من السوربون، وشهادة في الصحافة من معهد العلوم الاجتماعية العليا بباريس.

مناصبــه السابقــة:

- نائب دمشق مراراً.
- وزيــر الشبــاب والدعاية (الإعلام)، ووزير العدل ووزير المعارف مراراً.
- أستاذ ذو كرسي في كلية الحقوق بدمشق، ورئيس الجامعة بالوكالة مراراً.
- عضو المجمع العلمي العربي بدمشق.
- كبير المستشارين في وزارة المعارف، بالمملكة العربية السعودية، ومستشار في دارة الملك عبدالعزيز
- رئيس تحرير المجلة العربية.
- وقـد أصـدر في دمشق مجلة «الحياة الأدبية» ثم جريدة «النضال» وترأس تحرير جريدة «الجزيرة» وكتب مقـالات وبحـوثاً أدبية في مجلات وصحف كثيرة في سوريا ولبنان ومصر.



طبـع بمطابـع دار الشبــل للنشــر والتــوزيــع والطبــاعــة
ص ب ٢١٢٩١ الرياض ـ ١١٤٧٥ ـ تليفون + فاكس ٤٨٨٠٠٤٧